http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } ؛ أي ذلكَ الذي ذكرتُ لكَ يا مُحَمَّد من قصَّة يوسف وإخوته من أخبار ما غابَ علمهُ عنكَ نوحيه إليك. قولهُ : { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ } ؛ أي وما كنتَ عندهم إذ عزَمُوا أمرَهم على إلقاءِ يوسف في الْجُب ، { وَهُمْ يَمْكُرُونَ } ؛ به ، وكان مَكرُهم إلقاءَهم إياه في البئرِ.

(٠/٠)

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } ؛ أي وما أكثرُ الناسِ بمؤمنين بالقرآن والرسول ولو حرصتَ يا مُحَمَّدُ على دعائِهم إلى الإيمان وجهدتَ كلَّ الجهد.

(٠/٠)

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } ؛ أي وما تسألُهم يا مُحَمَّدُ على دعائِهم إلى الله من جُعْل في مالِهم فيصدُّهم ذلك عن الإيمان. قَوْلُهُ تَعَالى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي ما القرآن إلا موعظةٌ للعالَمين.

وقوله تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } ؛ أي فكم من آيةٍ دالَّة على وحدانيَّة اللهِ مما في السَّموات من الشمسِ والقمر والنجوم ، وما في الأرضِ من الأشجارِ والجبال والنبات وغيرِ ذلك من الحيوانات ، يرَونَها ويشاهدونَها ثم لا يستدلُّون بذلك على أنَّ لها مُدبراً حكيماً عليماً قادراً لا يشبهُهُ شيء من المخلوقاتِ. ويقال : أرادَ بالآياتِ التي في الأرضِ آيات عادٍ وثَمود وقومِ لوط وغيرهم ، كان أهلُ مكة يَمُرُّونَ عليها في أسفارِهم ولا يتَّعظون بهم.

(٠/٠)

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } ؛ أي ما يُصَدِّقُ أكثرُهم بلسانِهم إلا وهم مُشركون به غيرَهُ ؛ لأنَّهم يؤمنون من وجهٍ ، كما قال تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }[الزخرف : ٨٧] ويُشرِكون من وجهٍ وهو عبادتُهم الأصنامَ ، وقال الحسنُ : (الْمُرَادُ بِهَذِهِ الآيَةِ أَهْلُ الْكِتَاب مَعَهُمْ إِيْمَانٌ مِنْ وَجْهٍ وَشِرْكٌ مِنْ وَجْهٍ ، فَإِنَّ مَعَ الْيَهُودِ إِيْمَاناً بِمُوسَى وَكُفْراً بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم).

(٠/٠)

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

قولهُ : { أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ } ؛ أي أفَأَمِنَ الكفارُ أن يغشاهم العذابُ من اللهِ ، { أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } ينُزول العذاب.

(٠/٠)

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَاذِهِ سَبِيلِي } ؛ أي هذه الدَّعوةُ دِيني ، وإنما قالَ : (هَذِهِ) لأن السبيلَ يذكَّر ويُؤنَّثُ ، { أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } ؛ على معرفةٍ منِّي باللهِ تعالى ، وقوله تعالى : { أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي } ؛ معناهُ : يدعُو إلى اللهِ ، { وَسُبْحَانَ اللَّهِ } أي وقُل : سبحانَ اللهِ ، { وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ؛ أي لستُ معَهم على دِينهم.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى } أي وما أرسَلنا مِن قبلِكَ يا مُحَمَّدُ إلا رجَالاً منسُوبين إلى القُرى مثلكَ يُوحَى إليهم كما يوحَى إليكَ ، قال الحسنُ : (لَمْ يُرْسِلِ اللهُ امْرَأَةً وَلاَ رَسُولاً مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ؛ وَذلِكَ لأَنَّ أَهْلَ الأَمْصَارِ يَكُونُونَ أَثْبَتَ عُقُولاً مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، وَأَشَدَّ أَحْلاَماً مِنْهُمْ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ يعني أفَلَم يسير أهلُ مكة في الأرضِ ، { فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ } ؛ فيَروا آثارَ ديارِ ، { الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ من الكفَّار فيخافون ما ينْزِلُ بهم من عذاب الله وما نزلَ بأولئِكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ؛ يعني قولهُ (دَارُ الآخِرَةِ) الجنَّة (خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوا) الكفرَ والفواحشَ (أفلاَ يَعْقِلُونَ) معناهُ : أفليسَ لهم ذهنُ الإنسانية أنَّ الآخرةَ الباقيةَ خيرٌ من الدنيا الفانية ، وأضافَ الدارَ الآخرةِ على سبيلِ إضافة الشيء إلى نفسه كما يقالُ يومُ الجمعُة.

(٠/٠)

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ } ؛ أي حتى إذا يَئِسَ الرسلُ عن إجابة

الأُمَم وأيقنوا أن القومَ ، { قَدْ كُذِبُواْ } ؛ تَكذيباً لا يرجعون عنه ، { جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ } ؛ بإهلاكِ قومهم ، ومن قرأ (كُذِبُوا) بالتخفيف فمعناهُ : وظنَّ المرسَلُ إليهم أن الرُّسُلَ قد كذبُوهم في ما أوعَدُهم من العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } ؛ أي لا يُرَدُّ عذابُنا عن الكافرينِ.

(٠/٠)

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ } ؛ أي لقد كان في قَصَصِ مَن تقدَّم من الأنبياءِ عبرةٌ لذوِي العقولِ من الناس. وَقِيْلَ : إن قصةَ يوسف وإخوته عبرةٌ لمن أرادَ أن يعتبرَ فيصبر على البلاءِ والْمِحَنِ ، كما صبرَ يعقوبُ ويوسف حتى خَتَمَ لهما بالْمُلْكِ والعُلُوِّ ، والفرَجِ من الأحزان ، ولا يَحْسُدُ أحداً كما حَسَدَ إخوة يوسف ، فلم يُغْنِ عنهم كَيدُهم شيئاً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَاكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ أي ما كان القرآنُ حديثاً يختلَقُ و لكن كان تَصديقاً للكُتب التي بين يديهِ من التوارة والإنجيل وغيرهما ، ومَن قرأ (تَصْدِيقُ) بالرفع فعلى إضمار هو.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ أي وبيانَ كلِّ شيءٍ يحتاجُ الناس إليه في دِينهم ، { وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ ودلالةً ونجاةً من العذاب الأليم لقوم يصدِّقون بمُحَمَّدٍ والقرآنِ.

(٠/٠)

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

{ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى المر : أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأرَى). وقولهُ تعالى : { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } أي هذهِ آياتُ القرآنِ ، وقولهُ تعالى : { وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ } هو القرآنُ أيضاً ، وقال قتادةُ : (الْمُرَادُ بقَوْلِهِ { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } الآيَات

الَّتِي أُنْزِلَتْ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَسَائِرِ الْكُتُب ، وَالْمُرَادُ بـ { وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ } الْقُرْآنُ) ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } ؛ أي هو الذي رَفَعَ السَّموات ، وأقامَها واقفةً على غير عَمَدٍ تَرونَها أنتم كذلكَ بلا عَمَد ، هكذا قال أكثرُ المفسِّرين ، وعن ابنِ عباس في روايةٍ (بعَمَدٍ لاَ تَرَوْنَهَا ، كَأَنَّهُ قَالَ : بغَيْرِ عَمَدٍ مَرْئِيَّةٍ). والأولُ أقربُ إلى الصحَّة ؛ لأنه لو كان للسَّماء عِمَادٌ لكُنَّا نرى ذلك العمادَ ، لأن مثلَ السموات في ثُقلِها وارتفاعها وعِظَمها لا يُقِلُّها عمادٌ إلاّ وقد يكون ذلك العمادُ جَسيماً عظيماً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.
وقولهُ تعالى : { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } ؛ تقديرُه : اللهُ الذي رفعَ السموات بغيرِ عَمَدٍ ، ثم سخَّرَ الشمسَ والقمرَ وهو مستوٍ على العرشِ ، لأنَّ استيلاءَ الله على الأشياءِ قدرتهُ عليها ، وقدرةُ الله لا تكون مُحدَثَةً. وتسخيرُ الشمسِ والقمر إجراؤُهما لمنافعِ بني آدم ، ومعنى السَّخْرِ أن يكون الشيءُ مَقهوراً لا يملكُ لنفسهِ ما يخلِّصُه من القهر. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ إلى وقتٍ معلوم وهو وقتُ فَنَاءِ الدُّنيا ، فإذا انْفَنَتُ الُّدنيا كَوِّرَتِ الشمسُ وانكَدَرت النجومُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ } ؛ أي يقضِي القضاءَ ، ويبعثُ الملائكةَ بالوحي ، ويُنْزِلُ الرزقَ والأقضيةَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُفَصِّلُ الآيَاتِ } أي يأتِي بآيةٍ في إثْرِ آيةٍ ليكون أمكنَ للاعتبار والفكر. وقوله تعالى : { لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } ؛ أي لِتَسْتَيْقِنُوا بالبعثِ وبما وعَدَكم الله به من الثواب والعقاب.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ } ؛ بسَطَها طُولاً وعَرضاً ، { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ } ؛ أي خَلَقَ فيها جِبَالاً ثوابتَ أوتَاداً لها ، ولو أرادَ أن يُمسِكَها من غير رواسي لفعلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْهَاراً } ؛ أي وأجرَى فيها أنْهَاراً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } ؛ أي وخلَقَ من جميعِ الثمرات من كلِّ شيءٍ لَونَين اثنين ، وجعلَ فيها الحلوَ والحامضَ ، والأسود والأبيضَ.
وقولهُ تعالى : { يُغْشِي الَّيلَ النَّهَارَ } ؛ أي يأتِي بالليلِ لِيَذْهَبَ بضياءِ النهار ، فتسكُنَ الناسُ بالليل ، ويأتِي بضياء النهار ليمحَوَ ظلامَ الليل فتصرفَ الناسُ فيه معايشَهم ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ في صُنعِ الله ، فيستدِلُّون بذلك على توحيدِهِ.

(٠/٠)

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ } ؛ منها الجبلُ الصَّلبُ ، ومنها الأرضُ الْجَرُزُ التي لا يمكن النباتُ عليها إلا بالمشقَّة ، ومنها الأرضُ النَّحِسَةُ ، ومنها الأرض الطَّيبة ، وهذه الأراضِي في ذلك متجاوراتٌ ملتزِقَةٌ ، { وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ } ؛ أي وبساتين من كُرُومٍ ، { وَزَرْعٌ } ؛ ويجوزُ في القراءةِ (وَجَنَّاتٍ) على معنى : وجعلَ فيها جناتٍ ، ومَن قرأ (وَزَرْعٌ) بالضمِّ فهو عطفٌ على القِطَعِ لأن الزرعَ لا يكون في الجنَّات ، وقرأ العامَّة (وَزَرْعٍ ونَخِيلٍ) بالكسر على المجاورة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ } ؛ أي مجتمعٌ أصولُها في أصلٍ واحد ، ونخيلٌ متفرِّق أصولُها ، والصِّنْوَانُ جمعُ الصِّنْوِ ، ويعني الصِّنوانُ أن يكون أصلٌ واحد تخرجُ منه النَّخلتان والثلاث والأربع كما وردَ في الحديثِ : " عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيهِ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ } ؛ إما المطرُ وإما النهرُ ، { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ } ، بعض أكُلِها أفضلُ من بعضٍ في الطَّعم حتى يكون بعضُها حُلواً ، وبعضها حامضاً ، وبعضها مُرّاً ، والترابُ واحدٌ ، وألوانُ الثمر وطعمُها مختلفة ، وذلك من الدليلِ على وحدانيَّة اللهِ عَزَّ وَجلَّ ؛ لأنه الْمُحْدِثُ لها ، واللهُ تعالى قَديرٌ حكيم قد أحدَثَها على علمٍ منه بها ،
وقال مجاهدُ : (هَذا مِثْلُ بَنِي آدَمَ ، أصْلُهُمْ تُرَابٌ وَاحِدٌ ، ثُمَّ مِنْهُم صَالِحٌ وَخَبيثٌ ، وَكَامِلُ الْخِلْقَةِ وَنَاقِصُ الْخِلْقَةِ ، وَسَيِّءُ الْخُلُقِ) ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ } ؛ أي لعلاماتٍ دالاَّتٍ على وحدانيَّة الله ؛ { لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ؛ إنَّ في ذلك من اللهِ.

(٠/٠)

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } ؛ معناهُ وإنْ تعجَبْ يا مُحَمَّدُ من تكذيب أهلِ مكة وإشرَاكِهم بالله مع ما تقدَّمَ من الدلائلِ على توحيد اللهِ قولُهم عجبٌ عند العقلاءِ العارفين حيث قالوا : إذا كُنَّا تراباً أنُبْعَثُ وتُرَدُّ فينا الروحُ بعدَ الموتِ والبلاء؟! وإنما سُمي قولُهم { أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً } أعجبَ ؛ لأن البعثَ أسهلُ في القدرةِ مما بيَّن اللهُ لَهم ؛ إذِ البعثُ إعادةٌ إلى ما كانَ ، والإعادةُ أسهل في طِبَاعِ الآدميِّين من الإنشاءِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } ؛ أي تَغُلُّ أيْمَانَهم إلى أعناقِهم السلاسِلُ في النار ، ويكون يسارُهم وراءَ ظهُورِهم وهم مُصْفَدُونَ من قُرونِهم الى أقدامِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ }.

(٠/٠)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } ؛ أي يستعجِلُونكَ بالعذاب الذي توعِدُهم به على وجهِ التكذيب والاستهزاءِ قبلَ الثواب الذي تعِدُهم على الإيمان ، يعني مُشركي مكَّة سأَلُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن يأتِيَهم العذابُ استهزاءً منهم بذلك ، فقالوا : { اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ }[الأنفال : ٣٢].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ } ؛ العقوباتُ من الله في الأمَمِ الماضية ، والْمَثُلَةُ العقوبةُ في اللغة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ } ؛ أي لذُو تَجاوُزٍ على الناس على ظُلمِهم لأنفسهم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ لِمَن استحقَّهُ.

(٠/٠)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ } ؛ أي ويقولُ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ : هَلاَّ نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه لنُبوَّتِه ، يعنون الآياتِ التي كانوا يقترحونَها عليه نحو ما ذكرَ اللهُ تعالى من قولِهم : { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً }[الإسراء : ٩٠]. الى آخرِ الآيات.

يقولُ الله تعالى : { إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ } ؛ أي أنتَ يا مُحَمَّد مُعَلِّمٌ بموضعِ الْمَخَافَةِ ، وليس إنزالُ الآيات إليكَ ، وإنما هو إلى اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } ؛ مَن جعل هذه الواوَ للجمعِ فوصَلها بما قبلها كان تقدير الكلام : إنما أنتَ منذرٌ وهادٍ لكلِّ قومٍ. ومَن قطعَ هذه الواوَ كان المعنى : لكلِّ قومٍ هادٍ ؛ أي نَبِيٌّ مثلُكَ يهديهم. وقال سعيدُ بن جبير والضحَّاك : (الْهَادِي هُوَ اللهُ) ، والمعنى : أنتَ منذرٌ تُنْذِرُ ، واللهُ هادي كلَّ قومٍ ، يهدِي من يشاءُ.

(٠/٠)

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى } ؛ يعني من عَلَقَةٍ أو مُضْغَةٍ أو ذكرٍ أو أُنثى أو كامل الْخَلْقِ أو ناقصِ الخلق أو واحدٍ أو اثنين أو أكثرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ } ؛ أي وما تنقصُ من الأشهُرِ التسعةِ في الحمل وما تزدادُ عليهما ، فإن الولدَ قد يولدُ في ستَّة أشهر فيعيشُ ، ويولدَ لسنتَين فيعيشُ ، وقال الحسنُ : (وَمَا تَنْقُصُ بالسَّقْطِ ، وَمَا تَزْدَادُ بالتَّمَامِ). والغَيْضُ هو النُّقصان.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ } ؛ أي بحَدٍّ لا يجاوزهُ ولا ينقص منه ، ويدخلُ الولد فيه لأنه قد قَدَّرَ أجلَ حياتِهِ وموتِهِ ، وصحَّته ومرَضِهِ ، ونقصان عقلِهِ وكماله ، وقَدَّرَ له ما جرَى من رزقٍ وما سيكونُ منه من طاعةٍ ومعصية وولدٍ وغير ذلك.

(٠/٠)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ } ؛ أي عالِمُ ما غابَ عن العبادِ ، وما عَلِمَهُ العبادُ. وَقِيْلَ : الغيبُ ما يكون ، والشَّهادة ما كان. الكبيرُ : السيد الكامل المالِكُ المقتدرُ على كلِّ شيء ، الْمُتَعَالِ عمَّا يقول المشركون.

(٠/٠)

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ } ؛ أي سواءٌ من أخفَى القولَ وكَتَمَهُ ، ومن جهرَ به وأظهرَهُ ، فالسِّرُّ والجهرُ عند الله سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } ؛ أي ومن هو مُسْتَتِرٌ مُتوارٍ بالليلِ ، (وسَارِبٌ بالنَّهَار) أي ظاهرٌ في الطُّرقات ، عِلْمُ الله فيهم سواءٌ. قال الزجاجُ : (مَعْنَى الآيَةِ : الْجَاهِرُ بنُطْقِهِ ، وَالْمُضْمِرُ فِي نَفْسِهِ ، وَالظَّاهِرُ فِي الطُّرُقَاتِ وَالْمُسْتَخْفِي فِي الظُّلُمَاتِ ، عِلْمُ اللهِ فِيْهِمْ جَمِيعاً سَوَاءٌ). ومعنى السَّارب : الظاهرُ بالنهار في سِرْبِهِ ؛ أي في طَرِيقِهِ وتصرُّفه في حوائجِهِ ، وعن قُطرب في : (مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ : أيْ ظَاهِرٍ ، وَسَارِبٌ بالنَّهَارِ : أيْ مُسْتَتِرٌ) يقالُ : سَرَبَ الوحشُ إذا دخل في كِنَاسِهِ ، والأولُ أبْيَنُ وأبلغُ في وصفِ عالِمِ الغيب.

(٠/٠)

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } ؛ أي للإنسان مُسَاوياتٌ ، والكنايةُ في قولِهِ تعالى (له) رُدَّ على من أسَرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به وهم الآدميُّون. وقال بعضُهم : (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) أي للهِ تعالى ملائكةٌ يتعاقَبُون بالليلِ والنهار ، فإذا صعَدت ملائكةُ الليلِ أعقبَها ملائكةُ النَّهارِ ، وإذا صعَدت ملائكةُ النهار أعقبَتها ملائكةُ الليلِ.

وقولهُ تعالى : { مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } يعني من قُدَّامِ هذا المستخفِي بالليل والسَّارب بالنهار ، ومِنْ خَلْفِهِ ؛ أي وراءِ ظهره ملائكةٌ يحفظونَهُ من بين يديهِ ومِن خلفهِ ، فإذا جاءَ القَدَرُ خَلَّوا عنه.
واختلَفُوا في الْمُعَقِّبَاتِ ، قال بعضُهم : الْكِرامُ الْكَاتِبُونَ ؛ وهم أربعةً : ملَكان بالليلِ وملَكان بالنَّهار.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } ؛ أي بأمرِ الله حتى ينهوا به إلى المقاديرِ ، فيُخَلُّوا بينه وبين المقاديرِ ، قال كعبُ الأحبار : (لَوْلاَ أنَّ اللهَ وَكَّلَ بكُمْ مَلاَئِكَةً يَذُبُّونَ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وَعوْرَاتِكُمْ لَخَطَفَتْكُمُ الْجِنُّ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } ؛ أي لا يسلبُ قوماً نعمةً حتى يعمَلُوا المعاصِي ، يعني بهذا أهلَ مكَّة ، بعثَ فيهم رسولاً منهم ، وأطعَمَهم من جوعٍ ، وآمَنَهم من خوفٍ ، فلم يعرِفُوا هذه النعمةَ وغيَّرُوها وجعلُوها لأهلِ المدينة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ } ؛ أي إذا أرادَ اللهُ إنزالَ عذابٍ على قومٍ فلا دافعَ له ، { وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ } ؛ يتولاَّهم وينصرُهم ، ويقال : من مَلْجَأ يلجَؤُون إليه ، والْمَوْئِلُ هو الْمَلْجَأُ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً } ؛ أي خَوْفاً للمسافرِ أن يُؤذيهِ ويُبلَّ ثيابَهُ وطريقه فلا يمكنه السيرُ ، وطمَعاً للمقيمِ أن يسقي حرثَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ } ؛ أي يخلقُ السحابَ الثِّقال بالمطرِ فيُجريَهُ في الجوِّ.

(٠/٠)

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ } ؛ رُوي أن الرَّعْدَ اسمُ ملَكٍ يزجرُ السحابَ يؤلفُ بعضه إلى بعضٍ ، وتسبيحهُ زَجْرُهُ للسحاب ، قال عكرمةُ : (هُوَ كَالْحَادِي لِلإبلِ).

وعن ابن عبَّاس قال : " أقْبَلَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُواْ : يَا أبَا الْقَاسِمِ نَسْأَلُكَ عَنْ أشْيَاء ، فَإِنْ أصَبْتَ فِيْهَا اتَّبَعْنَاكَ وَآمَنَّا بكَ ، قَالَ : " اسْأَلُوا " قَالُواْ : أخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ ، قَالَ : " مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُوَكَّلٌ بالسَّحَاب ، مَعَهُ مَخَاريقَ يَسُوقُ بهَا السَّحَابَ حَيْثُ يَشَاءُ اللهُ " قَالُواْ : صَدَقْتَ ، فَمَا الَّذِي يُسْمَعُ ؟ قَالَ : " زَجْرُ السَّحَاب إذا زَجَرَهُ الْمَلَكُ " قَالُواْ : صَدَقْتَ ".

وقال عطيَّةُ : (الرَّعْدُ مَلَكٌ وَهَذا تَسْبيحُهُ ، وَالْبَرْقُ سَوْطُهُ الَّذِي يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ ، يُقَالُ لِذلِكَ الْمَلَكِ : رَعْدٌ ، وَلِصَوْتِهِ : رَعْدٌ). وقالَ أبُو هريرةَ : "كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ : سُبْحَانَ مَنْ يُسَبحُ الرَّعْدُ بحَمْدِهِ " ، وكان ابنُ عبَّاس إذا سَمِعَ الرعدَ قالَ : (سُبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ). قال ابنُ عبَّاس : (مَنْ سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ فَقَالَ : سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبحُ الرَّعْدُ بحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فَإِنْ أصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ فَعَلَيَّ دِيَتُهُ). و " عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ كَانَ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ قَالَ : " اللَّهُمَّ لاَ تَقْتُلْنَا بَغَضَبكَ ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بعَذابكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذلِكَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ } ؛ يعني ويُسَبحُ الملائكةُ من خِيْفَةِ اللهِ وخِشيَتِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ } ؛ أي يرسلُ النِّيرانَ التي تسقطُ من الغيُومِ فيحرِقُ ما تقع عليه نيران البرقِ ، فيُهلِكُ بها من يشاءُ من خلقهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ } ؛ أي الكفارُ يخاصِمون في اللهِ وفي إثبات شريكٍ معه ، { وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } أي شديدُ القوَّة والعقوبةِ.

(٠/٠)

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ؛ أي له كلمةُ الإخلاصِ ، شهادةُ أن لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ } أي آلِهَتُهم ، { لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ } ما يستجيب { إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ } يدعوهُ لعطشهِ مُشِيراً مُريداً بإشارتهِ أن ، { لِيَبْلُغَ } الماءُ ، { فَاهُ وَمَا هُوَ } أي وليس الماءُ ، { بِبَالِغِهِ } ومن الْمُحَالِ أن يُجيبه بإشارتهِ ، وإنْ كان الماءُ في بئرٍ ، أو ماءٍ على بُعْدِ نهرٍ أبعدُ في الإحالة ، وكما لا يبلغُ الماءُ فَمَ هذا الرجلِ ولا يجيبهُ وإن ماتَ من العطشِ ، كذلك لا ينفعُ الصَّنم لِمَن عبدَهُ بوجهٍ من الوجوهِ ، قال عطاءُ : (مَعْنَاهُ كَالرَّجُلِ الْعَطْشَانِ الْجَالِسِ عَلَى شَفِيرِ الْبِئْرِ ، يَمُدُّ يَدَهُ فِي الْبِئْرِ فَلاَ يَبْلُغُ الْمَاءَ وَلاَ الْمَاءُ يَرْتَفِعُ إِلَى يَدِهِ) ، { وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ } ؛ عن الصواب وذهابٍ عن الحقِّ ؛ لأن الأصنامَ لا تسمعُ ولا تقدر على الإجابةِ.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ } ؛ ولله يسجدُ ويُصَلِّي ويعبدُ مَن في السَّموات والأرضِ والملائكة ، ومَن دخلَ الإسلامَ طَوْعاً يسجدُ له طائعاً ، والْمُكْرَهُ هو الذي قُوتِلَ وسُبيَ وأُجبرَ على الإسلامِ ، ويقالُ : أرادَ بقوله (طَوْعاً) أهلَ الإخلاصِ ، و(كَرْهاً) أهلَ النفاقِ ، قوله { وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ } يعني إذا سجدَ الإنسانُ سَجَدَ معه ظِلُّهُ ، قال الحسنُ : (أمَّا ظِلُّ الْكَافِرِ فَيَسْجُدُ للهِ ، وَأمَّا هُوَ فَلاَ يَسْجُدُ ، فَبِئْسَ وَاللهِ مَا يَصْنَعُ).

(٠/٠)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة : مَن ربُّ السموات والأرض ؟ فإن أجابُوكَ وقالوا : هو اللهُ ، وإلاّ فقُلِ : اللهُ ربُّهما ، و { قُلْ } ؛ لَهم : { أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ أي أربَاباً ، { لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً } ؛ فكيف يَملِكون لكم النفعَ والضر.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } ؛ أي قُل لَهم : هل يستوي أعمَى القلب الذي يعدلُ عن عبادةِ الخالق ؟ هل يستَوِي مع البصير بقلبه ، العالم بأنه تعالى إلَهُهُ ووليُّهُ والقادرُ على نفعهِ ودفعِ الضُّرِّ عنهُ ، { أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ } ؛ فيه تشبيهُ الكفرِ بالظُّلمات ، وتشبيهُ الإيمانِ بالنُّور.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ } ؛ معناه : أجَعَلَ الكفارُ لله شُركاءَ ، خلَقَت شركاؤُهم

شيئاً كما خَلَقَ اللهُ ، { فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ } ؛ فلم يعرفُوا خلقَ الشركاء من خلق اللهِ فأشرَكُوها معه في العبادةِ ؛ { قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ بلا شريكٍ ، فإذا لم يكن الخلقُ إلا من واحدٍ لم يكن الخالقُ إلا واحداً ، فهو الذي يستحقُّ العبادةَ بلا شريكٍ ، { وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } ؛ الغالبُ لكلِّ شيء ، لا يقهَرهُ أحدٌ.

ثم ضربَ اللهُ مثلاً للحقِ والباطل ، وقال تعالى : { أَنَزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } ؛ أنزلَ مطراً فسَالَتْ أودِيةٌ من ذلك المطرِ بقدرِ الأودية ، فما كان منها كبيراً سالَ بقدرهِ ، وما كان صَغيراً سالَ بقَدرهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً } أي عَالياً مُرتفعاً على الماءِ ، والسَّيلُ ما يسيلُ من الموضعِ المرتفع.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ } ؛ أي ومما تطرَحون في النارِ من الذهب والفضَّة لطلب حِلْيَةٍ تلبَسونَها زَبَدٌ ؛ أي خَبَثٌ مثلُ زبَدِ الماءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ } ؛ أرادَ به الحديدَ والرصاص وما يشاكِلهُ مما يوقَدُ عليه في النار ؛ لاتِّخاذ المتاعِ له زَبَدٌ ؛ أي خَبَثٌ مثل ذلك الماءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } ؛ أي هكذا يضربُ الله مَثَلَ الحقِّ والباطل ، { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً } ؛ أما زبَدُ هذه الأشياء ، فيذهبُ ناحيةً لا ينتفعُ به ، فإن زبدَ الماء يتعلَّقُ بأصولِ الأشجار وجَنباتِ الوادي. والْجُفَاءُ : ما رَمَى به الوادِي ، وجُفَاهُ في جَنَبَاتِهِ ، يقال : أجْفَأَتِ القِدْرُ زبَدَها إذا قذفَتْ به ، وكما أنَّ زَبَدض الماءِ يذهبُ بحيث لا ينتَفعُ به ، كذلك خبَثُ الذهب والفضة والحديد ، { وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ }.

قَوْلُهُ تعَالَى : { كَذالِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ } ؛ للناسِ في أمر دِينهم ، كما ضربَ لكم المثلَ ، قال قتادةُ : (هُنَّ ثَلاَثَةُ أمْثَالٍ ضَرَبَهَا اللهُ فِي مَثَلٍ وَاحِدٍ ، يَقُولُ : كَمَا أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَالَتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِهَا ، الصَّغِيرُ عَلَى مِقْدَارِهِ ، وَالْكَبِيرُ عَلَى مِقْدَارِهِ ، كَذلِكَ أنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ ، فَاحْتَمَلَ الْقُلُوبَ عَلَى قَدَرِهَا ، ذا الْيَقِينِ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهِ ، وَذا الشَّكِّ عَلَى قَدْرِ شَكِّهِ).

قَالَ : (ثُمَّ شَبَّهَ خَطَرَاتِ وَوَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ بالزَّبَدِ يَعْلُو عَلَى الْمَاءِ ، وَذلِكَ مِنْ خَبَثِ الْبَرِّيَّةِ لاَ عَيْنِ الْمَاءِ ، كَذَلِكَ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنْ وَهْمٍ وَشَكٍّ فَهُوَ ذاتُ النَّفْسِ لاَ مِنَ الْحَقِّ).

قَالَ : (ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ الزَّبَدَ يَذْهَبُ جُفَاءً ؛ أيْ هَبَاءً بَاطِلاً وَيَبْقَى صَفْوُهُ ، كَذلِكَ الْبَاطِلُ يَذْهَبُ وَيَبْقَى الْحَقُّ).

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } ؛ فيه بيانُ الذي يبقَى مما تقدَّم ذِكرهُ فهو مثلٌ لِمَن يستجيبُ لرَبهِ ، والذي يذهبُ جُفاءً هو مَثَلٌ لِمَنْ لا يستجيبُ. والمرادُ بـ (الْحُسْنَى) في الآيةِ الْجَنَّةَ ونَعيمها.
وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ } ؛ أي الذين لم يستجِيبُوا لربهم إلى الإيمان ، { لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً } ؛ من الذهب وسائر الأموالِ ، { وَمِثْلَهُ مَعَهُ } ؛ وضِعفُهُ معه ، { لاَفْتَدَوْاْ بِهِ } ؛ لفَادَوا به أنفُسَهم من عذاب الله يومَ القيامةِ لو قُبلَ منهم ذلك ولكن لا يُقْبَلُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ } ؛ أي شدَّتهُ ، والمناقشةُ فيه ، قال إبراهيمُ النخعي : (هُوَ أنْ يُؤَخذُوا بذُنُوبِهِمْ كُلِّهَا مِنْ دُونِ أنْ يُغْفَرَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ } ؛ أي مَصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ ، { وَبِئْسَ الْمِهَادُ } ؛ أي المأْوَى ، يتقلَّبون في النار ويقعُدون ويضطَجِعون عليها.

(٠/٠)

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } ؛ معناه : أفمَن يعلمُ إنما أُنزل إليك مِن القرآن أنه الحقُّ فآمَنَ به ، كمَن هو كافرٌ يعلَمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } ؛ أي ذوُو العقولِ.

(٠/٠)

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)

ثم وصَفَهم فقالَ : { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ } يريدُ بالعهدِ الذين عاهَدتُم عليه في

صُلب آدمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ } ؛ قِيْلَ : المرادُ به مواصلَةُ المؤمنين فيما بينهم بالموالاَةِ وصِلَةِ الرَّحِم بالبرِّ والشَّفقة ، وَقِيْلَ : أرادَ بذلك الإيمانَ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وجميعِ الرسُل ، { وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } ؛ أي عقابَ ربهم ، { وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ } ؛ أي يخافون أن يؤاخَذُوا بالعقاب.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ } ؛ معطوفٌ على قولهِ{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }[الرعد : ٢٠] ومعناهُ : الذين صَبَروا على أداءِ الفرائض واجتناب المحارم ومُقَاسَاةِ شدائدِ الدُّنيا لطلب ثواب الله ورضاهُ ، { وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ } ؛ المفروضةَ ، { وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً } ؛ أي أخرَجُوا من أموالهم جميعاً الصَّدقاتِ المفروضات خِفْيَةً وجهراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } ، وإنما يكون دَرْؤُهم بالحسنةِ السيئةَ على وجهين ، أحدُهما : العِلْمُ والوعظُ بالكلام الحسَنِ ، والثاني : أن يقاتِلُوهم ويقبضُوا على أيديهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة لهم الدارُ التي أعقَبَتها لهم أعمالُهم وهي الجنَّة. ثم بيَّن اللهُ صفةَ الجنة فقال : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَهِيَ وَسَطُ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ مَعْدِنُ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } ؛ أي ويدخُلها مَن صَلُحَ من آبائهم وأزواجِهم وذُرِّياتِهم ، { وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ } يعني من أبواب البساتين يقولون لَهم : { سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ } على شدائدِ الدُّنيا ، وعلى المشقَّة في طاعةِ الله ، فَنِعْمَ الدارُ التي أعقَبَتُها لهم أعمالهم ، قال ابنُ عبَّاس : (لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ جَنَّةً مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ لَهَا أَلْفُ بَابٍ مِصْرَاعُهُ مِنَ الذهَبِ ، يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ بَابٍ مَلَكٌ يَقُولُونَ : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ ، { فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ }.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ } ؛ أي الذين يتركون فرائضَ الله من بعد تأكيد العهدِ عليهم ، { وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ } ؛ بالظُّلم والدعاءِ إلى غير عبادة الله ، { أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ } ؛ أي ما يُبعِدُهم من رحمةِ الله ، { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } ؛ وهو النارُ في الآخرةِ ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " أعْجَلُ الْخَيْرِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ ، وَأعْجَلُ الشَّرِّ عِقَاباً الْبَغْيُ وَاليَمِينُ الغَمُوسُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ ".

(٠/٠)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } ؛ أي يوسِّعُ الرزقَ في الدُّنيا على مَن يشاءُ ، ويضيِّقُ على مَن يشاءُ ، { وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } يعني مُشركي مكَّة أشِرُوا وبَطِرُوا ، { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي } ؛ جنب نعيمِ ، { الآخِرَةِ إِلاَّ } ؛ شيءٌ قليل ، { مَتَاعٌ } ؛ كمتاع يتمتَّعُ به ثم يفنَى ويذهبُ ، قال صلى الله عليه وسلم : " وَمَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمِثْلِ مَا جَعَلَ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بمَ يَرْجِعُ ".

(٠/٠)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي يقولون على جِهة التّعَنُّتِ : { لَوْلاَ } ؛ هَلاَّ ، { أُنزِلَ عَلَيْهِ } ؛ على مُحَمَّدٍ ، { آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ } ؛ يعني الآياتِ التي يَقترِحونَها عليه ، { قُلْ } يا مُحَمَّدُ : { إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ } عن ثوابِهِ وكرامته ، { وَيَهْدِي } ، لدينه مَن أقبَلَ ، { إِلَيْهِ } ؛ إلى الله و ، { مَنْ أَنَابَ } ؛ رجَعَ عن الكفر.

(٠/٠)

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ } ؛ معناهُ : الذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرآنِ ، تسكنُ قلوبُهم إلى ما وعدَهم اللهُ به من ثوابٍ ، { أَلاَ بِذِكْرِ } ؛ بوَعدِ الله ، { اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }.

(٠/٠)

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ } ؛ أي لهم العيشُ الطيِّبُ والكرامةُ والغِبطَةُ ، { وَحُسْنُ مَآبٍ } ؛ حُسْنُ المرجعِ ، وقال مجاهدُ : (طُوبَى اسْمُ الْجَنَّةِ بلُغَةِ الْحَبَشَةِ) ، وعن أبي هريرة : (اسْمُ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ سَاقُهَا مِنْ ذهَبٍ ، وَوَرَقُهَا الْحُلَلُ ، وَثَمَرُهَا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَأغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، لَيْسَ مَنْزِلٌ إلاَّ وَفِيْهِ غُصْنٌ مِنْ أغْصَانِهَا ، وَتَحْتَهُ كُثْبَانُ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ وَالزَّعْفرَانِ ، لَوْ رَكَبَ رَجُلٌ قُلُوصاً ، ثُمَّ دَارَ بالشَّجَرَةِ لَمْ يَبْلُغِ الْمَكَانَ الَّذِي ارْتَحَلَ مِنْهُ حَتَّى يَمُوتَ الْقُلُوصُ هَرَماً).

(٠/٠)

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ } ؛ أي هكذا أرسَلناك إلى أُمَّة قد مَضَتْ من قبلِها أُمَمٌ أرسَلنا فيهم الرُّسل ، { لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } ؛ يعني القرآنَ ، { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ } ؛ يعني أهلَ مكَّة فإنَّهم كانوا يقولون ما نعرفُ الرحمنَ إلا مُسَيْلَمَةَ ، وكانوا يُسمُّونَهُ رحمانَ

اليمامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ قل لَهم : الرَّحْمَنُ رَبي لا إلهَ إلا هو ، { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } أي وإليه أتوبُ من ذنُوبي.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى } ؛ وذلكَ أنَّ عبدَالله بن أُمية المخزومي ، وجماعةٌ من كفَّار مكة قالوا : يا مُحَمَّدُ سَيِّرْ لنا جبالَ مكَّة ، فأَذهِبْها حتى تنفسحَ فيها فإن أرضَنا ضيِّقة ، ثم اجعَلْ لنا فيها عُيوناً وأنْهَاراً ، وقرِّبْ أسفَارَنا فيما بيننا وبين الشَّام فإن السفرَ بعيدٌ ، وافعَلْ كما فعلَ سُليمان بالرياحِ بزَعمِكَ ، فأَنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها : { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ } أُذهِبَتْ به الجبالُ عن وجهِ الأرض قُطِّعت به الأرضُ مسيرةَ شهرٍ في يومٍ أو أُحيي به الموتَى فتكلَّموا ، لكان هذا القرآنُ لِمَا فيه من الدَّلالاتِ الكثيرةِ على صحَّة هذا الدِّين ، ولو أمكن أن نجعلَ هذه الأمُورَ لشيءٍ من كُتب الله لأمكنَ بهذا القرآنِ.

وأما حذفُ جواب (لَوْ) في هذهِ الآية فهي على وجهِ الاختصار ؛ لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَل للَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً } ؛ أي بلِ اللهُ هو المالِكُ لهذه الأشياءِ ، القادرُ عليها ، ولكن لا يختار إلا ما فيه مصلحةُ العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ معناهُ : أفلَمْ يعلمِ الذين آمَنوا ، { أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً } ؛ إلى الإيمان بالإلجاءِ إليه أن اللهَ تعالى قادرٌ على ذلك ، ولكن لو فَعَلَ لبَطَلَ الامتحانُ والتكليف ، والإياسُ بمعنى العلمِ في لُغة النخَعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ } ؛ أي ولا يزالُ الذين كفَروا في عقوباتٍ مِن قِبَلِ اللهِ يزجرُهم عن الكفرِ ، ويحثُّهم على التمسُّك بدين اللهِ ، كما نَزَلَ بقريش من القَحطِ ، وبقوم فرعونَ من الشدائدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ } ؛ راجعٌ إلى القَارعةِ ، والقَارعَةُ : هي النَّازلَةُ والشدائدُ التي تنْزِلُ بأمرٍ عظيم ، ويقالُ : أراد بالقارعةِ سَرَايا النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وبقوله { أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً } معناه : أو تَنْزِلُ أنتَ يا مُحَمَّدُ مع أصحابكَ قريباً من مكَّة تقاتِلُهم على الدِّين ، { حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ }

؛ أي وقتُ إهلاكِ الكفَّار ، وَقِيْلَ : فتحُ مكَّة ، وَقِيْلَ : ما وعدَ اللهُ من عذابهم في الآخرة ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } ؛ ما وعدَ من عقاب الكفار.

(٠/٠)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ } ؛ أي ولقدِ استُهزئَ بالأنبياءِ من قبلِكَ كما استهزَأ بكَ قومُكَ ، { فَأَمْلَيْتُ } فأمهَلتُ ، { لِلَّذِينَ كَفَرُواْ } بعد استهزائِهم بالرُّسل ، { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } بذُنوبهم ، { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } فانظُرْ كيف كان عاقبةُ ما حلَّ من عقاب الله بهم ، فلا يكن في صدرِكَ حرجٌ من استهزائِهم.

(٠/٠)

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } ؛ بالتدبيرِ ويعلمُ ما كسَبَت ويجازيها عليه ، كمَن لا يعلمُ ذلك ولا يقدرُ على المجازاةِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ } ؛ في العبادةِ بين الأصنام ، { قُلْ سَمُّوهُمْ } ؛ هؤلاء الشُّركاء بأسمائهم التي تستحقُّها ، وسَمُّوا منفعتَها وتدبيرَها ؛ لأن لها شركةً مع اللهِ ، كما يوصَفُ الله بالخالقِ والرازق والمحيي والمميت.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ } ؛ أي أتُخبرونَ اللهَ بما لا يصحُّ أن يكون مَعلوماً وهو كون الأصنامِ مستحقَّةً للعبادةِ ، وهذا على وجه الإنكارِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ } ؛ إنكارٌ أيضاً معناهُ : أسَمَّيتم الأصنامَ آلهة بظاهرِ كتابٍ من كتُب الله ، وَقِيْلَ : أسَمَّيتمُوهم آلهةً بحجَّةٍ ظاهرةٍ ، بل سَمَّيتموهم بقولٍ باطل ليس لكم دليلٌ عليه.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ } ؛ أي زُيِّنَ لهم قولُهم وفعلُهم في عبادةِ غيرِ الله ، وتكذيب

مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ } ؛ من قرأ بفتحِ الصَّاد فالمعنى صَرَفوا الناسَ عن دينِ الله ، وَمن قرأ برفعها فالمعنى صَدَّهم رؤساؤُهم عن دينِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ الأسقامُ والقتل والأسرُ ، { وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ } ؛ أي أغلَظُ من عذاب الدُّنيا ، { وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ } ؛ يَقِيهِم من عذاب الله.

(٠/٠)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا } ؛ أي صفةُ الجنة التي وُعِدَ المتَّقون الكفرَ والمعاصي : أنَّها تجري من تحتها الأنْهارُ ، ثَمرُها دائمٌ ، لا كجِنَانِ الدُّنيا تظهرُ بظهور ورَقِها في حالٍ دون حال ، وظِلُّلها أيضاً دائمٌ ليس فيه شمسٌ ولا أذَىً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ } ؛ أي دارُ المتَّقين الجنةُ في العاقبةِ ، { وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } ، ودارُ الكافرين في العاقبةِ النارُ ، وفي الحديثِ : " أنَّ الرَّجُلَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ تُقْسَمُ لَهُ شَهْوَةُ رَجُلٍ مِنْ أهْلِ الدُّنَيا ، فَإذا أكَلَ سُقِيَ شَراباً طَهُوراً ، فَتَصِيرُ رَشَحاً تَخْرُجُ مِنْ جَسَدِهِ أطْيَبَ مِنْ ريحِ الْمِسْكِ ، ثُمَّ تَعُودُ شَهْوَتُهُ إلَى مَا كَانَتْ ".

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ } ؛ وذلك أن عبدَاللهِ بن سلام ، ومَن أسلمَ معه من أهلِ الكتاب ، قالوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا شَأْنُ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فِي الْقُرْآنِ قَلِيلٌ وَهُوَ فِي التَّوْرَاةِ كَثِيرٌ ؟ فَنَزَلَ{ قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـ&# }[الاسراء : : ١١٠] ونزل { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ } مِن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وغيرِ ذلك.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ } ؛ أي ومِن اليهود والنصارَى من ينكرُ بعضَ " ما في " القرآن ، وإنَّهم كانوا يُقِرُّونَ بصحَّة " قصة " يوسف وغيرِها مما لا يكون فيه نسخُ شريعَتِهم ، وكانوا يُنكِرُونَ مِن القرآن ما لا يوافقُ مذهَبَهم ودينَهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو } ؛ الخلائق { وَإِلَيْهِ مَآبِ } ؛ رجُوعي في الآخرةِ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً } ؛ أي كما أنزلنا على الأنبياء المتقدمين بلسانهم كذلك أنزلنا اليك القرآن حُكماً عربياً ، والْحُكْمْ : هو الفصل بين الشيئين على ما توجبه الحكمة ، وقد يكون الحكم بمعنى الحكمة ، كما في قوله تعالى{ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً }[مريم : ١٢] أي الحكم والنبوة.
قوله تعالى : { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم } ؛ أين دين اليهود وقبلتهم { بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } ؛ أي دين الله دين ابراهيم وقبلته الكعبة { مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ } ؛ أي من ناصر ينصرك ، { وَلاَ وَاقٍ } ؛ أي لا دافع يدفع العقاب عنك.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَيِّرُونَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بتَزَوُّجِ النِّسَاءِ حَتَّى قَالُواْ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبيَّنَا لَشَغَلَتْهُ النُّبُوَّةُ عَنْ تَزْويجِ النِّسَاءِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والمعنى : ولقد أرسَلنا رسُلاً من قبلِكَ ، وجعلنا لهم نِسَاءً أكثرَ من نسائِكَ ، وأولاداً أكثرَ من أولادك ، كان لداودَ عليه السلام مائة امرأةٍ ، ولسُليمان ثلاثمائة امرأةٍ مهرية وستُّمائة سريَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ أي هل يملِكُ أحدٌ من الرُّسل أن يأتي بآيةٍ إلا بإذنِ الله ، سبحانهُ هو المالكُ للآياتِ لا يقدرُ أن يأتي أحدٌ شيئاً منها إلا بإذنهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } ؛ أي لكلِّ مدَّةٍ من آجَال العباد في الحياةِ والفَناءِ كتابٌ قد كتبَ اللهُ ذلك للملائكةِ ؛ يدُلُّهم به على علمهِ بالأَشياء. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ } ؛ قال ابنُ عباس : (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْ دِيوَانِ الْحَفَظَةِ مَا كَتَبُوهُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ مَا لاَ جَزَاءَ لَهُ ، وَيَتْرُكُ مَا لَهُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ). وقال الضحَّاكُ : (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ فَيَنْسَخُهُ ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ فَلاَ يَنْسَخُهُ) ، وعن الحسنِ : (يَمْحُو أجَلَ مَنْ حَانَ أجَلُهُ ، وَيَدَعُ أجَلَ مَنْ لَمْ يَحِنْ أجَلُهُ مَيِّتاً). وَقِيْلَ : يَمحُو اللهُ ما يشاءُ من الطاعاتِ بإحباطِها بالمعاصي ، ومن المعاصِي بتكفيرها بالطاعاتِ.

وقدِ اختلَفُوا : هل يدخلُ في الْمَحوِ والإثباتِ السعادةُ والشقاوة ، والموتُ الحياة أم لا ؟ قال ابنُ عبَّاس : (لاَ يَدْخُلُ) ، وقال عمرو بن مسعود : (تَدْخُلُ فِيْهِ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ) ، وكان من دُعاء عمرَ : (اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا سُعَدَاءَ فَأَثْبِتْنَا ، وَإنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا أشْقِيَاءَ فَامْحُنَا وَاكْتُبْنَا سُعَدَاءَ ، فَإنَّكَ تَمْحُو وَتُثْبِتُ مَا تَشَاءُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَاب)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } ؛ أي أصلُ الكتاب ، قِيْلَ : إنه اللوحُ المحفوظ كَتَبَ اللهُ فيه كلَّ شيء قبلَ أن يخلُقَ العبادَ ، ولا يُزَادُ فيه شيءٌ ولا ينقص منه شيء.

(٠/٠)

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ } ؛ أي فإما نُرِيَنَّكَ يا مُحَمَّدُ بعض الذي

نَعِدُهم من نصرِ المؤمنين على الكفَّار ، أو نَقبضُكَ إلينا قبلَ أن يكون ما نَعِدُهم من العذاب في حياتك ، { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ } ؛ أي بلاغُ ما أُنزِلَ إليك ، { وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } ؛ وعلينا حسابُ ما يعمَلون ، والجزاءُ عليه.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ أَوَلَمْ يَرَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّ نَنْقُصُ الأَرْضَ مِنْ أَطْرَافِهَا بِفَتْحِ دِيَارِهِمْ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمِينَ) ، وقال الحسنُ : (أَرَادَ بِنَقْصِ أَطْرَافِ الأَرْضِ ذهَابِ فُقَهَائِهَا وَخِيَارَ أَهْلِهَا). قال : (وَمَثَلُ الْعُلَمَاءِ مَثَلُ النُّجُومِ إذا بَدَتْ اقْتَدَوْا بِهَا ، وإذا أَظْلَمَتْ سَكَنوا ، وَمَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الإِسْلاَمِ ، لاَ يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ } ؛ أي واللهُ يحكمُ بفَتْحِ البُلدانِ لا يتعقَّبُ أحدٌ حُكمَهُ بالردِّ ، { وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ؛ إذا حاسبَ محاسبةً سريعُ الحساب.

(٠/٠)

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ أي قد مَكَرَ الذين من قبل هؤلاء الكفارِ بأنبيائهم صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وبِمَنْ آمَن به ، { فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً } ؛ وعندَ اللهِ جزاءُ مكرِهم جميعاً ، فإنَّ ما يفعلهُ الله من إيصالِ المكروه يثبتُ ، ومكرهم يضمحلُّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ } ؛ من خيرٍ أو شرٍّ فيُجازِيها عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ } ؛ تَهديدٌ لهم أنَّهم إذا جَهِلوا اليومَ عاقبةَ أمرِهم فسيعلمون إذا صاروا إلى الآخرةِ ، { لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } ؛ المحمودةِ ، لهم أمْ للمؤمنين؟

(٠/٠)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً } ؛ أي ويقولُ الذين كفَرُوا من اليهود وغيرِهم : يا مُحَمَّدُ لستَ مُرسَلاً من اللهِ ، ومَن يشهدُ لكَ على رسَالَتِكَ ، { قُلْ } ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ : { كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ؛ على أنِّي مرسَلٌ إليكم ، شهادةُ الله على أنَّنِي نَبيُّهُ من المعجزاتِ لا شاهدَ أعدلَ من ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } ؛ كان ابنُ عباس يقرأ (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ) بالنصب ويقولُ : (هُوَ عَبْدُاللهِ بَنُ سَلاَمٍ وَأَصْحَابُهُ ، كَانَ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ نَعْتُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَصِفَتُهُ) وكان يقولُ : (هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ بالْمَدِينَةِ ؛ لأَنَّ هَؤُلاَءِ أَسْلَمُواْ بالْمَدِينَةِ).

وكان ابنُ مسعودٍ يقرأ (وَمِنْ عِنْدِهِ) بالخفضِ على معنى أنَّ القرآنَ مِن عندِ الله ، وكان يقولُ : (هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ ، وَعَبْدُاللهِ بَنُ سَلاَمٍ أَسْلَمَ بالْمَدِينَةِ وقُرئ (وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ) بخفض (مِن) وضمِّ العين وكسرِ اللام من علم ، هكذا رُوي عن سعيدِ ابن جُبير.

(٠/٠)

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)

{ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ } ؛ قد تقدَّم تفسيرُها ، وقولهُ تعالى : (كِتَابٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، ويجوز أن يكون خبرَ (ألر) { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } ؛ أي مِن ظُلماتِ الكفرِ إلى نور الإيمان ، { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } بأمرِ ربهم أمَرَك أن تَدعُوَهم إلى الإيمانِ ، وتزجُرَهم عن الكفرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ؛ أي الى دينِ العزيزِ الحميد الذي لا يمكنُ أن يُغلَبَ ويقهرَ ، والحميدُ المستحقُ للحمدِ.

(٠/٠)

اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } ؛ مَن قرأ برفع الهاء فعلى الابتداءِ ، وَمن قرأ بالخفضِ جعلَهُ بدَلاً من الحمدِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } ؛ الويلُ كلمةٌ تستعمَلُ في الشدَّة ، ويقالُ : هو وادٍ في جهنَّم.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ } ؛ أي يختارُونَها عليها ، { وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي يُعرِضُونَ عن طاعةِ الله من الصدِّ وهو الإعراضُ ، ويجوز أن يكون معناهُ : ويَمنَعُونَ الناسَ.
وقولهُ تعالى : { وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً } ؛ أي ويطلبُونَ بدينِ الله العِوَجَ ، والعِوَجُ بكسرِ العين في الدِّين ، وبفتحِها في العصا ، وقولهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ } ؛ أي في ذهابٍ عن الحقِّ بعيدٍ.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } ؛ أي بلُغَتِهم ليبيِّن لهم ما أُمِرُوا به ونُهوا عنه ، فيفهَمُوا ويتعلَّموا ، { فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ } ؛ مَن كان أهْلاً لذلك ، { وَيَهْدِي } ؛ لدينهِ ، { مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَآ } ؛ أي بدَلائِلنا وحُجَجِنا التي دلَّت على صحَّة نُبوَّتِهِ مثلُ العصا واليدِ وغيرهما ، { أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } ؛ أي بنَعِيمِ الله ، وَقِيْلَ : بوقائعِ الله في الأيَّام السالفةِ من قوم نُوحٍ وعادٍ وثَمود. وَقِيْلَ : بنَعِيمِ اللهِ ونِقَمِهِ ، والمعنى : عِظْهُمْ بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.
وقولهُ تعالى : { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } ؛ أي إنَّ في ذلك التذكيرِ لدلالاتٍ على قدرةِ الله لكل صبَّارٍ شَكُورٍ على طاعتهِ ، وعن معصيتهِ ، وشكُورٍ لأَنعُمِ اللهِ ، والشُّكرُ هو إظهارُ النعمةِ على جهة الاعتراف بها.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذالِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } ؛ هذه الآيةُ قد سبقَ تفسيرُها في سورةِ البقرة.

(٠/٠)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ } ؛ هذه عطفٌ على قولهِ{ إِذْ أَنجَاكُمْ }[ابراهيم : ٦] كأنه قالَ : اذكرُوا نعمةَ اللهِ عليكم إذ أنْجَاكُم ، وإذ تأذنَ ربُّكم ، وهذا إخبارٌ عن ما قالَ موسى لقومهِ ؛ أي أعلَمَكم في

الكتاب ، { لَئِن شَكَرْتُمْ } نعمَتي { لأَزِيدَنَّكُمْ } نعمةً ، { وَلَئِن كَفَرْتُمْ } ؛ نِعمَتي ، { إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } ؛ لِمَن كفرَ.
قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى الآيَةِ : لَئِنْ وَحَّدْتُمُونِي وَأَطَعْتُمُونِي ، لأَزِيدَنَّكُمْ نِعْمَةً) ، قال قتادةُ : (حَقُّ اللهِ أنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ ، وَيَزِيدَ مَنْ شَكَرَهُ) ، وقولهُ تعالى { وَلَئِن كَفَرْتُمْ } أي جَحَدتُّم حقِّي وحقَّ نِعْمَتي إنَّ عذابي لشديدٌ.

(٠/٠)

وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً } ؛ بنعمتهِ ، { فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ } ؛ عن طاعَتِكم ، لم يأمُرْكم بطاعته لحاجتهِ إليها وهو الـ { حَمِيدٌ } ؛ لِمَن وَحَّدَهُ وأطاعَهُ.

(٠/٠)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ } ؛ قِيْلَ : إنَّ الخطابَ في هذه الآية لأُمَّة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وَقِيْلَ : هو خطابُ موسى لقومهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ } يعني قومَ شُعيب وغيرهم ، { لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ } ، لا يعلمُ عددَهم إلاّ الله ، { جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالدَّلائلِ الواضحاتِ { فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (عَضُّوا أنَامِلَهُمْ غَيْظاً عَلَى الرُّسُلِ فِيْمَا ادَّعَوْا مِنَ النُّبُوَّةِ) ، وقال مجاهدُ : (هَذا كِنَايَةٌ عَنِ الْجَحْدِ وَالتَّكْذِيب). وَقِيْلَ : معناهُ : وضعَ الكفارُ أيدِيَهم على أفواهِ أنبيائهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ } ؛ بسببٍ من التوحيد ، { مُرِيبٍ } ؛ ظاهرِ الشكِّ ، والرَّيْبُ الشكُّ مع التُّهمَةِ.

(٠/٠)

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ } ؛ أي في توحيدِ الله شَكٌّ ، وهذا إنكارٌ من الرسُل عليهم ؛ أي لا شكَّ في توحيدِ الله ، { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي خالِقِهما فكيف يشُكُّون فيه ودلائلُ وحدانيَّته ظاهرةٌ ، { يَدْعُوكُمْ } ؛ إلى دينِه ، { لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ } ؛ في الجاهليَّةِ ، { وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ منتهَى آجَالِكم ، فلا يعذِّبُكم بعذاب الاستئصال.

وأما دخولُ (مِنْ) في قولهِ { مِّن ذُنُوبِكُمْ } فيجوزُ أن تكون للجنسِ ، كما في قوله{ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ }[الحج : ٣٠] ، ويجوزُ أن تكون للتبعيضِ ؛ أي ليغفرَ لكم بعضَ ذُنوبكم ، فادْعُوا اللهَ وارغَبُوا إليه في مغفرةِ الذُّنوب كلِّها.

قولهُ : { قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا } ؛ أي قالت الأُمَمُ لرُسُلِهم : هل أنتم إلاّ آدميُّون مثلُنا لا فضلَ لكم علينا ، { تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا } ؛ تَمْنَعُونَا ، { عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا } ؛ من الأصنامِ ، { فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } ؛ فَأْتُوا بحجَّة واضحةٍ بيِّنة ، يعنون الآياتِ التي كانوا يقتَرحونَها على أنبيائهم.

(٠/٠)

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } ؛ كما قُلتم ، { وَلَاكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } ؛ كما أنعمَ علينا بأن أرسَلَنا ، { وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ ولا نملكُ الآيات التي تقتَرحون علينا ونحن بشرٌ مثلكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } ظاهرُ المعنى.

قالَتِ الكفارُ لَهم : فتوَكَّلوا أنتم على اللهِ حتى ترَونَ ما يفعلُ بكم ، قالت الرُّسل : { وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ

عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا } ؛ أي حسبُنا ، والهدايةُ من اللهِ هي الدلالةُ على الحقِّ والرشدِ ، { وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا } ؛ على أذاكُم ، { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } ؛ والتوكُّلُ هو التمسُّكُ بطاعةِ الله مع الرِّضا بقضائهِ وتدبيره.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ } ؛ أي قالت الكفارُ لرُسُلِهم : لا نُسَاكِنُكم على مخالفتِكم ديننا { أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } وقد ذكرنَا في قصَّة شعيب ، { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ } ، فأوحَى اللهُ إلى الرُّسُلِ : { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } ، أي الكفارِ ، { وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ } ؛ أرضَهم وديارهم ، { مِن بَعْدِهِمْ } ؛ من بعد هلاكِهم ، وهذا نِهايةُ ما في الإنعامِ ، فإن هذا جزاءُ مَن توكَّلَ على اللهِ ، { ذلِكَ } ؛ جزاءٌ ، { لِمَنْ خَافَ مَقَامِي } ؛ مقامَ العبادِ عندي ، { وَخَافَ وَعِيدِ } ؛ وخاف وعيدي بالعقاب ولِمَن عصاني.

(٠/٠)

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } ؛ أي سألَتِ الرُّسل ربَّهم أن يحكُمَ بينهم وبين الكفارِ ؛ لأن الفتحَ ها هنا بمعنى الْحُكْمِ ، يقال للحاكِم : الفَتَّاحُ ، فلما فزِعَتِ الرسلُ إلى ربهم بانجاز الوعد ، فتحَ لهم ما طلبوهُ فخابَ كلُّ جبارٍ عنيد.
والجبارُ : هو الطالبُ للخير والعُلُوِّ فوقَ كلِّ عُلُوٍّ ، والعنيدُ : هو الدافعُ للحقِّ على جِهةِ الاستنكار ، وقال قتادةُ : (الْعَنِيدُ : الْمُعْرِضُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ) ، وقال مجاهدُ : (هُوَ الْمُجَانِبُ لِلْحَقِّ).

(٠/٠)

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ } ؛ معناهُ أمامَ هذا الجبَّارِ بعدَ الموتِ جهنَّمُ ، والوراءُ يكون من خَلْفٍ وقُدَّامٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ } ؛ أي يُسقَى من ماءٍ يَسِيلُ من جُلودِ أهلِ النَّار من القيحِ والدَّمِ ، قال ابنُ عبَّاس : (فِي جَهَنَّمَ أَوْدِيَةٌ ، فِي تِلْكَ الأَوْدِيَةِ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ وَقَيْحُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ ، فَيُسْقَوْنَ مِنْ ذلِكَ الصَّدِيدِ قَدْ نَتَنَ رِيْحُهُ) { يَتَجَرَّعُهُ } ؛ شارِبهُ ، والملَكُ يضربهُ بالمقامعِ ويقولُ له : اشرب ، فيقولُ : لاَ أُطِيقهُ ، فيضربهُ حتى يشربَهُ جرعةً جرعةً ، ولا يكاد يسيغهُ من نتنه وحرِّه.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ } ؛ لا يقدرُ أن يبتلعَهُ ، والإسَاغَةُ هو دخولُ المشروب في حَلقهِ مع قَبُولِ النفسِ له ، وفي الحديثِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَكْرَهُهُ ، فَإِذا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأسِهِ فِيْهِ ، فَإذا شَرِبَهُ قَطَّعَ أمْعَاءَهُ ، فَتَخْرُجُ أمْعَاؤُهُ مِنَ الْجَانِب الآخَرِ " كما قال تعالى : { وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ }[محمد : ١٥].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ } ؛ أي ويأتيهِ غَمُّ الموتِ من قدامه ، ومن كلِّ مكان كان فيه يموتُ بدون ذلك في الدُّنيا ، قال ابنُ عبَّاس : (يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ تَحْتِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِهِ). قِيْلَ : وتأتيهِ النيرانُ من كلِّ جانبٍ ، { وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ } ، فيستريحُ من العذاب ، { وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ } ؛ أي ومن بعدِ ذلك عذابٌ شديد أشدُّ مما تقدَّمَ لا ينقطعُ ولا يَفْتُرُ.

(٠/٠)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ } ؛ أي مثَلُ أعمالِ الذين كفَرُوا بربهم في انتفاعهِ بها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يومٍ ذي عَاصِفٍ ، يقولُ : كما لا يقدرُ أحدٌ على الانتفاعِ على جمعِ ذلك الرَّماد إذا ذرَّتْهُ الريحُ الشديدة ، فكذلك هؤلاءِ الكفَّار ؛ { لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ } ؛ أي لا يقدرون على الانتفاعِ بشيءٍ من الأعمالِ التي عَمِلُوها على جهةِ البرِّ مثلَ صِلَةِ الرَّحِمِ ونحوِها. وأما الكفرُ والمعاصي فلا يكون كرَمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ } ؛ أي ذلك الذي ذُكِرَ هو الذهابُ عن التنفُّعِ البعيدِ عن الحقِّ والهدَى.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ } ؛ أي ألَم تعلَمْ – يا محمَّدُ – أنَّ اللهَ خلقَ السموات والأرضَ على ما توجِبُ الحكمة وتقتضيه المصلحةُ ، والحقُّ هو وضعُ الشيء موضعِهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } ؛ أيُّها الكفار ؛ أي يهلِكْكم ، { وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } ؛ ويخلُقُ قوماً آخرين أطوعَ للهِ منكم ، { وَمَا ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } ، أي وليس ذلك على اللهِ بشديدٍ ولا متعذِّر.

(٠/٠)

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَرَزُواْ للَّهِ جَمِيعاً } ؛ أي إذا كان يومُ القيامةِ بَرَزَ الناسُ من قُبورهم للمُسَائَلَةِ والمحاسبةِ ، فيُسأَلون عن أعمالهم ويُجَازَوْنَ عليها ، { فَقَالَ الضُّعَفَاءُ } ؛ أتباعُ الظَّلَمَةِ والعُصاة ، { لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ } ؛ وهم الرؤساءُ والقادة : { إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا } ؛ في المعصيةِ والظُّلم في الدُّنيا ، { فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ } ؛ دَافِعُونَ ، { عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ }. فيقولُ لهم رؤساؤهم : { قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ } أي ما نخلصُ به من هذا العذاب ، { لَهَدَيْنَاكُمْ } ؛ إليه ؛ أي لا مَطْمَعَ لنا في ذلك ، فكيف تطمَعون في مثلِهِ من جِهَتنا ؟ { سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ } ؛ أي لا حِيلَةَ لنا سواءً أجَزِعْنَا أم صَبَرنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ مِنْ هذا العذاب.

(٠/٠)

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ } ؛ هذا إخبارٌ عن خُطبةِ الشيطانِ ، وذلك أنه إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، قامَ إبليسُ خَطيبًا على مِنبَرٍ من نارٍ ، فقال : يا أهلَ النار إنَّ اللهَ وعدَكم وعداً ، وكان حقّاً وعدهُ ، { وَوَعَدتُّكُمْ } ، أنا ، { فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ } الإكراهِ على المعصية ، ولا حجَّة على ما قلتُ ، { إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ } ؛ إلى طاعَتي بالوَسْوَسَةِ ، { فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } ؛ بسوءِ اختياركم ، { فَلاَ تَلُومُونِي } ؛ على ما حَلَّ بكم من العقاب ، { وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ } ؛ فإنِّي لَمْ أُجْبِرْكُمْ على المعصيةِ ، { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ } ؛ أي بمُغِيثِكم ، { وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } ؛ ولا أنتم بمُغِيثِيَّ ، والإصْرَاخُ في اللغة : هو الْمُسْتَغِيثُ إغَاثَةً بهِ. ويُحكى أنَّ أعرابياً أتَى على رجُلٍ يقرأ هذه الآيةَ ، فقال : قَاتَلَهُ اللهُ مَا أفْصَحَهُ!

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ } ؛ إخبارٌ عن كلامِ إبليس ، ومعناهُ : إنِّي كفرتُ من قَبْلُ بالذي أشرَكتُمونِ به في الطاعةِ من قبلِ أن أشركتُموني به ؛ أي كفرتُ برَبي من قبلِ ما عدلتُموني بهِ. ويقال : معناهُ : إنِّي كفرتُ الآنَ بما كان من إشرَاكِكُمْ إيَّاي في الطاعةِ إذا أطعتُموني وجعلتُموني كأنِّي ربٌّ ، فصيَّرتُموني شَريكاً لربكُم ، وأنا أكفرُ اليومَ بشِركِكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي قَالَ اللهُ تَعَالَى : إن الظالِمين من إبليسَ وغيرهِ لهم عذابٌ وَجِيعٌ يخلصُ وجعهُ إلى قُلوبهم.

(٠/٠)

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ أي في جنَّات تجري من تحت قُصورِها وأشجارها الأنْهارُ ، { خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ } ؛ أي يُحَيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام ، ويرسلُ اللهَ الملائكة إليهم بالسَّلام.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ } ؛ أي ألَم تعلَمْ يا مُحَمَّدُ كيف وصفَ اللهُ شبهاً كلمةً طيِّبةً وهي كلمةُ التوحيدِ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ والإقرَارُ بالنبُوَّة ؛ كشجرةٍ طيِّبةِ الثمرِ ، وهي النخلةُ التي لا شيءَ أحلىَ من ثَمرِها وهو الرُّطَبُ ، كما لا كلامَ أحسنَ من كلمةِ الرب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ } ؛ فيه شَبَّهَ ثباتَ الإيمان وما فيهِ من الأدلَّة ، بقَرَارِ النخلةِ التي أصلُها ثابتٌ على نِهاية الثباتِ في تَمَكُّنِ فرعها في الأرضِ ، بل المعرفةُ في قلب المؤمن أثبتُ من عروقِ النخلة ؛ لأن النخلةَ تُقلَعُ ، ومعرفةُ العارفِ لا يقدر أحدٌ من الناسِ أن يُخرِجَها من قلبِهِ.
وقولهُ تعالى : { وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ } ؛ تُؤتِي أُكُلَها ، فيه تشبيهُ أعمالِ المخلِصين التي هي فروعُ الإيمان في أنَها ترتفعُ وتعلُو إلى جانب السَّماء ؛ لأن الأعمالَ لا تصلحُ إلا بالإيمانِ ، والأصلُ هو الإيمانُ ، والفروعُ هو الأعمالُ الصالحة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ } ؛ فيه تشبيهُ ما يحصلُ من الثواب الدائم الذي لا منْزلةَ أعلىَ منه ، وقولهُ تعالى : { بِإِذْنِ رَبِّهَا } ؛ أي بعِلْمِهِ وقُدرتِهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ } ؛ أي يُبَيِّنُ اللهُ الأشياءَ للناسِ في صفة التوحيدِ والدين ، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } لكي يتَّعِظُوا ويؤمنوا.

(٠/٠)

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ } ؛ يعني كلمةَ الشِّرك ، { كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ } ؛ يعني شجرةَ الْحَنْظَلِ ليس فيها حلاوةٌ ولا منفعة ولا رائحة طيِّبة ، بل تضرُّ مَن تناولَها ، فكذلك كلمةُ الكفرِ تضرُّ صاحبَها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ } ؛ أي اقتُلِعَتْ ، معناهُ : كما أنه ليس لشجرةِ الحنظل أصلٌ تثبتُ عليه وتَقَرُّ ، ولكن تُقلع وتؤخذ حبَّتهُ من أصلهِ ، فكذلك الكفرُ يُبْطِلُهُ الله ويستأصلُ أهلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا لَهَا مِن قَرَارٍ } ؛ فإن الريحَ تقلَعُها وتذهبُ ، كذلك ليس لكلمةِ الكفر حجَّة يحتجُّ بها صاحبها.

(٠/٠)

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } ؛ أي يُثَبتُ اللهُ الذين آمَنوا بقولٍ ثابت وهو : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ في الحياةِ الدُّنيا ، وفي الآخرةِ يعني القبرَ ، كما روُي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ الْمُؤْمِنَ إذا دَخَلَ قَبْرَهُ وَأتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ وَقَالاَ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ وَمَنْ نَبيُّكَ ؟ فَيُثَبتُهُ اللهُ فَيَقُولُ : اللهُ رَبي ؛ وَالإِسْلاَمُ دِيني ؛ وَمُحَمَدٌ نَبيِّي. فَيَقُولاَنِ : صَدَقْتَ هَكَذا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّار ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : هذا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ كَفَرْتَ برَبكَ ، فَإِذا آمَنْتَ برَبكَ فَهَذا مَنْزِلُكَ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ لَهُ فِي قَبْرِه.
وَإِنْ كَانَ كَافِراً أوْ مُنَافِقاً فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا تَقُولُ لِهَذا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ : لاَ أدْري ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ كَذا وَكَذا. فَيَقُولاَنِ لَهُ : لاَ دَرَيْتَ وَلاَ اهْتَدَيْتَ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَذا لَكَ لَوْ آمَنْتَ ، فَأَمَّا إذا كَفَرْتَ فَإِنَّ اللهَ بَدَّلَكَ بِهِ هَذا ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ ، ثُمَّ يَقْمَعُهُ بالْمِطْرَاقِ قَمْعَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللهِ كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ ، فَلاَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ شَيْءٌ إلاَّ لَعَنَهُ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ ريحِهَا وَسَمُومِهَا ، وَيُقَالُ لَهُ : نَمْ نَوْمَةَ اللَّدِيغِ ، ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أضْلاَعُهُ " فَذلِكَ قولهُ { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } ؛ { وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ } ؛ أي ويهلِكُهم ، { وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ } ؛ من التَّثبيتِ والإضلالِ ، لا مانعَ له مما يفعلهُ.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً } ؛ فيه تعجيبٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم من صُنعِ المشركين ، فإنَّهم بدَّلوا نعمةَ الله بالكُفرِ ، ثم لم يقتَصِروا على هذا في أنفسهم حتى أضَلُّوا قومَهم ، { وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } ؛ أي دارَ الهلاكِ وهي : { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا } ؛ أي يدخُلونَها يومَ القيامةِ ، { وَبِئْسَ الْقَرَارُ } ؛ قرارُ من يكون قرارهُ النار ، وقوله تعالى : { جَهَنَّمَ } بنَصب (يَصْلَوْنَهَا).

(٠/٠)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً } ؛ أي أمْثَالاً ونُظَرَاءَ ، { لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ } ؛ أي كان عاقبَتُهم الضلالَ عن دينِ الله ، { قُلْ تَمَتَّعُواْ } ؛ قَليلاً في الدنيا ، { فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ }.

(٠/٠)

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ } ؛ في الآية أمرٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بأن يأمُرَ المؤمنين بما يؤدِّيهم إلى النعيم المقيم ، وقولهُ تعالى : { يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ } أي يُؤدُّونَها لمواقيتها بشَرائِطها.
واختلَفُوا في جزمِ { يُقِيمُواْ } قِيْلَ : لأنه جوابُ الأمرِ ، وقال بعضُهم : تقديره : قُل لعباديَ الذين آمَنوا أقِيمُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً } ؛ من الأموالِ في وجه البرِّ من الفرائضِ والنوافل ، سِرّاً في النوافلِ ، وعلانيةٌ في الفرائضِ ، { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ } ؛ يومَ لا يُقبَلُ البدلُ للتخلُّصِ من النار ، { وَلاَ خِلاَلٌ } ؛ أي ولا مَوَدَّةٌ يكون فيها تخليصُ أحدهما للآخرِ.

(٠/٠)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، { فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ } ؛ أي من الثمارِ ما تنتفعون به. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ } ؛ أي السُّفُنَ ، { لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ } ، وتجرِي حيث تشاؤُون ، { وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ } ؛ أي سخَّرَها لكم إلى يومِ القيامة ، { وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ } ؛ بأن أتَى بهما متعاقِبَين لينصرفَ الناسُ في معايشهم بالنهار ويهدأوا بالليلِ.

(٠/٠)

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } ؛ من العاقبةِ وغير ذلك ، ومَن قرأ (مِنْ كُلٍّ) بالتنوين فالمعنى : أعطاكُم من كلِّ ما تقدَّمَ ذِكرهُ من النِّعَمِ ، ثم قالَ (مَا سَأَلْتُمُوهُ) أي لَم تسألوهُ ، بلِ ابتدأكم بذلك تفضُّلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا } ؛ أي إنعَامهِ ، والنِّعمةُ ها هنا اسمٌ أُقيمَ مقامَ المصدر ، ولذلك لم يُجمع ، (لاَ تُحْصُوهَا) أي تَأْتُوا على جميعِها بالعدِّ. وَقِيْلَ : لا تحفَظُوها ولا تطيقوا عدَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } ؛ معناهُ : إن الإنسانَ مع هذه النِّعَمِ لظلومٌ لنفسهِ كفَّارٌ لنِعَمِ ربهِ. والإنسانُ : اسمُ جنسٍ لكن يُقصد به في هذا الموضعِ الكافرُ خاصَّة.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَاذَا الْبَلَدَ آمِناً } ؛ أي واذْكُرْ إذ قالَ إبراهيمُ بعدَ ما بَنَى البيتَ : رب اجعل مكَّة آمِناً يأمَنُ فيها الناسُ والوحش ، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ حتى اجتمعَ فيه الناسُ مع شدَّة العداوةِ بينهم ، وتَدْنُوا الوحوشُ فيه من الناسِ فتأمَنُ منهم. وإنما عَرَّفَ البلدَ في هذه الآيةِ ونَكَّرَها

في البقرةِ ؛ لأن النَّكِرَةَ إذا أُعيدت تعرَّفت.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ } ؛ أي وَالْطُفْ بي وَبَنِيَّ لُطفاً نتجنَّبُ به عبادةَ الأصنامِ ، { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ } ؛ يعني الأصنامَ ، وأضافَ الإضلالَ إلى الأصنامِ ، وإنْ لم تكن تفعلُ شيئاً ؛ لأنَّهم ضَلُّوا بعبادتِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي } أي فمَن تبعَنِي على دِيني فإنه منِّي ومعي ، { وَمَنْ عَصَانِي } ؛ خالَفَني في دِيني ، { فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي غفورٌ لذُنوبهم ، رحيمٌ بهم.

(٠/٠)

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ } ؛ أي قالَ إبراهيمُ : إنِّي أسكنْتُ بعضَ ذُرِّيَّتي ، وهو إسماعيلُ مع أُمِّه هَاجَرَ ، بوادٍ جَدْبٍ لا يُنبتُ شيئاً ، وأرادَ به وادِي مكَّة وهو الأَبْطَحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } ؛ أي عندَ المسجدِ الحرام ، سَمَّاهُ الْمُحَرَّمَ لأنه لا يستطيعُ أحدٌ الوصولَ إلا بالإحرامِ. وَقِيْلَ : أرادَ به حُرمَةَ الاصطيادِ والقتلِ ، كما رُوي في الخبرِ : " أنَّ مَكَّةَ حَرَامٌ لاَ يُخْتَلَى خَلاَؤُهَا ، وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا ".
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ } ؛ أي أسْكنتُهم عندَ بيتكَ الْمُحَرَّمِ ليُقِيمُوا الصلاةَ بحرَمِ مكَّة ، { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ } ؛ أي تُسرِعُ إليهم ، قال مجاهدُ : (لَوْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : أَفْئِدَةَ النَّاسِ ، لَزَاحَمَتْهُمُ الرُّومُ وَفَارِسُ ، وَلَكِنْ قَالَ : أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ) ، وقال ابنُ جُبير : (لَوْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : أَفْئِدَةَ النَّاسِ ، لَحَجَّتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ).
وقُرئ (تَهْوَى) بنصب الواو من هَوَى يَهْوَى إذا أحبَّ ، إلاَّ أن القراءةَ المعروفة بالكسرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ } ؛ أي ما تُسِرُّ أنفسُنا وما تُظهِرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ } ؛ يحتملُ أن يكون من كلامِ إبراهيمَ ، ويحتملُ أن يكون قَولاً من اللهِ معترضٌ بين الكلامَين ، كأنه صدَّقَ إبراهيمَ فإنه لا يخفَى على اللهِ من شيءٍ.
ثم رجعَ إلى قولِ إبراهيمَ : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } ؛ رُوي أنَّ إبراهيمَ كان ابن مائة سَنة يومَ وُلد له إسحاق ، وكانت سارةُ يومئذٍ بنتَ تسع وتسعين سَنةً ، وكان إسماعيلُ أكبرَ من إسحق بثلاثةِ عشرة سَنة. وقولهُ تعالى : { إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ } ؛ أي قابلُ للدُّعاءِ.

(٠/٠)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ } ، أي مُدَاوِماً على إقامةِ الصَّلاة ، وَاجعل ؛ { وَمِن ذُرِّيَتِي } ؛ مَن يقيمُ الصلاةَ ، { رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ } ؛ أي أجِبْ دُعائِي ، { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ } ؛ قال بعضُهم : أرادَ آدمَ وحوَّاء ؛ لأن اللهَ تعالى كان نَهَاهُ عن الاستغفارِ لأبيه من بعدِ ما تبيَّن له أنَّهُ عدُوٌّ للهِ.
وقال بعضُهم : أرادَ أبوَيه الأدنَيين ، فكان إبراهيم يستغفرُ لأبَويه عن مَوعِدَةٍ وعدَ بها إياه. وقرأ بعضُهم (وَلِوَالِدَتِي) لأن أُمَّهُ كانت مسلمةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } ؛ أي يومَ يحاسَبُ الخلقُ.

(٠/٠)

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي لا تظُنَّنَّ اللهَ يا مُحَمَّدُ غافلاً عن أعمال الظَّالمين ومجازَاتِهم على ما يعملون ، { إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ } ؛ قال ابنُ

عبَّاس : (إذا سِيقُوا إلَى النَّار شَخَصَتْ أبْصَارُهُمْ إلَيْهَا) ، وقال الحسنُ : (تَشْخَصُ أبْصَارُهُمْ إلَى إجَابَةِ الدَّاعِي حِينَ يَدْعَوهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ ، لاَ يُغْمِضُونَ أعْيُنَهُمْ مِنْ هَوْلِ ذلِكَ الْيَوْمِ).

(٠/٠)

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ } ؛ أي مُسرِعين نحوَ البلاءِ الذي ينْزِلُ بهم ، والإهْطَاعُ : الإسْرَاعُ ، وقال مجاهدُ : (مُهْطِعِينَ ؛ أيْ مُدِيْمِينَ النَّظَرَ) ، قال الخليلُ : (الْمُهْطِعُ : الَّذِي قَدْ أقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ بنَظَرِهِ وَلاَ يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ عَنْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ } أي رَافِعِي رؤوسِهم إلى يَرَون في السَّماء من الانفطار ، وانتشار الكواكب ، وتكويرِ الشَّمس ونحوِ ذلك.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ } ؛ أي لا يُغمِضُونَ أعْيُنهم من الهولِ والفزَعِ ، وقولهُ تعالى : { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ } أي قلوبُهم خاليةٌ من خيرٍ ، وَقِيْلَ : مجوَّفَةٌ لا عقولَ فيها ، قال السديُّ : (هَوَتْ أفْئِدَتُهُمْ بَيْنَ مَوْضِعِهَا وَبَيْنَ الْحِنْجَرَةِ ، فَلاَ هِيَ عَائِدَةٌ إلَى مَوْضِعِهَا ، وَلاَ هِيَ خَارِجَةٌ مِنْهَا).
ثم عادَ إلى خطاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : { وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ } أي أعلِمْهُم بموضعِ المخافة يوم يأتيهم العذابُ وهو يومُ القيامةِ ؛ { فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ } ؛ أي الكفارُ : { رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ } ؛ أعِدْنَا إلى حالِ التكليف ، { نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } ؛ واستَمْهَلوا مدَّةً يسيرةً كي يُجيبوا الدعوةَ ويتَّبعُوا الرسُلَ ، فقَالَ اللهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ } ؛ أي حَلَفْتُمْ مِن قبلِ هذا في الدُّنيا ، { مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ } ؛ من الدُّنيا الى الآخرةِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ }[النحل : ٣٨].

(٠/٠)

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } ؛ أي سكَنتُم في مساكنِ عادٍ وثَمودَ ، { وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ } ؛ أي ظهرَ لكم كيفَ كفَرُوا باللهِ ورسُلِهِ ، وكيف عاقَبَهم اللهُ ، والمعنى : كان ينبغِي أن يَنْزَجِرُوا أو يَرْتَدِعُوا الكفرَ اعتباراً بمساكنِهم بعدَ ما تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ } ؛ أي وبَيَّنَّا لكم الأمثالَ في القرآنِ الْمُنَبهِ على التفكُّرِ ، فلم يعتَبروا تلكَ الأمثالِ.

(٠/٠)

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ } ؛ أي قد مكَرت الأُمَمُ الماضيةُ بأنبيائِهم ما أمكنَهم من المكرِ ، واللهُ تعالى عالِمٌ بمكرِهم ، { وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ } ؛ جزاءُ ، { وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } ؛ مَن قرأ (لِتَزُولَ) بكسر اللام فالمعنى : وإنْ كان مكرُهم قصداً منهم إلى أن تزولَ منه الجبالُ ، ثم لا تزولُ منه الجبال ، فكيف يزولُ منه الدِّينُ الذي هو أثبتُ من الجبالِ.

وَقِيْلَ : معناه الجحدُ ، كأنه قال : وما كان مكرُهم ليزولَ منه دينُ الإسلام وثُبوته كثُبوتِ الجبالِ ، واستحقرَ مكْرَهم. ومن قرأ (لَتَزُول) بفتح اللامِ فمعناهُ : وإنَّ مكرَهم قد بلغَ منتهاهُ حتى تزولَ منه الجبالُ ، فلا يضرُّ ذلك أنبياءَ الله ورسُلَهُ ، فإن اللهَ وعدَ رسُلَهُ النصرَ ، لقولهِ : { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }[الفتح : ٢٢٨].

(٠/٠)

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ } ؛ أي لا تَظُنَّنَّ اللهَ يا مُحَمَّدُ مُخْلِفَ رُسُلِهِ ما وعدَهم من النصرِ وإظهار الدِّين ، { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } ؛ لا يعجزهُ شيْءٌ ، { ذُو انْتِقَامٍ } ؛ ذو نِقْمَةٍ ممن عصاهُ وكفرَ به.

(٠/٠)

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } ؛ تبديلُها أنْ يُزادَ فيها وينقصَ منها ، وتستوِي جبالُها وأوديتها ، وتُمَدَّ الأدِيْم العُكَاظِيِّ أرضاً بيضاءَ كالفِضَّة ، وتبديلُ السَّموات انفطارُها وانتشارُ كواكبها وتكويرُ شَمسِها وخسوفُ قمَرِها.
وذهب بعضُهم : إلى أنَّ الآيةَ على ظاهرِها ، وأن هذه الأرضَ تُبَدَّلُ يومئذٍ بأرضٍ أُخرى ، كما رُوي عن عائشةَ : أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَرَأ عَلَيَّ هَذِهِ الآيَةَ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ تَكُونَ النَّاسُ ؟ قَالَ : " عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ " يعني الصِّراطَ ، وأما السمواتُ على هذا القولِ ، فإنَّها تُطْوَى وتبدَّلُ سماءً أُخرى ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ }[الأنبياء : ١٠٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَرَزُواْ للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } ؛ أي وبرَزُوا من قبورِهم للمحاسَبة.

(٠/٠)

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ } ؛ أي وترَى يا مُحَمَّد الذين أجرَمُوا يومَ القيامةِ (مُقَرَّنِينَ) أي مجمُوعِين مع الشياطين { فِي الأَصْفَادِ } أي في الأغلالِ والسَّلاسلِ ، كما رُوي في الخبرِ : " أَنَّهُ يُقْرَنُ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ فِي غِلٍّ مِنْ حَدِيدٍ وَقَيْدٍ مِنْ مِنْ حَدِيدٍ " والأصفادُ الأغلال ، واحدها صِفْدٌ وصِفَادٌ. وَقِيْلَ : الأصفادُ الأغلال والقيُودُ.

(٠/٠)

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ } ؛ أي قَميصُهم من نارٍ سَوداء كالْقَطْرَانِ ، وهو الذي تُهْنَأُ به الإبل ، ومَن قرأ (مِنْ قِطْرٍ) فالمعنى : من نُحاسٍ مُذابٍ قد بلغَ النهاية في الحمايةِ. وتحتملُ أنَّهم يُسَرْبَلُونَ سَرْباً ؛ لأن أحدَهما من القِطْرِ ، والاخر من القِطْرَانِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ } ؛ أي يعلُو وجوهَهُم النارُ ، وذلك أنَّ بين الكافر وشَيطانهِ حَجَراً من الكبريتِ يشتعلُ في وجههِ ، { لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ } ؛ ليجزِيَ الذين أسَاؤُا بما عمِلُوا ، ويجزي الذين أحسَنُوا بالْحُسْنَى ، { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } ؛ إذا حاسب فحسابه سريعٌ ؛ لأنه لا يحاسِبُ بعقدٍ وإشارة ، ولا يتكلَّمُ بلسانٍ ، وإنه يكَلِّمُ الجميعَ في وقتٍ واحد.

(٠/٠)

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَاهٌ وَاحِدٌ } ؛ أي هذا القرآنُ ذِكْرٌ بالغٌ وموعظة كافيةٌ للناسِ ، وليُخَوَّفوا بذكرِ العقاب ، { وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } ؛ أي لِيَتَّعِظَ ذوُو العقولِ من الناسِ ، فيوصلَهم ذلك إلى الجنةِ ، ويخلِّصَهم من النارِ.
عن أُبَيِّ بن كعبٍ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إبْرَاهِيمَ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامَ ، وَبعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا ".

(٠/٠)

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)

{ الرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ الر ، ومعنَى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } أي هذه آياتُ الكتاب الذي وعدتُ إنزالَهُ عليكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ } أي مبَيِّنٌ للحلالِ والحرام ، مميِّزٌ بين الحقِّ والباطلِ.

(٠/٠)

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ } ؛ أي ربَّما يأتِي على الكفارِ يوم يتمَنَّون أن لو كانوا مُسلمين ، وذلكَ في الآخرةِ إذا صارَ المسلمون إلى الجنَّة والكفارُ إلى النارِ.
قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى إذا أدْخَلَ أهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأهْلَ النَّارِ النَّارَ ، أُحْبِسَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الصِّرَاطِ ، فَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لَهُمْ : نَحْنُ حُبِسْنَا بِكُفْرِنَا وَنِفَاقِنَا ، فَمَا نَفَعَكُمْ بِمُحَمَّدٍ ؟ فَعِنْدَ ذلِكَ يَصِيحُونَ صَيْحَةً لَمَّا عَيَّرَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، فَيَسْمَعُهَا أهْلُ الْجَنَّةِ ، فَيَقُومُونَ إلى آدَمَ ثُمَّ إلى إبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ إلى مُوسَى ، ثُمَّ إلى عِيسَى يَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ ، فَيُحِيلُونَهُمْ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَيَشْفَعُ لَهُمْ ، وَذلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ ، فَيُدْخِلُهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ ، فَإذا نَظَرَ الْمُنَافِقُونَ إلَيْهِمْ تَمَنَّواْ أنْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ).

(٠/٠)

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ } ؛ أي اترُكهم يا مُحَمَّد يأكُلوا في الدُّنيا كالأنعامِ ، ويتلذذُوا قَليلاً ، ويُشغِلْهم الأملُ الطويل عن طاعةِ الله ، { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ، فسيعلمون ماذا ينْزلُ بهم من العذاب ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَى أُمَّتِي شَيْئَيْنِ : طُولَ الأَمَلِ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى ، فَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ".

(٠/٠)

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } ؛ أي أجلٌ ينتَهون إليه لا يُهلِكُهم اللهُ حتى ينتهون إليه ، لا يهلِكُ أُمَّة قبل أجلِها الذي كتبَ لها ، ولا تؤخَّرُ

عن أجلِها طرفةَ عينٍ ، فلا يفترُ هؤلاء الكفار بتأخيرِ وقت إهلاكهم ، فإنه إذا جاءَ الوقتُ الذي كتبَ الله هلاكَهم فيه ، لم يتأخَّروا عنه كما لا يتقدمون عليه.
وفي هذا بيانُ أنه لا يموتُ أحدٌ ولا يقتلُ إلاّ لأَجَلِهِ الذي جعلَهُ الله له ، ولا يعترضُ على هذا بقولِ مَن قالَ : يجبُ أن لا يكون القاتلُ ظالماً للمقتولِ ؛ لأنه لو لم يقتلْهُ كان يموتُ في ذلك الوقتِ! قُلنا : كان يموتُ من غير ألَمِ القتلِ ، فكان القاتلُ بإيصالِ ذلك الألَمِ إليه ظَالماً له.

(٠/٠)

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ ياأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } ؛ أي قالَ الكفارُ مِن أهلِ مكَّة وهم : عبدُالله بن أُمَية المخزومي وأصحابهُ ؛ قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : يا أيُّها الذي نزلَ عليه الذِّكرُ في دعواهُ وفي زعمِهِ إنَّكَ لَمجنون في دعواكَ أنه نَزَلَ عليكَ هذا. فإنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بأن القرآنَ أُنزِلَ عليه ، وقولهُ تعالى : { لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ } ؛ أي هَلاَّ تأتِينَا بالملائكةِ من السَّماء يشهَدُون أنَّكَ رسولُ اللهِ ، { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ فيما تدَّعي.

(٠/٠)

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ } ؛ جوابٌ من اللهِ لَهم يقولُ : ما تَتنَزَّلُ الملائكةُ من السَّماء إلا بالرِّسالةِ والعقاب والموتِ ، كلُّ ذلك حقٌّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ } ؛ أي وما كانوا إذاً مؤَجَّلين إذا نزلت عليهم الملائكةُ ، بل يُستَأصَلُونَ بالعذاب حينئذٍ ، إلا مَن يكون له المعلومُ من حالهِ أنه يؤمنُ.

(٠/٠)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } ؛ الذي جعلنَاهُ مُعجِزاً لا يقدرُ على الإتيان بمثلهِ ، فهو محفوظٌ من الزِّيادة والنقصان ، ويقال : هو محفوظٌ من كَيْدِ المشركين بالإبطال.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ } ؛ أي ولقد أرسَلنا رسُلاً من قبلِكَ في الأُمَم الأوَّلين ، والشِّيَعُ : جمعُ شِيعَةٍ ، والشِّيعَةُ : الأمَّةُ والفِرقَةُ.

(٠/٠)

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ في إنكار التوحيد والبعثِ ، كما يفعلُ بكَ قومُكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } ؛ بأن تُسمِعَهم ويُفهِمَهم ثم لا يؤمنون بهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : كذلك نسلكُ الاستهزاءَ ف قلوب الْمُجرِمين حتى يَمتَنِعُوا عنه. والسَّلْكُ : إدخالُ الشيءِ في الشيء. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } بعذاب الاستئصالِ عندَ مُعاندَتِهم في التكذيب.

(٠/٠)

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا } ؛ أي لو فَتحنا على هؤلاءِ الكفار بَاباً من السَّماء ينظُرون إليه ، فظَلُّوا يصعَدُون إليه وينْزِلُونَ عنه ، لَم يؤمنوا وقالُوا : (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) أي غُطِّيَتْ أبصارُنا وأُغْشِيَتْ عن حقيقةِ الرُّؤية ، { بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ } ؛ نحن قومٌ قد سُحِرْنَا ، وتُخَيَّلُ لنا هذه الأشياءُ على خلافِ حقَائِقها ، كما قالوا حين انشقَّ القمرُ وعاينوهُ : هَذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

ومَن قرأ (سُكِرَتْ) بالتخفيفِ فهو من السُّكْرِ ، وقراءةُ التشديدِ ؛ لتكثير الفعلِ والمبالغة.

(٠/٠)

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً } ؛ وهي منازلُ الشَّمسِ والقمر والكواكب التِّسعة ، وهي اثنَا عسرَ بُرجاً : أوَّلُها الْحَمَلُ والثورُ إلى آخرها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } ؛ أي زيَّنا السماءَ بالكواكب للناظِرين إليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } ؛ أي حَفِظْنَا السماءَ أن يدخُلَ فيها شيطانُ يمكنه الاستماعُ إلى كلامِ الملائكة.

قال ابنُ عبَّاس : (كَانَتِ الشَّيَاطِينُ لاَ تُحْجَبُ عَنِ السَّمَوَاتِ كُلِّهَا ، وَكَانُواْ يَقْعُدُونَ فِي السَّمَاءِ مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَيَسْتَمِعُونَ إلى مَا هُوَ كَائِنٌ فِي الأَرْضِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، فَيَنْزِلُونَ بِهِ عَلَى كَهَنَتِهِمْ ، فَيَتَكَلَّمُ بِهِ الْكَهَنَةُ لِلنَّاسِ ، حَتَّى بُعِثَ عِيسَى عليه السلام فَمُنِعُواْ مِنْ ثَلاَثِ سَمَوَاتٍ ، وَكَانُوا يَصْعَدُونَ إِلَى أَرْبَعِ سَمَوَاتٍ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَمُنِعُواْ مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ، وَحُرِسَتِ السَّمَاءُ بالنُّجُومِ وَالْمَلاَئِكَةِ ، فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يُرِيدُ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ إِلاَّ رُمِيَ بِشِهَابٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي عَلَى نَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْبَلُ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ } ؛ أي نجمٌ مُضِيءٌ حارٌّ يتوقدُ لا يخطؤهُ ، والشِّهَابُ : هو الكوكبُ الْمُنْقَضُّ.

(٠/٠)

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا } ؛ أي بسَطنَاها ، { وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ } ؛ أي جِبَالاً ثوابتَ أوتاداً لها ، { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا } ؛ أي في الجبالِ ، { مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) ؛ من كلِّ ما يوزَنُ مثل الذهب والفضة والحديد والصُّفرِ والنُّحاس والرصاصِ. ويجوز أن يكون المعنى : وأنبَتْنَا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ من النباتِ والثمار مقدورٍ مقسومٍ لا يجاوِزُ ما قَدَّرَهُ اللهُ على ما تقتضيه الحكمةُ. وأما تخصيصُ الموزون فلأنَّ ما يُكَالُ من الحبوب يعاقبهُ الوزن أيضاً.

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ } أي جعلنَا لكم في الأرضِ معايشَ مما تأكُلون وتشرَبُون وتلبَسون ، وقولهُ تعالى : { وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } ؛ أي وجَعلنا لِمَن لستُمْ له برَازِقِينَ معايشَ من الدواب وغيرِها ، وجاءت (مَنْ) لغيرِ الناس كقوله تعالى{ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ }[النور : ٤٥] الآيةُ. وَقِيْلَ : المعنى : وجعَلنا لكم مَن لستُم له برَازِقين ، كأنه قال : جعلنا لكم فيها معايشَ ، وجعلنا لكُم العبيدَ والدوابَّ ، وكفيناكُم مُؤْنَةَ أرزَاقِها.

(٠/٠)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ } ؛ أي ما مِن شيءٍ تحتاجون إليه من النَّباتِ والثمار والأمطار ، إلاّ ومفاتيحَهُ إلَينا وهو في مَقدُورِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } ؛ أي ما نُنَزِّلُ الرزقَ والمطرَ إلا بمقدارٍ معلوم تقتضِي الحكمةُ إنزالَهُ ، ويعلمُ الْخُزَّانُ مقاديرَهُ ، كما رُوي في الخبرِ : " مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكٌ يَضَعُهَا فِي مَوْضِعِهَا ، إلاَّ يَوْمَ الطُّوفَانِ فَإِنَّهُ طَغَى الْمَاءُ يَوْمَئِذٍ عَلَى خُزَّانِهِ ، فَلَمْ يَحْفَظُواْ مَا خَرَجَ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ".

(٠/٠)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ } ؛ أي ذاتَ لُقَاحٍ تأتِي بالسَّحاب وتَلْقَحُ الشَّجرَ ، فالريحُ هي الْمُلَقَّحَةُ للسَّحاب ؛ أي الْمُحَمِّلَةُ للسحاب المطرَ ، قال ابنُ مسعود : (يَبْعَثُ اللهُ الرِّيحَ فَتَلْقَحُ السَّحَابَ ، ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ فَيُدِرُّ كَمَا تُدِرُّ النَّعْجَةُ ، ثُمَّ يُمْطِرُ) ، وعنهُ أيضاً قال : (خَلَقَ اللهُ الْمَاءَ فِي الرِّيحِ فَتُفْرِغُهُ الرِّيحُ فِي السَّحَاب ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } ؛ يعني المطرَ ، { وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } ؛ أي لستُم لذلك الماءِ بخَازنِينَ ولا مفاتيحهُ بأيدِيكم.

(٠/٠)

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } ؛ أي نُحيي بالبعثِ في الآخرة ، ونُميتُ في الدنيا ونحن الوارثونَ لِمَا في السَّموات والأرضِ بعدَ موتِ أهلها ، ومعنى الإرْثِ : الخلائقُ كلُّهم يَموتُونَ ولا يبقَى إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وما يبقَى للحيِّ بعد الميْت يُسمَّى مِيرَاثاً.

(٠/٠)

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ } ؛ أي عِلمْنَا الأوَّلين منكم وعلِمْنا الآخِرين ، وَقِيْلَ : ولقد علِمْنا السَّابقين منك إلى الطاعةِ ، ولقد علمنا المتأخِّرين عن الطاعةِ.
وعن ابنِ عبَّاس قال : (كَانَتِ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي آخِرِ النِّسَاءِ ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَتَقَدَّمُ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ لِئَلاَّ يَرَاهَا ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَكُونُ فِي آخِرِ الصَّفِّ ، فَإِذا رَكَعَ تَقُولُ هَكَذا ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

(٠/٠)

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ } ؛ أي يجمَعُهم للجزاءِ والحساب ، { إِنَّهُ حَكِيمٌ } ؛ في أفعالهِ ، { عَلِيمٌ } ؛ بما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم.

(٠/٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } ؛ يعني آدمَ ، والصَّلْصَالُ : هو الطِّينُ اليابسُ الذي لَم تُصِبْهُ نارٌ ، فإذا ضَرَبْتَهُ صَلَّ ؛ أيْ صَوَّتَ ، وإذا مَسَّهُ النارُ فهو فَخَّارٌ. والْحَمَأُ : جَمْعُ الْحَمَأَةِ ، وَهُوَ الطِّينُ الْمُتَغَيِّرُ إِلَى السَّوَادِ. والْمَسْنُونُ : مُتَغَيِّرُ الرَّائِحَةِ إِلَى النَّتَنِ من قوله{ لَمْ يَتَسَنَّهْ }[البقرة : ٢٥٩]. وهو الذي أتت عليه السُّنون.
وذلك أن أدمَ كان في الأصلِ تُراباً ثم عُجِنَ ذلك الترابُ بالماءِ فصارَ طِيناً ، ثم صارَ حَمَأً مَسْنُوناً ثم صُوِّرَ ، وتُرِكَ مصوَّراً حتى يَبسَ فصارَ صَلْصَالاً ، فمكثَ أربعين سنةً ثم صارَ بَشَراً ، لَحماً ودماً وعظماً ، ثم نُفِخَ فيه الروحُ.

(٠/٠)

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ } ؛ قِيْلَ : إن الْجَانَّ أبو الجنِّ وهو إبليسُ ، فمَن أسلَمَ من ولدهِ فهو جِنِّيٌّ ، ومَن كفرَ فهو شيطانٌ ، وقوله تعالى : { مِن قَبْلُ } أي من قبل آدمَ ، وقال الكلبيُّ : (الْجِنُّ وَلَدُ الْجِنِّ وَلَيْسَ هُوَ بِإِبْلِيسَ ، إِنَّمَا إِبْلِيسُ أَبُو الشَّيَاطِينِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن نَّارِ السَّمُومِ } أي مِن نارٍ حارَّة ، قال ابنُ مسعود : (سَمُومُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنَ السَّمُومِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ الْجَانُّ) ، ويقالُ : السُّمُومُ نارٌ صافية لا دخانَ لها ، ومِن هذا سُمِّيت الريحُ المحرقة الحارَّة سَموماً. وأما الْمَارِجُ الذي ذكرَهُ الله تعالى في قولهِ{ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ }[الرحمن : ١٥] فمعنى الْمَارِجِ ما اختلطَ من لَهَب النار.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ ، { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ } ؛ أي جمعتُ خَلقَهُ باليدَين والرجلين والعينَين وسائرِ الأعضاء ، { وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي } ؛ وأدخلتُ فيه روحاً فصارَ بشراً بعدَ ما كان طِيناً يابساً ، { فَقَعُواْ لَهُ } ؛ على وجُوهِكم ، { سَاجِدِينَ } ؛ أي خاضعين له بالتحيَّة ، { فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } ؛ لآدمَ سجودَ تحيَّة له ، وعبادةً للهِ ، وقولهُ تعالى : { أَجْمَعُونَ } يدلُّ على اجتماعِهم في السُّجود في حالةٍ واحدة.

(٠/٠)

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } ؛ أي امتنعَ من السُّجود لآدمَ ، { قَالَ ياإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ } ؛ أي كيفَ ينبغي أن أسجُدَ له ، وأنا أشرفُ منه أصلاً وهو ، { خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } ، من طينٍ يتصَلصَلُ مجوَّف محتاجٌ إلى الطعامِ والشراب ، وهو من حَمَأ ، والْحَمَأُ ظلمةٌ وسواد ، والْمَسْنُونُ من الحمأ مُنْتِنٌ ، { قَالَ } ؛ اللهُ تعالى : { فَاخْرُجْ مِنْهَا } ؛ أي من الجنَّة ، وَقِيْلَ : من الأرضِ ، فأَلْحَقَهُ بجُزر البحارِ ، { فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } ؛ أي من مطرودٌ من الرحمةِ ، مُبْعَدٌ من الخير ، { وَإِنَّ عَلَيْكَ } ؛ مع هذا ، { اللَّعْنَةَ } ؛ لَعْنَةَ اللهِ ولعنةَ

الخلائقِ ، { إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } يومِ الجزاءِ وهو يومُ القيامةِ ، وهو أوَّلُ من عصَى اللهَ من أهلِ السَّموات والأرضِ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ؛ أي أجِّلنِي إلى يوم يبعَثُ الخلائقُ ، أرادَ الخبيثُ أن لا يذوقَ الموتَ ، { قَالَ } ؛ الله تعالى : { فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } أي وقتِ النَّفخَةِ الأُولى حين يُصعَقُ مَن في السمواتِ ومن في الأرض ، وبين النفخة الأُولى والثانية أربعون سنةً.
وهذا لم يكن إجابةً من اللهِ لإبليس إلى ما سألَ ، لأنه لم يكن أجلهُ ما دون آخرِ التكليف ثم أجَّله إليه ، ولكن كان في علمِ الله أنه لم يسأَلْ لكان أجلهُ يمتَدُّ إلى آخرِ التكليف ، فيكون هذا جوابَ إهانةٍ لا جواب له.
فلما لم يعطَ الخبيثُ ما سألَ من النَّظْرَةِ { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي } ؛ أي خَيَّبْتَنِي من جنَّتك ورحمتك ، { لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ } ؛ لبَنِي آدمَ ، { فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ من الشهوات واللذاتِ حتى يختارُوها على ما عندَكَ.

(٠/٠)

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } ؛ من قرأ بكسرِ اللام فمعناه : الذين أخلَصُوا الطاعةَ لكَ ، ومَن نصبَها فمعناهُ : الذين أخلَصتَهم لنفسِكَ.

(٠/٠)

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } ؛ أي افعَلْ ما شِئْتَ ، فإن طريقكَ عليَّ لا تَفوتُني ، وهذا تَهديدٌ لإبليسَ ، وَقِيْلَ : معناهُ : علَيَّ مَمَرُّ مَنْ أطاعكَ وعلَيَّ مَمَرُّ من عصَاكَ ، كما قال : { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }[الفجر : ١٤] ، وَقِيْلَ : معناهُ : إن هذا دينٌ مستقيم عليَّ بيانهُ والهداية إليه.

(٠/٠)

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } ؛ أي لا تقدرُ أن تحمِلَهم على المعصيةِ وتُكرِهَهم عليها ، { إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } ، ولكن مَن يتَّبعُكَ فإنما يتَّبعُكَ باختيارِهِ.

(٠/٠)

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ أي لموعِدُ إبليس ومَن تبعَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ } ؛ بعضُها أسفلَ من بعضٍ ، وكلُّ طَبَقٍ منها أشدُّ حرّاً مِن الذي فوقَهُ سبعين ضِعْفاً ، والبابُ الأوَّلُ أهونُ حرّاً ، ولو أن رجُلاً بالمشرقِ فكُشِفَ عنها بالمغرب لخرجَ دماغهُ من مِنْخَرَيهِ من شدَّة حرِّها.

والطبقُ الأول : جهنَّم ، فيه أهلُ القِبلَةِ مِن أهلِ الكبائر إذا ماتوا غيرَ تائبين. الثاني : لَظَّى ، وفيه النَّصارَى. والثالثُ : الْحُطَمَةُ ، وفيه اليهودُ. الرابعُ : السَّعِيرُ ، وفيه الْمَجُوسُ. الخامسُ : سَقَرُ ؛ وفيه المشركين وأهلِ الأهواء المختلفة ، السادسُ : الْجَحِيمُ ، وفيه الصَّابئُونَ والزنادقةُ ، السابعُ : الْهَاوِيَةُ ، وفيه المنافقونَ ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ }.

(٠/٠)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } ؛ أي المتَّقين للمعاصي بالإيمان والطَّاعة في بساتينَ وأنْهارٍ ظاهرةٍ تنبعُ مثلَ الفَوَّارَاتِ ، وتجري بلا أُخدودٍ ، يقالُ لهم يومَ القيامة : { ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ } ؛ ادخلُوا الجنةَ بسلامٍ ؛ أي سلامٍ من الآفَاتِ ، وَقِيْلَ : بتحيَّة من اللهِ ، { آمِنِينَ } ، من كلِّ ما تكرَهُون.

(٠/٠)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ } ؛ أي نزَعنا ما في صدور أهل الجنَّة من أسباب العداوةِ من الحقد والحسَدِ والتباغُض ، { إِخْوَاناً } ؛ أي حتى يصِيروا بمنْزِلة الإخوان ، { عَلَى سُرُرٍ } ؛ من ذهبٍ ، { مُّتَقَابِلِينَ } ؛ في الزيادةِ تسيرُ بهم سُرُرُهم في الجِنَانِ ، بعضُها إلى بعضٍ ، والسُّرُرُ جمع سَرِيرٍ. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قالَ : (إنِّي لأَرْجُو أنْ أكُونَ أنَا وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذينَ قَالَ اللهُ { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ }).

(٠/٠)

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ } ؛ أي لا يُتعِبُون أنفُسَهم في طلب العيش ، { وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ } ؛ ولا يخافون الإخراجَ منها أبداً ، شبابٌ لا يَهرَمُون ؛ أصحاءٌ لا يَسقَمُونَ ؛ أحياءٌ لا يَموتون.

(٠/٠)

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } ؛ أي أخْبرْ عِبادي أنِّي أنا الغفورُ لذنوب مَن تابَ ، الرحيمُ لِمَن ماتَ على التوبةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ } ؛ لِمَن استحقَّهُ.

(٠/٠)

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } ؛ أي أخبرهُم عن أضيافِ إبراهيمَ وهم الملائكةُ ، إلاّ أنه قالَ (عن ضَيْفِ) لأن الضيفَ مصدرٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

(٠/٠)

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } ؛ أي قالَ لهم إبراهيم حين لم يَطعَمُوا من طَعَامِهِ : إنَّا منكم فَزِعُونَ ، والوَجَلُ : هو الفزعُ ، { قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ } ؛ أي لا تَخَفْ ، { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ } ؛ بمولودٍ إذا وُلد كان غُلاماً ، وإذا بَلَغَ كان عَليماً ، { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي } ؛ بالولدِ ، { عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ } ؛ بالشَّيب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبِمَ تُبَشِّرُونَ } ؛ قالَ هذا على جهة التعجُّب. وَقِيْلَ : أراد فتُبشِّرون بهذا من عندِ الله ، أو من تلقاءِ أنفُسِكم. { قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ } ؛ أي بأمرِ الله ، فإنَّ أمرَ اللهِ لا يكون إلا حقّاً ، { فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ } ؛ من رحمةِ الله ، ثم { قَالَ } ؛ لَهم : كيف أقنطُ من رحمةِ الله ، { وَمَن يَقْنَطُ } ؛ منها ، { مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ }.

(٠/٠)

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ } ؛ أي ما شأْنُكم أيُّها المرسَلون ؛ لأنَّهم رسُل اللهِ ، { قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى } ؛ أي لهلاكِ ، { قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ } ؛ وهم قومُ لوطٍ.

(٠/٠)

إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ آلَ لُوطٍ } ؛ أي إلاّ خاصَّةَ الذين آمَنوا به ، { إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ من الهلاكِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } ؛ استثناءٌ من الهاءِ والميمِ ، وكانت امرأتهُ منافقةً واسمها وَاعَلَة ، فقُدِّرَ عليها الهلاكُ ، والغابرُون هم الباقون في موضعِ العذاب.

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ } ؛ أي لما جاءَ الملائكةُ آلَ لوطٍ ، { قَالَ } ؛ لهم لوطُ : { إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ } ؛ وإنما قالَ لهم ذلك ؛ لأنَّهم جاؤهُ على هيئةٍ وجَمال لم يكن قد شاهدَ مِثلَهم في الجمالِ ، وكان يعلمُ طلبَ قومه لأمثالهم ، فخافَ عليهم منهُم فقالَ : إنَّكم قومٌ أُنْكِرُ مجيئَكم إلَيَّ في هذه الديار ، { قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ } ؛ أي بالعذاب الذي يكونُ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ } ؛ بأمرٍ من اللهِ ، { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } ؛ في ذلكَ.

(٠/٠)

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيلِ } ؛ أي ببَعضِ من اللَّيلِ عند السَّحَر ، { وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ } ؛ أي كُن فيمَن يسيرُ خلفَهم ؛ كي لا ينالَهم العذابُ ، وقوله تعالى : { وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ } أي لا يتخلِفْ في موضعِ الهلاك ، وَقِيْلَ : لا يلتفِتْ إلى شيءٍ يخلِّفهُ ؛ أي لا يعرِجْ على شيءٍ ، { وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ } بالمضيِّ إليه وهو صفد.

(٠/٠)

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ } ؛ أي وأوحَينا إليه ذلك الأمرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ } ؛ في موضعِ نصبٍ بدل مِن قوله (ذلِكَ الأَمْرَ) ، وَقِيْلَ : في موضع خفضٍ ؛ لأن المعنى بأنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ ، وقَطْعُ الدَّابرِ هو الإتيان على آخرِهم بالهلاكِ حتى لا يبقَى منهم أحدٌ. وقولهُ تعالى : { مُّصْبِحِينَ } ؛ أي مُستأصَلون عندَ الصَّباح ، ولا يبقَى لهم نسلٌ ولا عَقِبٌ.

(٠/٠)

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ } ؛ أي أهلُ مدينة قومِ لوط وهي سَدُوم ، يبَشِّرُ بعضُهم بعضاً بأضيافِ لوط لعمَلِهم الخبيثِ ، فإنَّهم كانوا يُجَاهِرُونَ بهذه الفاحشةِ ، وقال لَهم لوطُ : { قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ في الحرامِ ، { وَلاَ تُخْزُونِ } ؛ ولا تُذِلُّون في أمرِي ، { قَالُواْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ } ؛ أي عن ضيافةِ الغُرباء.

(٠/٠)

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ هَؤُلآءِ بَنَاتِي } ؛ أُزَوِّجُكُموهُنَّ ، { إِن كُنْتُمْ } ؛ لا بدَّ ، { فَاعِلِينَ } ؛ مثلَ هذا الفعلِ ، وذلك أنه لم يَجِدْ ما يتَّقِي به أضيافَهُ أبلغَ من عَرضِ بناته عليهم للتزويجِ ، وافتداءِ ضَيفهِ ببناتهِ في الشَّفاعة ، وقد كان عَلِمَ أنَّهم لا يرغبون في التزويجِ. وَقِيْلَ : أرادَ بقولهِ (بَنَاتِي) بناتِ قَومِي ؛ لأن نساءَ أُمَّة كلِّ نبيٍّ بمنْزِلةِ بناتهِ في نفقته عليهنَّ.

(٠/٠)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } ؛ هذا قسَمٌ بحياةِ نبيِّنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ، ولم يُقسِمْ بحياة أحَدٍ غيرِهِ ، تقديرهُ : لعَمرُكَ قَسَمِي ، إلاَّ أنه حُذفَ الخبرَ ، وجوابهُ : إنَّهم لَفِي غَفْلَتِهم يتحيَّرون.

(٠/٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ } ؛ أي وقتَ الإشراقِ ، وذلك أنَّ الملائكةَ قلَعُوا مَدائِنَهم وقتَ الصُّبح ، فرفَعُوها إلى قريبٍ من السَّماء ، ثم قلَبُوها عند طلوعِ الشمس ، وصاحَ بهم جبريلُ حينئذٍ ، { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ } ، وقد تقدَّم تفسيرُ باقي الآيةِ في سورة هودٍ.

(٠/٠)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } ؛ أي في إهلاكِ قومِ لوط لآياتٍ للمتفرِّسِين ، والمتوسِّمُون هم النُّظَّارُ المثبتون في نَظَرِهم حتى يعرفوا حقيقةَ السِّمَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ } ؛ أي إنَّ قَرياتِ قومِ لوط لبطَرِيقٍ واضحٍ ولا يندرسُ ولا يخفَى على طريقِ قُومِكَ إلى الشَّام ، والمعنى أن الاعتبارَ بها ممكنٌ. وقولهُ تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي لدلالةً للمؤمنين الذين يصدِّقون بذلك.

(٠/٠)

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ } ؛ أي وقد كان أصحابُ الأيْكَةِ وهو قومُ شُعَيبٍ لَظَالمين بكُفرِهم ، والأيْكَةُ : الشَّجرُ الملتف الكبيرُ ، وكان شُعيب بُعِثَ إلى قَومَين ، إلى أهلِ مدينَ كانوا يطفِّفون الكيلَ والوزنَ فأُهلِكوا بالصَّيحة ، وبُعث إلى أصحاب الأيكةِ فأُهلِكُوا بالظُّلّةِ.
ويقالُ : إن مَديَنَ والأيكة واحدٌ ، كانت الأيكةُ عند مِديَن ، فخرَجُوا من مديَن إليها يطلبون الرُّوح عندَها ، فأخذهم عذابُ يوم الظُّلةِ ، واضطرمَ المكانُ عليهم نَاراً فهَلَكوا عن آخرِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ } ؛ أي بالعذاب ، { وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ } ؛ أي إن قريَات لوطٍ ومواضعِ شُعيب لعلَى طريقٍ مُبين.

(٠/٠)

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ } ؛ أي ولقد كذبَ قومُ صالحٍ ومَن تقدَّم من المرسَلين ، والْحِجْرُ ديارُ ثَمُودٍ ، وإنما سُمُّوا أصحابَ الحجرِ ؛ لأن الحجرَ اسمٌ لوادٍ كانوا يسكُنون عندَهُ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا } ؛ يريدُ الناقةَ ، { فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ }.

(٠/٠)

وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ } ؛ أي يَنقُبُونَ بيوتَهم في الجبالِ آمِنِينَ من الموتِ لطُولِ أعمارِهم ، وَقِيْلَ : من الحرِّ وسقُوطِ السَّقفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ } ؛ أي وقتَ الصُّبح صاحَ بهم جبريلُ فهلَكوا ، { فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ } ؛ من عذاب الله ، { مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ؛ من الأموالِ.

(٠/٠)

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ } ؛ أي للحقِّ وإظهارِ الحق لم نخلُقْهما عَبَثاً ، { وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ } ؛ يعني القيامةَ لِمُجازَاةِ الناسِ كلِّهم ، { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } ؛ أي أعرِضْ عن مُجازَاةِ المشركين وعن مجاوبَتِهم ، فإنَّ مجاوبةَ السَّفيه سَفَهٌ ، قال مجاهدُ : (هَذا مَنْسُوخٌ بآيَةِ الْقِتَالِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ } ؛ أي الخالقُ للإنسان ، العالِمُ بتدبيرِ خَلقِهِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } ؛ أي أكرَمناكَ يا مُحَمَّدُ بسبعٍ من

الْمَثَانِي ، قِيْلَ : هي السبعُ الطِّوالُ ، وهي السورُ السبع من أوَّلِ البقرةِ إلى الأنفالِ والتوبةِ ، وهما جميعاً سورةٌ واحدة ، وسُميت هذه السورةُ مَثَانِيَ ؛ لأنَّهُ ثَنَّى فيها الأقاصيصَ ، والأمر والنهيَ ، والوعيد ، والْمُحكَمَ ، والمتشابهَ.

وقال ابنُ عبَّاس : (السَّبْعُ الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَاب) هكذا رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : " مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ مِثْلَ فَاتِحَةِ الْكِتَاب ، وَإِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي ".

وإنما سُمِّيت هذه السورةُ مَثَانِيَ ؛ لأنَّها تُثْنَى في كلِّ صلاةٍ. وإنما خَصَّ هذه السورةَ من جُملةِ القرآن تَعظيماً لها ؛ لأن كمالَ الصلاةِ متعلَّقٌ بها ، كما خصَّ جبريلَ وميكائيل من جُملة الملائكةِ تَعظيماً لهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } ؛ أي وآتيناكَ القرآن العظيمَ.

(٠/٠)

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ } ؛ أي لا تَنْظُرَنَّ بعَينِ الرَّغبةِ إلى ما أعطَينا من الأموالِ رجَالاً من بني قُريظة والنَّضير وغيرِهم من قُريش ، فإنَّ ما نُعطيكَ من النبوَّةِ والقرآن أعظمُ مما أعطَيناهم من الأموالِ ، { وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } ؛ بما أنعَمْنا عليهم من ما لَم نُنعِمْ به عليكَ.

ويقالُ : لا تحزَنْ على هلاكِهم إن لَم يُؤمِنوا ، وهذا القولُ أقربُ ؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان لا يجوزُ أن يَحْسِدَ أحداً بما أنعمَ اللهُ به عليهِ من نَعيمِ الدُّنيا ، وإنما كان يحزنُ على إصرارِهم على الكُفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي تواضَعْ ، وألِنْ جناحَكَ للمؤمنين ؛ لكي يتَّبعْكَ الناسُ على دِينِكَ ، ولا ينفِرُوا من عندِكَ.

(٠/٠)

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ } ؛ أي الْمُعَلْمُ بموضعِ المخافة ، الْمُبينُ لكم بلُغةٍ تصدِّقونَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ } ؛ قال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ كَمَا أَنْزَلْنَا

عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى). سَمَّاهم مُقتَسِمينَ ؛ لأنَّهم اقتَسَموا كُتُبَ اللهِ تعالى ، فآمَنُوا ببعضِها وكَفَرُوا ببعضِها ، وهمُ ، { الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ } ؛ أي فرَّقوهُ فآمَنُوا ببعضهِ وهو ما وافقَ دينَهم ، وكفَرُوا ببعضهِ وهو ما خالفَ دينهم ،

وقال بعضُهم : رهطٌ من أهلِ مكَّة ، قال مقاتلُ : (سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلاً بَعَثَهُمُ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغِيرَةِ أيَّامَ الْمَوْسِمِ ، فَاقْتَسَمُواْ الأعْقَابَ ، وَقَعَدُواْ عَلَى طَرِيقِهَا ، فَإذا جَاءَ الْحُجَّاجُ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ : لاَ تَغْتَرُّوا بهَذا الْخَارِجِ مِنَّا الْمُدَّعِي النُّبُوَّةَ فَإنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى عَلَى طَرِيقٍ أُخْرَى : إنَّهُ كَاهِنٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى : شَاعِرٌ ، وَالْوَلِيدُ قَاعِدٌ عَلَى بَاب الْمَسْجِدِ نَصَّبُوهُ حَكَماً ، فَإذا سُئِلَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : صَدَقَ أُوْلَئِكَ يَعْنِي الْمُقْتَسِمِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ } هم هؤلاءِ المقتَسِمين جَزَّءُوا القرآن ، فقالَ بعضُهم : سحرٌ ، وقال بعضهم : كَذِبٌ ، وقال بعضُهم : شِعرٌ ، وقال بعضُهم : أساطيرُ الأوَّلين ، وقال بعضُهم : مُفترَى. ومعنى التَّعْضِيَة : التفريقُ ، يقالُ : عَضَيْتُ الشيءَ إذا فرَّقتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ أي في الآخرةِ ، { عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ مِن تفريقِ القرآن ، وصَرفِهم الناسَ عن دينِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

وعن أنسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي هذهِ الآية قالَ : " فَوَرَبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ قَوْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ " وَقَالَ عبدُالله : (وَالَّذِي لاَ إلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْكُمْ أحَدٌ إلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا عَمِلْتَ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا أجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ).

واعترضت الْمُلْحِدَةُ على هذه الآيةِ ، وعلى قولهِ تعالى{ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ }[الرحمن : ٣٩] وحكَمُوا عليهم بالتناقُضِ!

والجوابُ : إنه لا يقالُ لهم هل عملتم كذا ؛ لأنه أعلَمُ بذلكَ منهم ، ولكن نقولُ لَهم : لِمَ عملتم كذا ، وقال قطربُ : (السُّؤَالُ عَلَى ضَرْبَيْنِ : سُؤَالُ اسْتِعْلاَمٍ وَاسْتِخْبَارٍ ، وَسُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَتَوْبِيخٍ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ }[الرحمن : ٣٩] يَعْنِي لاَ يَسْأَلُهُمْ سُؤَالَ اسْتِخْبَارٍ ؛ لأنَّهُ عَالِمٌ قَبْلَ أنْ يَخْلِقَهُمْ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } سُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَتَقْرِيعٍ).

(٠/٠)

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } ؛ أي أظهِرْ أمرَكَ بمكَّة واترُكهم حتى يجيءَ

أمرُ الله بقتالهم ، وكان صلى الله عليه وسلم مُستَخفياً بمكَّة قبلَ نزولِ هذه الآيةِ ، لا يظهرُ شيئاً مما أنزلَ الله عليه ، فلما نزلت هذه الآيةُ أظهرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمرَهُ وأعلنه بمكَّة.

(٠/٠)

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } ؛ بكَ ، { الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلاهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } ؛ وهم خمسةُ نَفَرٍ أهلكَهم اللهُ في يومٍ واحد ، منهم العاصُ بن وائلٍ ، نزلَ شِعباً من ذلكَ الشِّعاب ، فلمَّا وضعَ قدمَهُ على الأرضِ قال : لُدِغْتُ ، فطلَبُوا فلم يجدوا شيئاً ، فانتفَخَت رجلهُ حتى صارَت مثل عنُقِ البعيرِ فماتَ مكانَهُ.
ومنهم الحارثُ بن قيسٍ أكلَ حُوتاً مالحاً فأصابَهُ عطشٌ شديد فلم يزل يشربُ حتى انقدَّ مكانه فماتَ.
ومنهم الأسودُ بن عبدِالمطلب بن الحارث ، قعدَ إلى أصل شجرةٍ ، فجعلَ جبريل يضربُ رأسَهُ على الشَّجرة حتى ماتَ ، وكان يستغيثُ بغُلامهِ ، فقال غلامهُ : لا أرَى أحداً صنعَ بكَ شيئاً غيرَ نفسِكَ.
ومنهم الأسودُ بن عبدِ يَغوث خرجَ من أهلهِ فأصابه السَّمُومُ فاسودَّ حتى صارَ حَبَناً ، واتَى أهلَهُ فلم يعرفوهُ فأغلقوا دونه البابَ حتى ماتَ.
ومنهم الوليدُ بن المغيرةِ خرجَ يتبَختَرُ في مِشْيَتِهِ حتى وقفَ على رجُلٍ يعملُ السِّهامَ ، فتعلَّقَ سهمٌ بثوبهِ فجعل رداءَهُ على كَتِفِهِ فأصابَ السهمُ أكحلَهُ فقطعه ، ثم لَم ينقطعْ عنه الدمُ حتى ماتَ ، فذلك قوله { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } أي بكَ وبالقرآنِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } ؛ أي ولقَدْ نعلمُ يا مُحَمَّد أنَّكَ يضيقُ صدرُك بما يقولون من التكذيب بأنَّكَ شاعرٌ وساحر وكاهن ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ؛ أي فَصَلِّ بأمرِ ربكَ ، واحمدْهُ بالثَّناءِ عليه ، { وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ } ؛ أي مِنَ العابدين لله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْبُدْ

رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } ؛ أي استقِمْ على عبادةِ ربكَ وطاعتهِ حتى يأتيكَ الموتُ ، سَمَّاهُ يَقيناً ؛ لأنه مُوقِنٌ به.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ أنْ أجْمَعَ الْمَالَ وَأكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ ، وَلَكِنْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أنْ أُسَبحَ بحَمْدِ رَبي وَأكُونَ مِنَ السَّاجِدِين " ، وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } أيْ قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَبحَمْدِهِ ، { وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ } أي الْمُصَلِّينَ ، فَكَانَ صلى الله عليه وسلم إذا حَزَّ بِهِ أمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلاَةِ(.

وعن أُبَي بن كعبٍ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْحِجْرِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ ، وَبعَدَدِ الْمُسْتَهْزِئِينَ برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ".

(٠/٠)

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } [القمر : ١] قَالَ الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إنْ يَزْعُمْ أنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَرُبَتْ ، فَأَمْسِكُواْ عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حَتَّى نَنْظُرَ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَمَّا رَأواْ أنَّهُ لاَ يُنْزِلُ شَيْئاً قَالُواْ : مَا نَرَى شَيْئاً ، فَأَنْزَلَ اللهُ{ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ }[الأنبياء : ١] ، فَانْتَظَرُواْ قُرْبَ السَّاعَةِ ، فَلَمَّا امْتَدَّتِ الأَيَّامُ قَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ مَا نَرَى شَيْئاً تُخَوِّفُنَا بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } فَوَثَبَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لاَ يَشُكُّ أنَّ الْعَذابَ قَدْ أتَى ، فَقَالَ اللهُ { فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } يَعْنِي الْعَذابَ ، فَجَلَسَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم).

وأما ذِكرُ لفظِ الإتيان في هذا ؛ فلأنَّ أمرَ اللهِ في القُرب بِمنْزِلَةِ ما قد أتَى ، كما قالَ تعالى : { وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ }[النحل : ٧٧]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ أي تنزيهاً له تعالى بصفات المدحِ عمَّا يشركون بهِ من الأصنَامِ.

(٠/٠)

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } ؛ أي ينَزِّلُ الملائكةَ بالوحيِ ، { عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ

عِبَادِهِ } ؛ قرأ الأعمشُ (يَنْزِلُ) بفتح الياء وجزم النون وكسرِ الزَّاي ، قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي بالْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيلَ وَحْدَهُ) ، ويسمَّى الوحيُ رُوحاً ؛ لأنَّهُ تَحْيَا به القلوبُ والحقُّ ، ويموتُ الكفرُ والباطلُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنْ أَنْذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ } ؛ أي أنْ أعلِمُوا بالتَّخويفِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، { فَاتَّقُونِ } ؛ أي فاتَّقوا المعاصيَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنْ أَنْذِرُواْ } في موضعِ النصب بنَزعِ الخافضِ ؛ أي بأنْ أنذِرُوا.

(٠/٠)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ } ، أي ليُستَدَلَّ بهما على توحيدِ الله ، وليُعمَلَ بالحقِّ ، { تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ مِن أن يكون له شريكٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَ فِي أُبَيِّ بْنِ خَلَفِ الْجَمْحِيِّ حِينَ قَالَ{ مَن يُحيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }[يس : ٧٨]. والمعنى : خلَقَ الإنسانَ من نُطفَةٍ مُنْتِنَةٍ وأنعمَ عليه حَالاً بعد حالٍ إلى أن أبلغَهُ الحالةَ التي تخاصِمُ عن نفسهِ ، فيُنكِرُ إعادتَهُ بعد موتهِ.

(٠/٠)

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا } ؛ أي وخلَقَ لكم الأنعامَ ، وهي ذواتُ الْحِقَافِ والأظْلاَفِ دون الحوَافِرِ. وقولهُ تعالى : { لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ } ؛ أي مل يُدَفِّيكُمْ من أصوافِها وأوبَارِها من الأكْسِيَةِ ونحوها ، ومِن القَلاَنِسِ واللِّحَافِ ، ومنافعُ أُخَرَ من ألبانِها ونَسْلِها ، والرُّكوب والحمل عليها ، والفُرُشِ والبيوت من أصوافِها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } ؛ يعني لُحومَها.

(٠/٠)

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } ؛ أي ولكم فيها منظرٌ حَسَنٌ ، يقالُ : هذه مَوَاشِي فلان ، فيكون له في ذلك جمالٌ ، قال قتادة : (وَذلِكَ أعْجَبُ مَا يَكُونُ إذا رَاحَتْ عِظَاماً ضُرُوعُهَا طِوَالاً أسْنِمَتُهَا) ، وقولهُ تعالى : { حِينَ تُرِيحُونَ } أي حين تُرِيحونَها في العَشِيِّ مِن مراعيها إلى مَبَارِكِهَا التي تَأْوي إليها ، { وَحِينَ تَسْرَحُونَ } أي تَخرُجون بها بالغَدَاةِ من مَرَاحِهَا إلى مَسَارِحِهَا.

(٠/٠)

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ } ؛ أرادَ به الإبلَ تحملُ أمتِعتَكم وزادَكم ، وما يَثْقُلُ عليكم إلى بلدٍ قصدتُموه للحجِّ إلى مكَّة ، أو تجارةٍ إلى سائرِ البُلدان ، لولاَ الإبلُ لكان لا يمكِنُكم بلوغُ تلكَ البلدِ إلا بجَهْدٍ ومشَقَّة. وقولهُ تعالى : { إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي مُتَفَضِّلٌ مُنْعِمٌ عليكم.

(٠/٠)

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً } ؛ أي وخلَقَ لكم الخيلَ والبغال والحميرَ ؛ لتَركَبوها وتتزَيَّنوا بها زينةٌ ، فيحصلُ لكم منافعُها ، وحُسْنُ منظَرِها للناسِ ، كما قال تعالى : { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }[الكهف : ٤٦]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } ؛ أي يخلقُ أشياءَ لا تَعرِفُونَها لم يُسَمِّها لكم.

رُوي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " " إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ أرْضاً بَيْضَاءَ مِثْلَ الدُّنْيَا ثَلاَثِينَ مَرَّةً مَحْشُوَّةً خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ ، لاَ يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ " قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ أمِنْ وَلَدِ آدَمَ هُمْ ؟ قَالَ : " ما يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ؟ " قَالُواْ : فَأَيْنَ إبْلِيسُ عَنْهُمْ ؟ قَالَ : مَا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ

إبْلِيسَ " ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } "
وهذه الآيةُ مما يُستَدلُّ بها على كراهيةِ لحم الخيلِ على مَذهب أبي حنيفةَ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في الأنعامِ{ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ }[النحل : ٥] ولم يذكُرْ في آيةِ الخيل والبغال إلا الركوبَ والزينةَ.

(٠/٠)

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ } ؛ أي وعلَى اللهِ بينُ الهدى والضَّلالة ليُتَّبَعَ الهدى وتُجْتَنَبَ الضَّلالةُ ، كما قالَ تعالى : { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }[الانسان : ٣] ، وقال تعالى : { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }[الشمس : ٨]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْهَا جَآئِرٌ } أي مِن الطُّرُقِ ما هو عادلٌ عنِ الحقِّ ، قال : يعني اليهوديَّةَ والنصرانية والمجوسية ، وقال ابنُ المبارك : (يَعْنِي الأَهْوَاءَ وَالْبِدَعَ). قولهُ : { وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ إلى جنَّتِهِ وثوابِهِ ، ولأرشدَكم كلَّكم.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ } ؛ مثل البرَكِ والغُدْرَان ، ولكم ، { وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } ؛ تَرْعَونَ أنعامَكم ، يعني الكَلأَ والأشجارَ التي ترعاهُ الإبلُ.

(٠/٠)

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ؛ تسخيرَ الليل والنَّهار ، مَجيءَ كلِّ واحدٍ منهما عَقِبَ الآخرِ بتقديرِ اللهِ ؛ لينصرفَ الناسُ في معايشِهم بالنَّهار ، ويَسكنُوا بالليلِ ، وتسخيرَ الشمسِ والقمر والنُّجوم مجيئهُ بها في أوقاتٍ معلومة.

(٠/٠)

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي وسخَّرَ لكم ما خَلَقَ في الأرضِ من الدواب والأشجار وغيرها ، { مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ } ، ومناظِرهُ وصُوَرُهُ ، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } ؛ دلائلَ اللهِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً } ؛ يعني السَّمَكَ ، { وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } ؛ وهو العرضُ لاستخراجِ اللُّؤلؤ والْمَرْجَانِ لتلبسَهُ نساؤُكم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ } ؛ أي وترَى السُّفن في البحرِ مقبلةً ومُدبرةً تشقُّ الماءَ يَميناً وشِمالاً ، يقالُ : مَخَرَتِ السفينةُ البحرَ ، إذا جَرَتْ جَرْياً شقَّت الماءَ شَقّاً ، والْمَخْرُ صوتُ هُبُوب الرِّيح

، والسفينةُ تجري بالرِّيح ، فسُمِّيت السفينةُ مَوَاخِرَ ، والواحدة مَاخِرَةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ يعني لتركَبوهُ للتِّجارةِ ، فتطلبوا الربحَ من فضلِ الله لكي تشكُروا نِعَمَهُ.

(٠/٠)

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ } ؛ أي وجعلَ فيها جِبَالاً عاليةً يابسةً لئَلاَّ تحركَ بكم الأرضُ وَ ؛ أجرَى فيها ، { وَأَنْهَاراً } ، مثلَ النِّيل والفُرات ودِجلَةَ وسِيحُونَ وجِيحُون ، وَجعلَ فيها ، { وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } ، طُرُقَ منافعكم ؛ لكي تَهتَدُوا إلى الموضعِ الذي تقصدونَهُ.

(٠/٠)

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } ؛ أي جعلَ في الأرضِ أعْلاَماً للمسافرين من الجبالِ وغيرِ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } معناهُ : إنَّ مَن يسيرُ بالليلِ فإنَّما يهتدِي إلى الطُّرُقِ في البرِّ والبحرِ بالنُّجوم مثل الثُّريا وبنات نَعْشٍ والفرقَدين ، يهتدي بها إلى القِبلة والطُّرق.

(٠/٠)

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ } ؛ أي أفَمَن يخلقُ هذه الأشياءَ وهو اللهُ تعالى كمَن لا يقدرُ أن يخلقَ شيئاً وهي الأصنامُ ، { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } أنَّهما لا يَستويان في استحقاقِ العبادة.

(٠/٠)

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَآ } ؛ يعني إذا أردتُّم أن تُعَرِّفوا بفاضلِ نِعَمِ الله عليكم في الخلقِ والرِّزق والتمكُّن من الأمور في الدُّنيا لم تقدرُوا على إحصاءِ هذه النِّعم ، { إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ } ؛ لذُنوب عباده إذا تابُوا ، { رَّحِيمٌ } ؛ بهم بالإمهالِ إلى وقت التَّوبة.

(٠/٠)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ يعني الأصنامَ ، { لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } ؛ واللهُ تعالى هو الخالقُ لَها. قولهُ : { أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ } ؛ يعني الأصنامَ ، والمعنى : كيفَ تخلقُ شيئاً ، وهي أمواتٌ لا روحَ لها.
وإنما جَمَعَ بين قولهِ { أَمْواتٌ } وبينَ قولهِ { غَيْرُ أَحْيَآءٍ } لأنه يقالُ : فلانٌ ميِّتٌ وإنْ كان حيّاً ، إذا كان لا يُنتَفَعُ بهِ ، فكأنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنه لَم يُسَمِّ الأصنامَ أمواتاً من حيث أنه لا ينتفعُ بها ، ولكن لأنه لا حياةَ فيها ، فكيف يعبُدون ما لا يخلقُ وما لا يرزقُ ولا ينفع ، وهو مع ذلك مِن الأمواتِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } ؛ أي وما تشعرُ الأصنامُ متى يُبْعَثُ الناسُ من القبور فيُحاسَبون ، فكيف يرجُو الكفارُ الجزاءَ من قِبَلِ الأصنامِ ، و(أيَّانَ) كلمةُ اختصارٍ أصلُها (أيَّ) و (أنَّ).

(٠/٠)

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاهُكُمْ إِلاهٌ وَاحِدٌ } ؛ وهو عَزَّ وَجَلَّ ، { فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ } ؛ للحقِّ ، { وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ } ؛ وهم مُتَعَظِّمُونَ عن قَبولِ الحقِّ أنَفةً مِن اتِّباعهِ واتِّباعِكَ.

(٠/٠)

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } ؛ أي حقّاً إنَّ اللهَ يعلمُ سِرَّهم وعلانِيَتَهم ، { إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ }.

(٠/٠)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ } ؛ أي إذا قِيْلَ لهؤلاءِ الكفار : ما الذي يدَّعِي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أنه يَنْزِلُ عليهِ مِن اللهِ ، { قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } أي الذي تذكُرون أنه مُنْزِلُ كلامِ الأولين ، وما يسطِّرون في كتُبِهم من الأخبار والأقاصيصِ.

(٠/٠)

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ } ؛ أي آثامَهم ، { كَامِلَةً } ، أي وافرةً ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ؛ ليَحمِلُوا ، { وَمِنْ أَوْزَارِ } ؛ أي آثامِ ، { الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ } ، يصرِفونَهم عن مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقرآنِ ، { بِغَيْرِ عِلْمٍ } ، بلا عِلْمٍ ولا حجَّة ، يعني يكونُ عليهم إثْمُ إضلالِهم غيرَهم لا أن يحملون ذنوبَ غيرِهم ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }[الأنعام : ١٦٤]. وقوله تعالى : { أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } ؛ ظاهر المعنى.

(٠/٠)

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ } ؛ أي قد مَكَرَ الذين من قَبْلِ هؤلاءِ بأنبيائهم ، كما مَكَرَ هؤلاء المقتَسِمون الذين اقتَسَمُوا أعقابَ مكَّة ؛ ليصُدُّوا الناسَ عن دينِ الله ، فأتَى اللهُ بُنيَانَ أولئكَ مِن القواعدِ بالعذاب ، { فَخَرَّ } ، فوقعَ ، { عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ } ؛ الهدمُ والاستئصالُ ، { مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ } ؛ بإتيانِ العذاب منهُ.
وقد اختَلفُوا في هؤلاءِ الذي خَرَّ عليهم السقفُ ، قال بعضُهم : هو نَمرُودُ بن كَنعان الذي بَنَى صَرْحاً طولهُ خمسُ آلافٍ وخمسون ذِرَاعاً ، وعرضهُ عرضُ ثلاثةِ آلاف وخمسون ذِرَاعاً ؛ ليصعدَ إلى السَّماءِ ، فوقعَ الصرحُ على الذي كانوا فيه ، وأهلَكَ اللهُ نمرودَ بالبَعُوضِ. وقال بعضُهم : هذا على وجهِ الْمَثَلِ ، فكأنه جعلَ أعمالَهم بمنْزِل البَانِي بناءً سَقَطَ عليهِ.

(٠/٠)

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } ؛ تُشرِكُونَهم معي في العبادةِ ، وقولهُ تعالى : { قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ } ؛ أي قالَ المؤمنون : { إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ } إنَّ الذُّلَّ اليومَ والهوانَ على الكافرين ، { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } تقبضُ أرواحَهم في حالِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالكفر ، { فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ } ، واستَسلَمُوا وانقادوا للمذلَّةِ والهوانِ ، يقولون : { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ } ؛ أي مِن معصيةٍ في الدُّنيا ، فيقول المؤمنون : { بَلَى } ؛ قد فَعَلتُمْ ذلكَ ، { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ وتقولُ لهم خَزَنَةُ جهنَّمَ ، { فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } ؛ عن توحيدِ الله وعبادته.

(٠/٠)

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ مَكَّةَ لَمَّا بَعَثُواْ إلَى أعْقَاب مَكَّةَ رجَالاً ؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللهِ ، بَعَثَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم رجَالاً مِنْ أصْحَابِهِ : عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ ، فَكَانَ وَافِدُ النَّاسِ إذا قَدِمَ فَرَدَّهُ الْكُفَّارُ عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وعَنِ الإيْمَانِ ، سَأَلَ أصْحَابُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : (مَاذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُواْ : خَيْراً أيْ أنْزَلَ حَقّاً وَصَوَاباً).

وعلى هذا انتصبَ قولهُ (خَيْراً) ، وإنما ارتفعَ قولهُ في جواب المقتسِمين من كفَّار مكَّة (أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) لأنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بإنزالهِ ، بل كانوا يقولُون على جهةِ التكذيب هو أساطيرُ الأولين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هاذِهِ الْدُّنْيَا حَسَنَةٌ } ؛ أراد بالحسَنَةِ الثناءَ والمدحَ على ألْسِنَةِ المؤمنين ، وَقِيْلَ : للَّذين قالوا لا إلهَ إلا اللهُ يُضَعَّفُ لَهُ بعَشْرٍ ، { وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ } ؛ يعني الجنَّةَ خيرٌ مما يصِلُ إليهم في الدُّنيا ، { وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ }.

ثُم فسَّرَ دارَ المتَّقين فقال : { جَنَّاتُ عَدْنٍ } ؛ أي بساتِينُ إقامةٍ ، { يَدْخُلُونَهَا } ، يومَ القيامة ، { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا } ؛ أي من تحت أشجَارِها ، { الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ } ؛ كذلك تكون مجازاةُ الله ، { الْمُتَّقِينَ } ؛ للشِّرك والمعاصِي.

(٠/٠)

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } ؛ عند قبضِ أروَاحِهم ، { طَيِّبِينَ } ؛ أي زَاكِيَةٌ أعمالُهم متمسِّكِين بما أُمِرُوا به مجتَنِبِينَ لِمَا نُهُوا عنه ، طِّيبَةٌ أرواحُهم بما يُبَشَّرُونَ به من الجنَّة ، { يَقُولُونَ } ؛ أي يقولُ لهم الملائكة : { سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا.

(٠/٠)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ } ؛ أي ما ينظرُ أهلُ مكَّة في تكذيبهم للرَّسولِ واستبطائهم العذابَ ، إلاّ أن تأتيَهم الملائكةُ لقبضِ أرواحهم ، { أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ } ؛ بعذاب الاستئصال ، { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ هؤلاءِ الكفار من تكذيب الرُّسل مثلَ ما فَعَلَ هؤلاءِ فعذبَهم اللهُ { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ } ؛ بذلكَ ، { وَلاكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ؛ ظلَمُوا أنفُسَهم حيث فعَلُوا ما استوجَبُوا به العذابَ.

(٠/٠)

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ } ؛ أي عقابُ ما عَمِلوا ، أرادَ بالسَّيئات العقابَ كما قال تعالى : { وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا }[الشورى : ٤٠] { وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } ؛ أي وحلَّ بهم ما كانوا يستَهزِئُون به من العذاب.

(٠/٠)

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ } ؛ هذا نظيرُ الآيةِ التي في الأنعام{ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا

}[النحل : ١٤٨] قد تقدَّمَ تفسيرهُ ، يعني كفارَ أهلِ مكَّة.
وقولهُ تعالى : { كَذالِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ مِنَ الأُمَم الماضيةِ من تكذيب الأنبياء مثلَ ما فعلَ هؤلاءِ ، فلم يكن ذلك حجَّةً لَهم ، { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ } ؛ عنِ الله بلُغَةٍ يَعرِفونَها.
وقال بعضُهم : إنما قالوا هذا القولَ استهزاءً وسخرية كما قال قومُ شعيب : أَتَنهَانَا عمَّا كان يعبدُ آباؤنا.

(٠/٠)

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً } ؛ كما بعثناكَ رسُولاً في هؤلاءِ ، { أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الْطَّاغُوتَ } ؛ أي اجتَنِبوا الشيطانَ وعبادةَ كلِّ ما تعبدون مِن دون الله ، { فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ } أي الكفرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي في أرضِ الذين عاقَبَهم اللهُ ، { فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } ؛ أي كيف صارَ عاقبةُ مَكرِهم.

(٠/٠)

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ } ؛ أي إنْ تطلُبْ يا مُحَمَّد من جهتك هُداهم ، { فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ } ؛ أي يحكمُ عليه بالضَّلالة ، ومَن يُضْلِلْهُ اللهُ فلا يهدِي ولا يهتدي ، { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } ؛ أي مَن يدفعُ عنهم العذابَ.

(٠/٠)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ } ؛ أي حلفَ الكفارُ بالله مجتهدين في اليمينِ : أنه لا يبعثُ الله مَن يموتُ ، وقوله تعالى : { بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً } ؛ أي قُلْ : بلَى ، وَقِيْلَ : إنَّ اللهَ تولَّى الجوابَ بنفسهِ ، كأنه قال : لَيَبْعَثَهُمْ بعدَ الموتِ وَعْداً عليهِ.
انتصبَ قوله (حَقّاً) على المصدرِ ؛ أي وَعَدَ وَعْداً حَقّاً كأنَّما أوجبَهُ على نفسهِ ، { وَلاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أنه حقٌّ.

(٠/٠)

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ } ؛ معناهُ : يبعَثُهم لكي يُبَيِّنَ لهم ما يختلِفون فيه من الدِّين { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ } في الدُّنيا بأنْ لا جنةَ ولا نارَ.

(٠/٠)

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } أي إنَّما أمْرُنا في البعثِ وغيرهِ إذا أرَدْنا أن نقولَ له : كُنْ ؛ فيكونُ. مَن رفعَ (فَيَكُونَ) معناهُ : فهو يكونُ ، ومَن نصبَ فعلى جواب كُنْ ، وَقِيْلَ : عَطفاً على (أنْ يَقُولَ).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَصُهَيْبٍ وَبلاَلٍ وَأصْحَابِهِ الَّذِينَ هَاجَرُواْ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ مَا عَذبَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ).
والمعنَى : والذين هَجَروا أوطانَهم في طاعةِ الله ، وسَارُوا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم من بعدِ ما ظلَمَهم الكفارُ ، { لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } ، أرضاً كَرِيمَةً وهي المدينةُ بدلَ أوطانِهم ، { وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ } ؛ لَهم مما أعطينَاهم في الدُّنيا ، { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } يعلمُ الكفَّار.
ثُم وَصَفَهم فقال : { الَّذِينَ صَبَرُواْ } ؛ يعني على الشَدائِد والعبادات ، وصَبَروا عنِ الْمُحَرَّمَاتِ ، { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } في طلب الدِّين والدُّنيا.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ } ؛ نزلت جَواباً لأهلِ مكَّة حين قالوا : لو أرادَ اللهُ أن يبعثَ إلينا رسُولاً لبعَثَ رسولاً من الملائكةِ لا رجُلاً منَّا. ومعنى الآيةِ { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ } يا مُحَمَّدُ إلى الأُمَم الماضيةِ إلا رجَالاً أوحَينا إليهم كما أوحَينا إليكَ ، { فَاسْأَلُواْ } ؛ يا أهلَ مكَّة ، { أَهْلَ الذِّكْرِ } ؛ أي الكتاب ، { إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } ؛ أنَّ الرسُلَ كانت من البشَرِ.

(٠/٠)

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } ؛ راجعٌ إلى قولهِ تعالى{ نُّوحِي إِلَيْهِمْ }[النحل : ٤٣]. وَقِيْلَ : في هذا إضمارٌ كأنه قالَ : وأرسلنَاهم بالبيِّناتِ والزُّبُرِ. والبيناتُ : هي الدلالاتُ الواضِحَاتُ ، والزُّبُرُ : جمعُ الزَّبُور وهو الكتابُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ } ؛ أي القرآنَ ، { لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } ؛ الحلالَ والحرامَ والحقَّ والباطل ، { وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ فيهِ فيُؤمِنُوا بهِ.

(٠/٠)

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ؛ يَعْنِي الشِّرْكَ) ؛ وَقِيْلَ : معناهُ : أفأَمِنَ الذين مَكَروا في تكذيب الرُّسل وأذى المسلمين أنْ يخسفَ اللهُ بهم كما خَسَفَ بقارون ، { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ } ؛ موضعُ ، { لاَ يَشْعُرُونَ } أي لا يعلمونَ ، { أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ } ؛ أي في أسفَارِهم وتجارتهم وتصرُّفِهم ، { فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ } ؛ اللهَ على ما يريدُ إحلالَهُ بهم.

(٠/٠)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ } ؛ أي على تَنَقُّصٍ إما بقَتلٍ أو بمَوتٍ ؛ الأوَّلُ فالأولُ حتى يهلَكُوا عن آخرِهم ، رُوي عن عمرَ رضي الله عنه أنه قالَ : (مَا كُنْتُ أدْرِي مَا مَعْنَى (عَلَى تَخَوُّفٍ) حَتَّى سَمِعْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ : تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِدَا كَمَا تَخَوَّفَ عُودُ النَّبْعَةِ السَّفَنُوقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : أنْ يُخَوِّفَهُمْ بأَنْ يُهْلِكَ قَرْيَةً لِتَنْزَجِرَ قَرْيَةٌ أُخْرَى). وقولهُ تعالى : { فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي شديدُ الرَّحمة بتأخيرِ العذاب عن الكفَّار ، أو شديدُ الرحمةِ على مَن تابَ منهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ } ؛ أي من شَخْصٍ قائمٍ من شَجر أو إنسان أو نحوِ ذلك ، { يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ } ؛ أي يتَمَيَّلُ ظِلالهُ عن اليمينِ والشَّمائلِ ، إذا طلعَتِ الشمسُ وإذا غرَبت ، { سُجَّداً لِلَّهِ } ؛ أي مَيَلانُهَا أو دوَرَانُها من موضعٍ إلى موضعِ سجودُها ، فيسجدُ

الظلُّ غدوةً إلى أن يفيءَ الظلُّ ، ثم يسجدُ أيضاً إلى الليلِ. وفي هذا دليلُ توحيدِ الله تعالى ، قال الحسنُ : (أمَّا ظِلُّكَ فَيَسْجُدُ للهِ ، وَأمَّا أنْتَ فَلاَ تَسْجُدُ). قولهُ : { وَهُمْ دَاخِرُونَ } أي صَاغِرُون ذليلُونَ.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ } ؛ أي ما دبَّ على الأرضِ ، { وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ } ؛ أي ويخضع الملائكة وهم لا يتعظَّمون الخضوعِ له ، { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ } ؛ أي يخافونَ عقابَ ربهم من فوقِهم. وَقِيْلَ : يخافون ربَّهم خوفَ المقهورِ من القاهر ، فذكَرَ لفظَ فَوْقِ على هذا المعنى.
وقولهُ تعالى : { وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } ؛ يعني الملائكةَ لا يعصُونَ اللهَ ما أمَرَهم. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ للهِ مَلائِكَةً فِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ سُجُوداً مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ اللهِ ، وَتَجْرِي دُمُوعُهُمْ وَتَضْطَرِبُ أجْنِحَتُهُمْ ، لاَ تَقَطُرُ مِنْ دُمُوعِهِمْ قَطْرَةٌ إلاَّ صَارَتْ مَلَكاً قَائِماً ، فإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَقَالُواْ : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ".
وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ في هذه الآيةِ : (مَنْ سَجَدَ هَذِهِ السَّجْدَةَ إيْمَاناً وَتَصْدِيقاً ، أعْطَاهُ اللهُ بعَدَدِ الْمَلاَئِكَةِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ، وَقَطْرِ الْمَطَرِ وَنَبَاتِ الأَرْضِ وَتُرَابهَا وَرَمْلِهَا وَمَدَرِهَا ، وَبَعَدَدِ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ حَسَنَةً حَسَنَةً).

(٠/٠)

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إلاهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلاهٌ وَاحِدٌ } ؛ يجوزُ أن يكون قولهُ (اثْنَيْنِ)

تأكيداً لما سَبَقَ ، ويجوزُ أن يكون المعنى : لا تتَّخذوا اثنين إلَهين إنما اللهُ إلهٌ واحد ، { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } ؛ أي فَاخْشَوْنِ ولا تَخْشَوا أحَداً غيري ، { وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ ظاهرُ المعنى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً } ؛ أي دَائِماً ، وقوله تعالى (وَاصِباً) انتصبَ على القطعِ وإنْ كان فيه الوصفُ ، والوَصَبُ : شدَّةُ التَّعَب ؛ لأن اللهَ هو المستحقُّ أن يُعبَدَ في جميعِ الأوقات. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } ؛ إنكارٌ عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } ؛ ظاهرُ المعنى.
وقولهُ تعالى : { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } ؛ أي فإليه تتضرَّعون في كشفهِ ، والْجُؤَارُ في اللغة : رفعُ الصَّوتِ ، فكأنَّهُ قالَ : فإليه تَضُجُّونَ وَتَصِيحُونَ ، { ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } ؛ عادَ فريقٌ منكم إلى الشِّرك ، { لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ } ؛ أي ليجْحَدوا نعمةَ اللهِ في كشف الضرِّ عنهم. ثم أوْعَدَهُمْ فقالَ : { فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ؛ أي فتمتَّعوا في الدُّنيا ، فسوف تعلمونَ ما يحلُّ بكم من العقاب.

(٠/٠)

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)

قوله تعالى : { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمّا رَزَقْنَاهُمْ } ؛ أي ويجعلون للأصنامِ التي لا تعلمُ نَصيباً مما رزقناهم ، وهو ما كانوا يجعلونَ لها من السَّائبة والبَحِيرَةِ والْحَامِ وبعضِ الحرث. ويجوز أن يكون : { لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ } راجعاً إلى الكفارِ على معنى أنَّهم لا يعلَمون أنَّها تنفعُهم ولا تضرُّهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } ؛ قَسَمٌ بأن اللهَ يسألُهم في الآخرةِ عن افترائهم فيما جعلوهُ للاصنامِ.

(٠/٠)

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ } ؛ معناه : إنَّهم يقولون : إن الملائكةَ بناتُ الله ، وقوله تعالى { سُبْحَانَهُ } تَنْزِيهاً للهِ تعالى عما لا يليقُ به. وقولهُ تعالى : { وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ } ؛ أي ما يختارُون لأنفسِهم من البنين دونَ البناتِ.

(٠/٠)

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً } ؛ أي ظهرَ أثرُ كراهةِ الحزن على وجههِ من ذلك ، يقال لِمَن لَقِيَ مكروهاً : قَدِ اسْوَدَّ وجههُ غَمّاً وحُزناً وخَجلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ كَظِيمٌ } ؛ أي ممتلئ غَيظاً وغَمّاً يتردَّدُ حزنهُ في جوفهِ.

(٠/٠)

يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ } ؛ أي يختفِي من المبشِّرين له بذلكَ ومن جُلسائهِ من كراهةِ ما بُشِّرَ به من الأُنثى ، { أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ } ؛ أي أيحفظُ المبشَّرَ به على هَوْنٍ ومشقَّة ، والْهَوْنُ : الْهَوَانُ ، { أَمْ يَدُسُّهُ } ؛ أي يدفنهُ ، { فِي التُّرَابِ } ؛ حَيّاً كما كان في عادةِ العرب كان إذا وُلد لأحدهم أُنثى حفرَ لها حفرةً وألقاهَا فيها ودفَنَها حتى تَموتَ ، وهي الْمَوْءُدَةُ.
وأما لفظُ التذكيرِ في قوله { أَيُمْسِكُهُ عَلَى } فإنه راجعٌ إلى المبشَّر بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } ؛ أي ألاَ ساءَ ما يقضُونَ من اختيار البنين لأنفُسِهم ، وإضافةِ البنات إلى اللهِ وقَتلِ الْمَوْءُودةِ.

(٠/٠)

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ } ؛ أي لَهم صفةُ السُّوء من احتياجِهم إلى الولدِ ، وكراهيتهم الإناثَ خوف العار ، { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى } ؛ أي الصفةُ العليا وهي الأُلوهية والربُوبيَّة لم يلد

ولم يولَدْ ولم يكن له كُفُواً أحدٌ ، وقولهُ تعالى : { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ؛ أي الغالبُ الذي لا يقدرُ أحدٌ أن يغلبَهُ ، الحكيمُ في أمرهِ وتدبيره.

(٠/٠)

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ } ؛ أي بعقاب معاصيهم عاجلاً ، { مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا } ؛ أي على الأرضِ ، { مِن دَآبَّةٍ وَلاكِن يُؤَخِّرُهُمْ } ؛ أي يُمهِلُهم ، { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } ؛ أي إلى وقتٍ ضَرَبَهُ لامهالهم ، { فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ } ذلكَ الوقتُ ، { لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } ؛ لا يتقدَّمون ساعةً ولا يتأخَّرون.

فإن قِيْلَ : كيف قال { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ } مع عِلمنا أن في الناسِ من هو غيرُ ظالِمٍ ، قيل : معناه : (ما تركَ عليها من دابَّة ظالمةٍ). وَقِيْلَ : معناهُ : ولو يؤاخِذُ الله الناسَ بظُلمِهم عَاجلاً لانقطعَ النسلُ ؛ لا أحدَ إلا وقد كان في آبائهِ وأجداده من هو ظالِمٌ.

فإن قِيْلَ : في الآية تعميمُ الناسِوالدواب في الهلاكِ ؛ فأيُّ شيء يوجبُ هلاكَ الدواب ؟ قِيْلَ : إن الدوابَّ إنما خلقَها اللهُ لمنافعِ الناس ، فإذا هلكت الناس بمنع المطرِ عنهم ، لم يبقَ في الأرضِ دابَّة إلا وهلَكَت ، وإذا هلكَ الناسُ بوجهٍ من الوجوه لم تبقَ الدوابُّ.

(٠/٠)

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ } ؛ لأنفُسِهم. في الآيةِ إعادةُ ذكر جَهلِ الكفَّار أنَّهم يجعلون للهِ ما يكرَهون لأنفُسِهم وهو البناتُ ، { وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ } ؛ مع ذلكَ ، { الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى } ؛ أي أن لهم الجنَّة في الآخرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ } ؛ أي حَقّاً ، وَقِيْلَ : لا بدَّ ولا محالةَ أن لهم النارَ ، { وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } ؛ أي مقدَّمون إلى النارِ ، والفَارطُ في اللغة : هو القادمُ إلى الماءِ ،

ومنه قولهُ صلى الله عليه وسلم : " وَأنَا فَرْطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ " أي سَابقُكم.
ومَن قرأ (مُفْرِطُونَ) بكسرِ الراء ، فهُم الذين أفرَطُوا في الذنوب والمعاصي ، ومَن قرأ (مُفَرّطُونَ) بالتشديدِ فهو من التَّفريطِ وهو التقصيرُ.

(٠/٠)

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } ؛ تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أي كما أرسلناكَ إلى هؤلاءِ أرسلنا إلى أُمَم من قبلِكَ ، فزَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم في الكفرِ والتكذيب ، { فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ } ؛ في الدُّنيا يتبَعون إغواءَهُ ، ويقال : (هُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي يقالُ لهم يومئذٍ : هذا وليُّكم ، فيَكِلُكُم الله يومئذ إلى مَن لا يملكُ دفعَ العذاب عن نفسهِ ، فكيف يدفعُ عنهم العذابَ ، ومَن كان الشيطانُ وليُّه دخلَ النارَ ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

(٠/٠)

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ } ؛ أي لتُبيِّن لهم الحقَّ من الباطلِ ، وَأنزلناهُ ، { وَهُدًى } ، دلالةً ، { وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي للمؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } ؛ يعني المطرَ ، { فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ } ؛ أي يُبسِها ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } ؛ أدِلَّةَ اللهِ ، ويتفكَّرون فيها.

(٠/٠)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً } ؛ مِن دون أن يظهرَ فيه لونُ الدمِ ولا رائحة الفَرَثِ ، { سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ } ؛ أي مُتَيسِّرَ الجري في الحلقِ ، لا يغُصُّ به شاربهُ. وإنما لم يقل في بطونها ؛ لأن الأنعامَ والنَّعيمَ واحدٌ ، فكأنه ردَّ الكنايةَ إلى النَّعيمِ. وفي قوله تعالى { نُّسْقِيكُمْ } قرآءَتان : فتحُ النون وضمُّها ، يقال سَقَى وأسْقَى بمعنى واحدٍ.

(٠/٠)

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً } ؛ أراد بالسَّكَرِ الْمُسْكَرَ ؛ وهو من العِنَب الخمرُ ، ومن النَّخيلِ نقيعُ التَّمر إذا غلَى واشتدَّ ، نزلَتْ هذه الآيةُ وهُمَا لهم حلالٌ يومئذٍ ، هكذا قال ابنُ عبَّاس ، والرِّزقُ الحسَنُ : ما أُحِلَّ منها مثل الْخَلِّ والزبيب والتَّمر.
وسُئل بعضهم عن هذهِ الآية فقال : (السَّكَرُ مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمَرهَا ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا حَلَّ مِن ثَمَرِهَا). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ؛ دلائلَ اللهِ.

(٠/٠)

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } ؛ أي وألْهَمَ ربُّكَ النحلَ وعرَّفَها ووَفَّرَ عليها ودعَاها إلى ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ ، وسَمَّى الإلهامَ وَحياً ؛ لأن الوحيَ هو ظهورُ المعنى للنَّفسِ على وجهٍ خَفِيٍّ ، وقد ألْهَمَ اللهُ كلَّ دابة التماسَ منافعها واجتنابَ مضارِّها ، إلاّ أنَّ أمَر النحلِ أعجبُ ؛ لأن فيها مِن لطيفِ الصَّنعة ما فيه أعظمُ مُعتَبَرٍ ، فإنَّ اللهَ ألهمَها اتخاذ المنازل والمساكنَ ، وأنْ تأكُلَ من كلِّ الثمرات لمنافعِ بني آدم ، وأنْ لا تقذفَ ما أكلتْهُ بعد ما صارَ عَسَلاً إلا على حَجَرٍ صافٍ أو مكان نَظِيفٍ لا يخالطهُ طين ولا ترابٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ } ؛ فهي تتخذُ من الجبالِ بُيوتاً إذا لم تكن

لأحدٍ ، وقولهُ تعالى : { وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } ؛ يعني مما يَبنِي الناسُ لها من خلاَياها ومساكِنِها ، ولولا التسخيرُ وإلهام الله ما كانت تأْوِي إلى ما يُبنى لها.

(٠/٠)

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } ؛ أي من ألوان الثمرِ كُلِّه ، { فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً } ؛ أي طُرُقَ ربكِ لطلب الرَّعي ، وقوله تعالى { ذُلُلاً } يجوز أن يكون من نَعْتِ السُّبُلِ ؛ أي لا يتوعَّرُ عليها مكان سلكَتْهُ ، وهي ترعَى الأماكنَ البعيدة ذات العاصِ ، قد ذلَّلَ اللهُ لها مسالِكَها أي سهَّلها. وقال ابنُ عباس : (ذُلُلاً نَعْتُ النَّحْلِ ؛ أيْ مُطِيعَةً بالتَّسْخِيرِ وَإِخْرَاجِ الْعَسَلِ مِنْ بُطُونِهَا).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ } ؛ يعني العسَلَ يلقيهِ النحلُ أبيضَ وأصفرَ وأحمر ، يقالُ : إنه يَخرجُ من شبابها الأبيضُ ، ومِن كهولِها الأصفرُ ، ومن شُيوخها الأحمرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ } ؛ أي في ذلكَ الشراب شفاءٌ للأوجاعِ التي شفاؤُها فيه ، كذا قال السديُّ.
وليس إذا كان في الناسِ من يضرهُ العسل لمعنى في نفسهِ ما يوجبُ أن يخرجَ العسلُ من كونهِ شفاءٌ للناس ، فإنَّ اللهَ جعلَ الماءَ حياةً لكلِّ شيء ، وربَّما يكون الماءُ سَبباً للهلاكِ ، لكن الاعتبارَ للأعمِّ ، وقال قتادةُ : (فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ مِنَ الأَدْوَاءِ) ، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : "كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ " ، { إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }.

(٠/٠)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ } ؛ أي خلَقكم في بُطونِ أمَّهاتكم طوراً بعد طورٍ حتى أخرجَكم وربَّاكم إلى أن يقبضَ أرواحكم عندَ آجالِكم ، { وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } ؛ حتى يعودَ في كِبَرِهِ وهرمِهِ في نُقصان قوَّته ونقصان عقلهِ إلى مثل حالِ الطُّفولة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً } ؛ أي لكي يصيرَ كالصبيِّ الذي لا عقلَ له ، وقال السديُّ : (أَرْذلُ الْعُمُرِ الْخَرَفُ) ، وقال قتادةُ : (تِسْعُونَ سَنَةً) وعن عليٍّ رضي الله عنه : (أنَّ أَرْذلَ الْعُمُرِ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } ؛ أي عليمٌ بكلِّ شيء ، قادرٌ على تحويلِ الأحوال.

(٠/٠)

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ } ؛ أي في المالِ والْخَدَمِ والنِّعَمِ ، وجعل بعضَكم سادةً وبعضكم مَماليكَ ، { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ } ؛ أي فمَا أربابُ الأخدامِ وفُضِّلوا ، { بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ؛ أي المماليكِ ، { فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ } ؛ فيُسَوُّونَهُمْ معَ أنفُسِهم في الملكِ.

فإذا لم تَرْضَوا في الحكمةِ أن يشرككم مماليككم أيبطلوا فضلكم ؟ فكيف يرضَى اللهُ مِنْ خلقهِ أن يجعلوا له شَريكاً في الملكِ من خَلقِهِ ، وهذا مثلٌ ضربه الله للمُشركين فقال : إذا لَم يكن عبيدُكم معكم سواءٌ في المِلك فكيف يجعلون عبادِي معي سواء؟

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } ؛ أي أتَصِفُونَ نعمةَ الله إلى غيرهِ وتشكرونَهُ عليها فتَجْحَدون نعمةَ الله ، فإنَّ مَن أضافَ النعمةَ إلى غير الْمُنْعِمِ وشكرَ عليها فقد جحدَ النِّعمةَ.

(٠/٠)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً } ؛ أي جعلَ لكم من جِنسِكم نساءً ، { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم } ؛ أي من نسائِكم ؛ { بَنِينَ وَحَفَدَةً } ، قِيْلَ : إن الحفدةَ الأختان ، وَقِيْلَ : ولَدُ الولدِ ، وَقِيْلَ : الخدَمُ ، وحقيقةُ الحفَدة مَن يعاون على ما يحتاجُ ، سرعة من الْحَفْدِ والإسراعِ ، ويقال لكلِّ من أسرعَ في الخدمةِ والعملِ : حَفَدَةٌ ، ومنه قولهم في دُعاء الوتر (نَسْعَى وَنَحْفِدُ) أي نُسرِعُ في طاعتكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } ؛ أي من الملاذِّ والحلالِ ، وقولهُ تعالى : { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي أفَبالأَصنَامِ يؤمنون ، { وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } ؛ أي يجحَدون بإضافَتها إلى غيرِ الله.

(٠/٠)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً } ؛ أي ويعبدون الأصنامَ التي لا تملكُ لهم رزْقاً من السَّموات بإنزال الغَيْثِ ، ولا مِن الأرض بإنباتِ النبات شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، { وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ } ؛ أي لا يَملِكون ، وليست لهم استطاعةٌ.

(٠/٠)

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ } ؛ أي لا تجعَلُوا للهِ الأشباهَ ؛ لأنه لا يشبهُ شيئاً ولا يشبهُهُ شيءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } أي إن اللهَ يعلمُ ما يكون قبلَ أن يكون ، وأنتمْ لا تعلمون قَدْرَ عظَمَتي حيث أشرَكتمُوني وعجَّزتُموني أن أبعثَ خَلقِي.

(٠/٠)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ } ؛ أي ضربَ اللهُ المثلَ بعبدٍ مَملوكٍ لا يقدرُ على شيءٍ ، { وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً } ؛ وهو الحرُّ ، فهو ينفق منه خِفيةً وعلانية ؛ { هَلْ يَسْتَوُونَ } ؛ في المثلِ ، كما أن الحرَّ الذي يملكُ وينفقُ سِراً وعلانيةً ، والذي لا

يملكُ شيئاً ينفقهُ ، لا يستويان في المثَلِ ، كما لا يستوِي المنعِمُ الذي جاءَت من قِبَلِهِ النعمةُ ، والأصنام المواتُ التي لا تقدر على النعمةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ } ؛ أي قُلِ الحمدُ للهِ الذي أوضحَ لنا السبيل والطريقَ ، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ } ؛ الكفارُ ، { لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ ذلكَ.

(٠/٠)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ } ؛ أي ضربَ اللهُ المثلَ برَجُلين ؛ أحدُهما أخرَسُ لا يقدرُ على شيءٍ كم الكلام ، ويقال الأبْكَمُ هو الذي وُلد أصمّ لا يسمعُ ولا يفهمُ ولا يمكنه أن يفهمَ غيره ، { وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ } ؛ اي ثقِيلٌ على وليِّهِ وصاحبِهِ ، { أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ } ؛ لا يهتدِي إلى منفعةٍ ولا إلى خيرٍ ، { هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } ؛ ناطقٌ متكلم آمِرٌ بالعدلِ ، تامُّ التمييزِ ، { وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي دِين مستقيمٍ ، وهذا مَثَلٌ للمؤمنِ والكافر.

(٠/٠)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ قِيْلَ : هذه الآيةُ نزلت جَواباً عن سؤالِ قُريش : متى الساعةُ ؟ وهي ظاهرةُ المعنى.

(٠/٠)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً } ؛ أي أخرَجَكم جَاهِلين ، { وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ } ؛ أي خلقَ لكم الحواسَّ التي بها تعلَمون نعمَتهُ وقدرتهُ ، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }.

(٠/٠)

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ } ؛ أي ألَمْ يرَوا إلى الطيرِ مذلَّلات في الهواءِ ما يُمسِكُهنَّ حتى يسقُطنَ على الأرضِ إلا اللهُ { إِنَّ فِي ذلِكَ لأَيَاتٍ } ؛ أي دلالاتٍ على وحدانيَّة الله ، { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

(٠/٠)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً } ؛ أي بيوتِ الْمَدَرِ والحجَرِ مواضعَ تسكُنون فيها ، { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً } ؛ وهي الخيَامُ ، { تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } ، تَخُفُّ عليكم نقلُها وحملها من مكانٍ إلى مكان ، يومَ سفَرِكم ويومَ إقامتكم ، { وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ } ؛ وجعلَ لكم من أصوافِ الضَّأْنِ ، وأوبَار الإبلِ ، وأشعَار الماعزِ ، { أَثَاثاً } ؛ أي مَتَاعاً للبيتِ من الفُرُشِ والأكْسِيَةِ والبُسُطِ ، { وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } ؛ أي منفعةً تنتفعون بها إلى حينِ آجالِكم.

(٠/٠)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً } ؛ أي أشياءَ تستظِلُّون بها مثلَ الأشجارِ ونحوها ، { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً } ؛ وهي الكهوفُ والغِيرَانُ يدخلُها الناس ليسكنوا فيها من الحرِّ والبرد.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ } ؛ أي جعلَ لكم سَرابيلَ يعني القَمِيصَ من القُطنِ والكتَّان والصوف يدفعُ عنكم الحرَّ في الصيفِ والبردَ في الشتاء. ولم يذكرِ البردَ في الآية ؛ لأنه لَمَّا ذكرَ الحرَّ فقد دلَّ به على ما في مقابلتهِ من البرد.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ } ؛ أرادَ به الدُّروعَ من الحديدِ يتَّقون بها في الحرب سلاحَ العدوِّ ، يعني الطعنَ والضرب والرميَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ } ؛ في سائرِ الأشياء ، كما أتَمَّها عليكم في هذه الأشياءِ ، { لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } ؛ لكي تُسلِمُوا ، قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } أيْ لَعَلَّكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى هَذا غَيْرُ اللهِ فَتُؤْمِنُوا بِهِ وَتُصَدِّقُواْ رَسُولَهُ). وفي قراءةِ ابن عبَّاس (لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ) بنصب التاء من الجراحاتِ إذا لبستُم الدروعَ من الحديدِ ، ومن الحرِّ والبرد إذا لبستُم القميصَ.

(٠/٠)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ } أي إنْ أعرَضُوا عن الإيمانِ ، فإنما عليكَ يا مُحَمَّدُ البلاغُ الظاهر ، وهو أن تُبَلِّغَ الرسالةَ ، وتُبَيِّنَ الدلالَة ، فلما ذكَرَ لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذه النِّعَمَ ، قالوا : أنْعِمْ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ اللهِ؟
ثُمَّ قَالُواْ : شَفَاعَةُ آلِهَتِنَا ، فأنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ : { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ } ؛ أي يعرفون أنَّ هذه النعمَ كلَّها من اللهِ ، { ثُمَّ يُنكِرُونَهَا } ، بإضافتها إلى الأوثانِ ، ويشكرونَ الأوثانَ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } ؛ أي كلُّهم يكفرون باللهِ وبنعمته ، فذكر الأكثرَ والمراد به الجميعَ.

(٠/٠)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً } ؛ يعني يومَ القيامةِ تشهدُ الأنبياء على أُمَمِهم بما فعلوا من التصديقِ والتكذيب ، وتشهد العدولُ مِن كلِّ عصرٍ على أهلِ عصرهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي لا يُؤذنُ لهم بعدَ شهادةِ الرُّسل في الاعتذار ، { وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } ؛ ولا ينفعُهم الاعتذارُ يومئذٍ ولا يُجابُونَ إلى الردِّ إلى الدُّنيا.

(٠/٠)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ } ؛ أي إذا رأوْهُ بالدخول فيه ، فلا نرفعهُ عنهم في وقتٍ ونشدِّدُ في وقتٍ ، { وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } ؛ ولا يؤجَّلون بتأخيرِ العذاب إلى وقتٍ آخرَ.

(٠/٠)

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ } ؛ أي إذا رأى الذين أشرَكوا الأصنامَ مع اللهِ في العبادةِ ، { شُرَكَآءَهُمْ } ، يعني الأصنامَ ، { قَالُواْ رَبَّنَا هَاؤُلآءِ } ؛ الأصنام ، { شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْا مِن دُونِكَ } ؛ التي أشرَكناها معكَ في العبادةِ ، فألقَى الأصنامَ { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } في أنَّا آلهةً وفي أنَّا أمَرنَاكم بالعبادةِ ، { وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ } ، واستَسلَمُوا كلُّهم لأمرِ الله يومئذ ، { وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }. والفائدةُ في إعادةِ الأصنام يومئذ : أنْ يُعَيِّرَهم اللهُ بها ، وأن يُعذِّبَهم بها في الدُّنيا.

(٠/٠)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ } ؛ الذين كَفَروا باللهِ ورسُله ، وصَدُّوا عن سبيلِ الله بامتناعهم عنهُ ومنعِ الناس عنه ، زِدنَاهُمْ عذاباً فوقَ العذاب ، قال ابنُ مسعود : (زيدُواْ عَقَارِبَ لَهَا أَنْيَابٌ كَالنَّخْلِ الطِّوَالِ) ، وَقِيْلَ : زيدُوا حَيَّاتٍ كأمثالِ الفِيَلَةِ. وَقِيْلَ : تجري فوق رؤُوسِهم أنْهَارٌ من نُحاسٍ ذائبٍ إذا وقعَ على كفِّ الرجل اشتعلَ الجسدُ منه ناراً ، فليس فيها عذابٌ أشدَّ منه.

(٠/٠)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } ؛ فيه بيانٌ أنَّ كلَّ عصرٍ لا يخلو من شهيدٍ على الناس ، { وَجِئْنَا بِكَ } ؛ يا مُحَمَّدُ ، { شَهِيداً عَلَى هَاؤُلآءِ } ؛ يعني قومَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ } ؛ أي القرآنَ ، { تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ } ؛ من أمورِ الدِّين ، { وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى } وبشارةً ، { لِلْمُسْلِمِينَ }.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ } ؛ يعني بالعدلِ في الأفعالِ ، والإحسانِ في الأقوالِ ،

ولا يفعلُ إلا ما هو عدلٌ ، ولا يقولُ إلا ما هو حسَنٌ ، قال ابنُ عبَّاس : (الْعَدْلُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَالإِحْسَانُ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ).

وَقِيْلَ : العدلُ هو الإنصافُ ، ويدخل فيه إنصافُ المرءِ من نفسه لغيرِهِ في الحقوق والأمانَاتِ ، ومن نفسهِ لنفسه فيما يكون حَقّاً عليه من شُكر نِعَمِ اللهِ ، وأن لا يَعبدَ غيره ، وأن لا يصفَ اللهَ بما لا يليقُ به من الصفاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالإِحْسَانِ } يدخلُ في ذلك المتفضِّلُ على الغيرِ ، إما بالمال ، وإما بالمعاشرة الجميلة من قولٍ أو فعل ، أو إكرام أو بحسَبٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى } ؛ أي صلةِ الأرحام.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } ؛ فالفحشاءُ : الزِّنَى ، والمنكرُ : الشِّركُ ، والبَغْيُ : الظُّلمُ والكِبْرُ. وَقِيْلَ : الفحشاءُ : ما عَظُمَ قبحهُ من قولٍ أو فعل ، سرّاً كان أو علانيةً ، والْمُنْكَرُ : ما يظهرُ للناسِ ، فيجبُ إنكارهُ ، والبغيُ : الاستطالَةُ والظلمُ.

وقيل في معنى الآيةِ : إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ : بالتوحيدِ ، والإحسان : الإخلاصُ ، وَقِيْلَ : الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. وَقِيْلَ : الإحسان العفوُ عن الناسِ ، وَقِيْلَ : العدلُ : استواءُ السرِّ والعلانيَةِ ، والإحسان : أن تكون سَريرتهُ أحسنَ من علانيتهِ ، والفحشاء والمنكر : تكون علانيتهُ أحسنَ من سَريرتهِ.

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ على الوليدِ : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } فقالَ : يَا ابْنَ أَخِي أَعِدْ عَلَيَّ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ لَهُ لَحَلاَوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً ، وَإِنَّ أَعْلاَهُ لَمُورِقٌ وَأَنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ الْبَشَرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ؛ معناهُ يأمرُكم بثلاثٍ أن تفعَلوهُنَّ ، وينهاكم عن ثلاثٍ ؛ لتنتَهُوا عنهنَّ لعلكم تتَّعظون بما تُؤمَرون ، وتَحْتَرِزُونَ عن التقصيرِ.

(٠/٠)

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ } ؛ أي أتِمُّوا العهودَ التي بينكم وبين الناسِ إذا حلَفتُم باللهِ تعالى ، { وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ } ؛ العهودَ ، { بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } ؛ توثِيقها باسمٍ ، { وَقَدْ جَعَلْتُمُ } ؛ قُلتم : { اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً } ؛ شهيداً عليكم بالوفاءِ ، { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } ؛ من النَّقضِ والوفاءِ

فيَجزِيَكم عليه. وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الرجلَ إذا قال : عليَّ عهدُ اللهِ إنْ فعلتُ كذا كان يَميناً ؛ لأنه تعالى ذكرَ العهدَ في أوَّل الآيةِ ، ثم عَقَّبَهُ بقوله : { وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا }.

(٠/٠)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً } ؛ أي لا تكُونوا في نقضِ العهود كالتي نَقَضَتْ غزْلَها من بعدِ إبرامٍ وإحكامٍ ، وهي امرأةٌ من قُريش أُمُّ أخنسَ بنِ شُريق تُعرَفُ بـ (رَيْطَةِ الْحَمْقَاء) ، كانت تغزلُ من الصُّوف والشعر والوبَرِ بمغزَلٍ عظيمٍ مثلَ طُولِ الذِّراع وصنَّارَة في رأسِ المغزلِ مثل طُولِ الإصبَعِ وفُلكَةٌ عظيمةٍ ، فإذا غَزَلَتْهُ وأبرمتْهُ أمَرَت جاريَتها فنقَضتْهُ. والأنْكَاثُ : جمعُ نَكْثٍ ، وهو ما تَنَقَّضَ من غزلِ الشَّعر والقُطْنِ ونحوهما ، والمعنى : لا تكونوا في نقضِ الإيمان كهذه المرأةِ ، غَزَلَتْ غَزْلاً ، وأحكمَتْهُ ثم نقضتهُ فجعلته أنْكَاثاً ، والأنكاثُ : ما يُقطع من الخيوطِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ } ؛ أي تتَّخذون عهُودَكم دَخَلاً وخديعةً وغِشًا وخيانةً بينكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ } ؛ أي لأنْ تكون جماعةٌ هي أعزَّ وأكثرَ من جماعة ، قال مجاهدُ : (إنَّهُمْ كَانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ ، فَيَنْقُضُونَ حِلْفَ هَؤُلاَءِ ، وَيُحَالِفُونَ الأَكْثَرَ ، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذلِكَ).
وحاصلُ التأويلِ النهيُ عن أن تَحْلِفَ على شيءٍ وهو مُنْطَوٍ على خلافهِ ، وأن يَغُرَّ غَيْرَهُ يَمِينُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ } ؛ أي إنما يُخبرُكم بأَمْرِهِ إياكم بالوفاءِ بالعهد ، { وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } ؛ في الدُّنيا من الحقِّ والباطلِ.

(٠/٠)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } ؛ أي أهلَ مِلَّةٍ واحدة ودِينٍ واحد ، { وَلاكِن يُضِلُّ

مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ } ؛ بتوفيقهِ فَضلاً منه ، { وَلَتُسْأَلُنَّ } ، يوم القيامة ، { عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ من الخيرِ والشرِّ.

(٠/٠)

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ } ؛ أي مَكْراً وخديعةً ، { فَتَزِلَّ قَدَمٌ } ؛ فتزِلُّوا عن طاعةِ الله كما تَزِلُّ قدمُ الرجلِ ، { بَعْدَ ثُبُوتِهَا } جعلَ اللهُ زلَّةَ القدَمِ عبارةً عن سُخطِ الله ، وثَبَاتَ القَدَمِ عبارةٌ عن رِضَى اللهِ.
وَقِيْلَ : معنى قولهِ تعالى : { فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } أي فتهلَكُوا بعد أنْ كنتم آمنين ، وقال ابنُ عبَّاس : (فَتَزِلَّ عَنِ الإِيْمَانِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ } ؛ يعني العذابَ ، { بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي بما منَعتُم الناسَ عن دينِ الله ، { وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ في الآخرةِ.

(٠/٠)

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً } ؛ أي لا تختارُوا الحِلْفَ باللهِ كَذِباً عَرَضاً يَسيراً من الدُّنيا ، ولكن أوْفُوا بها ، { إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } أي فإنَّ ما عندَ اللهِ من الثواب في الآخرة على الوفَاءِ هو خير لكم مما عِندكم ، { إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ؛ ثوابَ اللهِ

(٠/٠)

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ } ؛ أي يَفْنَى ولا يبقَى ، { وَمَا عِندَ اللَّهِ } ؛ من الثواب في الآخرةِ على الوفاء ، { بَاقٍ } ، هو خيرٌ لكم مما عندكم يدومُ ويبقى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ } ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وعاصم بالنُّون ، وقرأ الباقون بالياءِ ، ومعناهُ : الذين صَبَروا على الوفاءِ وعلى الطاعةِ ، { أَجْرَهُمْ } ؛ بالطاعاتِ ، { بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ دون إسرَارِها ، ويعفُو عن سيِّئاتِها.

قال ابنُ عبَّاس : " (وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً مِنْ حَضْرَمَوْتَ يُقَالُ لَهُ عِيدَانُ بْنُ الأَشْوَعِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ الْكِنْدِيَّ جَاوَرَنِي فِي أرْضِي فَاقْتَطَعَهَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لِيَشْهَدْ لَكَ أحَدٌ " قَالَ : إنَّ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنِّي صَادِقٌ ، وَلَكِنَّهُ أكْرَمُ عَلَيْهِمْ مِنِّي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِلأَشْعَثِ : " مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ ؟ " قَالَ : الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " أتَحْلِفُ ؟ " قَالَ : نَعَمْ ، فَهَمَّ بالْحَلْفِ.

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ : { وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً... } [النحل : ٩٥] إلَى آخِرِ الآيَتَيْنِ. فَقَرَأهُمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الأَشْعَثِ فَقَالَ : أمَّا مَا عِنْدِي فَيَنْفَذُ ، وَأمَّا مَا بصَاحِبِي فَيُجْزَى بأَحْسَنَ مَا كَانَ يَعْمَلُ ، اللَّهُمَّ إنَّهُ صَادِقٌ فِي مَا قَالَ ، لَقَدِ اقْتَطَعْتُ أرْضَهُ ، وَاللهِ مَا أدْرِي كَمْ هِيَ ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ مَا شَاءَ مِنْ أرْضِي وَمِثْلَهَا مَعَهَا بمَا أكَلْتُ مِنْ ثَمَرِهَا ". فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ بَعْدَ ذلِكَ فِي الأَشْعَثِ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ } ؛ أي مَن عَمِلَ صَالحاً فيما بينه وبين ربهِ وأقرَّ بالحقِّ وهو مع ذلك مؤمنٌ { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ، قِيْلَ : المرادُ بها القَنَاعَةُ بما يُؤتَى من الرِّزق الحلالِ ، كما رُوي عن وهب بن مُنبه أنه قالَ : (الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ بمَا رُزِقَ).

وَقِيْلَ : هي أنْ يكون صدرهُ مُنفَرِجاً بما يعتقدهُ من دلائلِ الله تعالى ، وبما يعرفهُ من وجوب مفارقةِ المعاصي ، فيصيرُ قليلَ الْهَمِّ في أمورِ دنياهُ. وَقِيْلَ : الحياة الطيِّبة الجنةُ ؛ لأنه لم يَطِبْ لأحدٍ حياةً إلاّ فيها.

(٠/٠)

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } أي إذا أردتَ قراءةَ القرآن ، ونظيرهُ{ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ }[المائدة : ٦] ، وقولهُ تعالى : { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ }[الأنعام : ١٥٢].

وفائدة الأمرِ بالاستعاذةِ قبلَ القراءةِ نَفْيُ وَسْوَاسِ الشَّيطانِ عند القراءة ، وقد أجمعتِ الفقهاءُ على أنَّ الاستعاذةَ قبلَ القراءة إلاَّ ما رُوي عن أبي داود بن عليّ ومالك أنّهم قالوا : (الاسْتِعَاذةُ بَعْدَ الْقِراءَةِ) أخذُوا بظاهرِ الآية.

(٠/٠)

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ؛ أي إنَّ الشيطانَ ليس له سَلْطَنَةٌ على المؤمنِ إلا في الوسوسةِ ، { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ } ؛ على الذين يقبَلون دُعاءَهُ ، { وَالَّذِينَ هُم بِهِ } ؛ باللهِ ، { مُشْرِكُونَ } ؛ فإنَّهم جعَلُوا له سُلطاناً على أنفسِهم.

(٠/٠)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

(٠/٠)

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ } ؛ أي قل نَزَّلَ القرآنَ جبريلُ من ربكَ ، { بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ ويُقَوِّيَهم لإيمانِهم ؛ ليزدَادُوا تَصديقاً ويقيناً ، { وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }.

(٠/٠)

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ كَانُواْ يَقُولُونَ : إنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وإنَّمَا يُعَلِّمُ النَّبيَّ بَشَرٌ ، أرَادُوا بذلِكَ جَبْراً وَيَسَاراً كَانَا عَالِمَيْنِ نَصْرَانِيَّيْنِ ، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يُحَدِّثُهُمَا وَيُعَلِّمُهُمَا ، وَكَانَا يَقْرَءآنِ كِتَابَهُمَا بالْعَرَبيَّةِ ، وَكَانَا قَدْ أسْلَمَا). وَقِيْلَ : كانوا يَعْنُونَ بقولِهم (بَشَرٌ) : سلمانَ الفارسيَّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ } ؛ أي لسانُ الذي يَميلُونَ إليه ويزعُمون أنَّهُ يُعلِّمُكَ أعْجَمِيٌّ ، { وَهَاذَا } ؛ القرآنُ الذي يقرَءُونَه ، { لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } ؛ فكيف يقدرُ الأعجميُّ على تعليمِ مثلِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } ؛ إلى ثوابِهِ ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ وجيعٌ في الآخرةِ.

(٠/٠)

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلائِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ } ؛ معناهُ : إنما يكذبُ على اللهِ مَن لا يؤمنُ بدلائلهِ ، بَيَّنَ اللهُ أن الذين نَسبوهُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من الافتراءِ هم أحقُّ به.

(٠/٠)

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ } ؛ يجوزُ أن يكون مَن كَفَرَ رفعا على البدلِ من (الْكَاذِبِينَ) ، ويجوز أن يكون كَلاماً مبتدأ ، وقولهُ تعالى { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ } خبرٌ له أو خبرٌ لقولهِ { وَلَاكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً }. والمرادُ بقولهِ { إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ } : عَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ.

رُوي : " أنَّ الْمُشْرِكِينَ أخَذُوهُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، فَعَذبُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَذكَرَ آلِهَتَهُمْ بخَيْرٍ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ تَرَكُوهُ ، فَأَتَى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَمْسَحُ الدُّمُوعَ مِنْ عَيْنَيْهِ ، فَأَخْبَرَهُ الْقِصَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، فَقَالَ لَهُ صلى الله عليه وسلم : "كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ ؟ " قَالَ : مُطْمَئِناً بالإيْمَانِ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنْ عَادُوا فَعُدْ " ".

وقوله عليه السلام : " إنْ عَادُوا فَعُدْ " على جهةِ الإباحة والرُّخصة دون الإيجاب ، فإنَّ الْمُكْرَهَ على الكفرِ إذا صبرَ حتى قُتِلَ كان أعظمَ لأجرهِ ، والإكراهُ السماح لإجراءِ كلمة الكُفرِ على اللِّسان ، وهو أن يخافَ التلفَ على نفسهِ ، أو على عُضو من أعضائهِ إن لم يفعل ما أُمِرَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَاكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً } ، أي فَسَحَ صدرَهُ للكفرِ بالقَبُولِ وأتَى به على الاختيارِ ، { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } قِيْلَ : إنَّها نزلت في أبي سَرْحٍ القرشي رجعَ إلى الشركِ ، وباحَ بالكفرِ ولَحِقَ بمكَّة.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ } ؛ أي ذلك العذابُ بأنَّهم اختَارُوا الحياةَ الدُّنيا على ثواب الآخرة ، { وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } ؛ إلى جنَّتهِ وثوابهِ.

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُولَائِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَائِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ } ؛ أي حَقّاً { فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ } ؛ أي خَسِروا أنفُسَهم.

(٠/٠)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ } ؛ نزلت في قومٍ بمكَّة بعدَ هجرةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةَ ، ثم إنَّهم هاجَروا إلى المدينةِ من بعدِ ما عذبَهم أهلُ مكة ، { ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ } ؛ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم فَصَبَروا على الجهادِ ، فوعَدَهم اللهُ المغفرةَ لِمَا كان فيهم من التخلُّفِ عن الهجرةِ.
وذلك أنَّهم كانوا مُستضعَفين بمكَّة وكانوا مؤمنين ، فعذبَهم أهلُ مكة حتى ارتَدُّوا عن الإسلام ليَسْلَمُوا من شرِّهم ، ثم هاجَرُوا مِن بعدِ ما فُتنوا ؛ أي من بعدِ ما عُذِّبوا ، ثم جاهَدُوا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وصَبَروا على الجهادِ ، { إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا } ؛ تلك الفتنةِ وتلك الفِعْلَةِ التي فعَلُوها من التلفُّظِ بكلمة الكفرِ ، { لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ وقرأ ابنُ عامرٍ (فَتَنُوا) بفتحِ الفاء ؛ أي فَتَنُوا أنفُسَهم بإظهارِ ما أظهَرُوا للفتنةِ.

(٠/٠)

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا } ؛ يجوزُ أن يكون (يَوْمَ) منصوباً بنَزعِ الخافض أي في يومِ تأتِي كلُّ نفسٍ ، ويجوزُ أن يكون المعنى : واذْكُرْ يومَ تأتِي كلُّ نفسٍ ، وهو يومُ القيامةِ ،

يجادلُ فيه كلُّ إنسانٍ عن نفسهِ ، { وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ } ؛ بَرَّةٍ أو فاجرةٍ ، { مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ، جزاءَ ما عمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ ، لا ينقصُ من ثواب محسنٍ ، ولا يزادُ على عقاب مُسِيء.
واختلَفُوا في الْمُجَادَلَةِ المذكورةِ في الآية ، قال بعضُهم : هو قولُ الكفَّار : مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، وقولُهم : رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا. ومعنى الآية : إنَّ كلَّ أحدٍ لا تَهُمُّهُ إلا نفسهُ ، فهو يخاصِمُ ويحتجُّ عن نفسهِ ، لا يتفرَّغُ إلى غيرِهِ.

(٠/٠)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً } ؛ يعني مكَّةَ كان أهلُها آمِنِينَ لا يُهَاجُ أهلُها ولا يُغَارُ عليها ، بخلافِ قُرَى سائرِ العرب ، لأن العربَ كانت لا تقصدُ مكَّة احتراماً لِحَرَمِ اللهِ ، وقولهُ تعالى : { مُّطْمَئِنَّةً } أي قارَّةً بأهلِها لا يحتاجون إلى الانتجاعِ ولا الانتقال ، كما يحتاجُ إليه سائرُ العرب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ } ؛ أي كان الرزقُ وَاسِعاً على أهلِ مكَّة يُحمَلُ إليهم من البَرِّ والبحرِ ، كما قالَ تعالى{ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ }[القصص : ٥٧] ، { فَكَفَرَتْ } ؛ فكَفَرَ أهلُ مكَّة ، { بِأَنْعُمِ اللَّهِ } ، حين كذبُوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وخالفوهُ ، وكذبُوا بالقرآنِ بعدَ قيام الحجَّة عليهم ، { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } ، فعاقَبَهم اللهُ سبعَ سنين بالقَحْطِ ، وخوَّفَهم من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومن عساكرِهِ وسراياهُ ، { بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } ، من تكذيبِهِ.
رُوي أنه بَلَغَ بهم من الجوعِ ما لا غايةَ بعدَهُ حتى أكلُوا العظامَ الْمُحْرَقَة والْجِيَفَ والكلابَ ، وكان ذلك بدعاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ " فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ حتى صارَ أمرُهم إلى هذه الحالةِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ } ؛ أرادَ به مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ } ؛ الذي تقدَّم ذِكرهُ من الجوعِ والخوف ، { وَهُمْ ظَالِمُونَ } ؛ وكانوا ظَالِمين لأنفسهم.

(٠/٠)

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي كُلُو يا معشرَ المؤمنين مما رزَقكم اللهُ حَلالاً طيِّباً إلى آخرِ الآيتين ، قد تقدَّمَ تفسيرهُما في سورة البقرةِ.

(٠/٠)

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَاذَا حَلاَلٌ وَهَاذَا حَرَامٌ } ؛ أي ولا تقولُوا الكذبَ لِمَا تصفهُ ألسِنتُكم بالحلِّ والحرمةِ ، فتُحِلُّوا الميتةَ ، وتُحَرِّمُوا بعضَ الزَّرعِ والأنعامِ ، كما تقدَّم ذِكرهُ في سورةِ الأنعام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } ؛ أي لتَكْذِبُوا على اللهِ بقولِكم أنَّ هذا من عندِ الله.

وقولهُ تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ } ؛ أي لا يَظْفَرونَ بالْمُرادِ ، ولا يَنْجُونَ يومَ القيامةِ ، إنما لهم في الدُّنيا { مَتَاعٌ قَلِيلٌ } ؛ ثم يتعقَّبُهم ، { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

(٠/٠)

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ } ؛ أرادَ به ما بَيَّنَهُ اللهُ في سورةِ الأنعامِ ، وقد تقدَّمَ هناك ، وفيه بيانُ أن التحريمَ الذي كان في اليهودِ كان من قِبَلِ اللهِ ، وأنه مخالفٌ للتحريمِ الذي كان في كفَّار مكة. وقولهُ تعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } ؛ أي وما ظلَمنَاهم بتحريم ذلك ، فإنَّ تحريْمَها كان عقوبةً لهم ، ولا تكون العقوبةُ ظُلماً ، { وَلَاكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ؛ بمخالفَتِهم أمرَ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ فيه بيانٌ أنَّ مَنِ ارتكبَ المعاصي ، وخالفَ أمرَ اللهِ ، واستعملَ الجهالةَ في ارتكابِه ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذلك من التوبةِ ، فإنه إذا تابَ وأصلحَ في المستقبلِ ، مَحَا اللهُ عنه كلَّ السيئاتِ ، قال ابنُ عبَّاس : (كُلُّ سُوءٍ يَعْمَلُهُ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ جَاهِلٌ فِيْهِ ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ ارْتِكَابَهُ رُكُوبَ سَيِّئَةٍ).

(٠/٠)

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } ؛ فيه بيانُ أنَّ إبراهيمَ كان هو القُدْوَةَ للناسِ بالخيرِ ، وسُمِّيَ الإمامُ (أُمَّةً) ؛ لأنه يجمعُ خِصَالَ الخيرِ ، ويقالُ للرجلِ الْمُنْفَرِدِ بدينٍ لا يشركهُ فيه غيره : أُمَّةٌ ، ويقالُ للعالِمِ : أُمَّةٌ ، والأُمَّةُ : الرجلُ الجامعُ للخيرِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } القَانِتُ : هو الدائمُ على الطاعةِ ، والقُنُوتُ : هو الدوامُ على الطاعةِ ،

والقَانِتُ : هو المطيعُ ، والحنيفُ قد تقدَم تفسيرهُ ، { وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ؛ كما ادَّعاهُ كفارُ قريش ، فإنَّهم يدَّعون أنَّهم يتبعون دينِ إبراهيم.

(٠/٠)

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { شَاكِراً لأَنْعُمِهِ } ؛ أي كان إبراهيمُ شَاكرًا لنِعَمِ اللهِ عليه ، وانتصبَ قولهُ { شَاكِراً } على البَدلِ من قولهِ{ أُمَّةً قَانِتاً }[النحل : ١٢٠]. وقوله : { اجْتَبَاهُ } ؛ أي اصْطَفَاهُ بالنبوَّةِ واختارَهُ ، { وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي إلى دينِ الإسلام.

(٠/٠)

وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي الذِّكْرَ الْحَسَنَ) ، وقال الحسنُ : (هِيَ النُّبُوَّةُ) ، وقال مجاهدُ : (لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) وقال مقاتلُ : (يَعْنِي الصَّلاَةَ عَلَيْهِ مَقْرُونَةً بالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } ؛ أي مع الْمُرْسَلِينَ في الجنَّة.

(٠/٠)

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ؛ أي أمَرنَاكَ يا مُحَمَّدُ باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ في مُجانَبةِ الكفَّار ، كما كان إبراهيمُ يَتَجَنَّبُهم.

فإنْ قِيْلَ : كيف يجوزُ أن يُوصِي الفاضلَ بمتابعةِ المفضُولِ ، ونبيُّنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم كان أفضلَ الأنبياءِ ؟ فكيفَ أمرَهُ الله بمتابعةِ إبراهيمَ عليه السلام ؟ قِيْلَ : إنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان قد سَبَقَ إلى اتِّباعِ الحقِّ ، ولا يكون في سَبْقِ المفضولِ إلى اتِّباعِ الحقِّ عيبٌ على الفاضلِ في اتِّباعهِ.

(٠/٠)

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } ؛ وهم اليهودُ ، وذلك أنَّ موسى قال لبَني إسرائيلَ : تفرَّغُوا إلى اللهِ في كلِّ سبعةِ أيَّام يوماً واحداً ، فاعبدوهُ في يومِ الجمعةِ ، ولا تعمَلُوا فيه شيئاً من أمُورِ الدُّنيا ، وستَّة أيامٍ لمعايشِكم وصنائعِكم ، فأَبَوا أن يقبَلُوا ذلكَ منهُ ، وقالوا : لاَ نبتَغِي إلاَّ اليومَ الذي فرَغَ فيه مِن الخلقِ ، يعنون السَّبت ، فجعلَ ذلك عليهم فيهِ ، وقالت جماعةٌ منهم : بل أعظمُ الأيَّامِ يومُ الأحَدِ ؛ لأنه اليومُ الذي بدأ اللهُ فيه بخلقُ الأشياءَ ، فاختارُوا تعظيمَ غيرِ ما فَرَضَ اللهُ عليهم ، أي تركُوا تعظيمَ يومِ الجمعة.

(٠/٠)

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } ؛ أي أدعُ إلى سبيلِ دين الله { بِالْحِكْمَةِ } يعني بالنبوَّةِ ، { وَالْمَوْعِظَةِ } يعني القرآنَ ، وَقِيْلَ : التخويفُ بالعذاب على جهةِ إظهار الشَّفقة عليهم ليكون ذلك أقربَ إلى إجابتهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ؛ أي بالرِّفقِ واللُّطفِ ، وذِكرِ أحسنِ ما عنده من الحجَجِ ، وأعرضْ عن أذاهُم ، ولا تقصِّر في أداءِ الرسال والدُّعاء إلى الحقِّ ، قِيْلَ : إن هذه الآيةَ نسَجَتها آيةُ السَّيف. وقولهُ تعالى : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } ؛ أي هو أعلمُ بمَن يقبلُ الهدى ومَن لا يقبلهُ ، فيجزِي كُلاًّ على ما عَمِلَ.

(٠/٠)

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } ؛ وذلك " أنَّ حمزةَ ابنَ عبدِالمطَّلب وأصحابه الذين قُتلوا يومَ أُحُد مَثَّلَ بهم المشركون ، عَمَدُوا إلى حمزة فشَقُّوا بطنَهُ ، وأخذت منه هندُ بنت عتبة كَبدَهُ ، فجعلت تلوكُها ثم تطرَحُها ، وقطَعُوا مذاكيرَهُ وجدَعُوا أنفه وأذُنيه ، ومثَّلوا به أشدَّ الْمُثْلَةِ ، وكذلك سائرُ شهداء أحُد مَثَّلَ بهم المشركون ، بقَرُوا بطونَهم ، وقطعُوا مذاكيرَهم.
فلما نَظَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى عمِّه حمزةَ لم ينظُرْ إلى شيءٍ قَطُّ أوجعَ إلى قلبهِ منه ، فقال : " رَحْمَةُ اللهِ علَيْكَ ، فَإِنَّكَ كُنْتَ فَعَّالاً لِلخَيْرِ ، وَصَّالاً لِلرَّحِمِ ، وَاللهِ لَئِنْ أظْفَرَنِي اللهُ بِهِمْ لأَقْتُلَنَّ بكَ سَبْعِينَ مِنْهُمْ ، وَلأُمَثِلَنَّ سَبْعِينَ مِنْهُمْ " وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : وَاللهِ لَئِنْ أمْكَنَنَا اللهُ مِنْهُمْ ، لَنُمَثِّلَنَّ بالأَحْيَاءِ فَضْلاً عَنِ الأَمْوَاتِ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } { وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } ؛ فقالَ صلى الله عليه وسلم : " أصْبرُ وَلاَ أُمَثِّلُ " وكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ " ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ } ؛ أي ما صبرُكَ إلاّ بمعونةِ الله وتوفيقه ، ولا تقدرُ على الصَّبرِ في الحزن الذي لَحِقَكَ بسبب الشُّهداء ، إلا أنْ يُسَهِّلَ اللهُ عليكَ.

(٠/٠)

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } ؛ أي لا تحزَنْ على الكفَّار إذا امتنَعُوا من الاستجابةِ لكَ. وَقِيْلَ : لا تحزَنْ على الشُّهداء ، فإن اللهَ أنزَلَهم منَازِلَهم في الجنَّة ، لو رأيتَهم في الكرامةِ التي أكرمَهَم اللهُ بها لَغبطْتَهُمْ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } ؛ أي لا يَضِيقُ صَدرُكَ من مَكرِهم ، فيكون ذلك شاغلاً عن ما كُلِّفْتَهُ من الدُّعاء إلى سَبيل ربكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } ؛ أي مع المتَّقِينَ الْمُحسِنِينَ ، وهم المسلمون يَنصرُهم ويُظهِرُهم على الكفار ويُعِينُهم عليه.

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } ؛ أي سُبحان الذي أسْرَى بعبدهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في ليلةٍ واحدة من مَسجِدِ مكَّة إلى مسجدِ بيتِ المقدس.

وسُمِّي مسجدُ بيتِ المقدس المسجدَ الأقصى ؛ لأنه لم يكن وراءَهُ مسجدٌ يُعْبَدُ اللهُ فيه. وقيل : لأنه أبعدُ المساجدِ التي تُزار ، قالَ صلى الله عليه وسلم : " أنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ ، إِذْ أتَانِي جِبْرِيلُ بالْبُرَاقِ... " وذكرَ حديث المعراجِ ".

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (أُسْرِيَ بهِ مِنْ بَيْتِ أُمِّ هَانِئ بنْتِ أبي طَالِبٍ أُخْتِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَالْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ). وعن الكلبي عن أبي صالحٍ عن أُمِّ هانئ أنَّها كانت تقولُ : (مَا أُسْرِيَ برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ وَهُوَ فِي بَيْتٍ) ، قال مقاتلُ : (كَانَ الإسْرَاءُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بسَنَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } صفةُ بيتِ المقدسِ ، بارَكَ الله فيما حولَهُ بالأشجار والأثمار والأنهار حتى لا يحتَاجُون إلى أنْ يُجلَبَ إليهم من موضعٍ آخر : وَقِيْلَ : يَعْنِي { بَارَكْنَا حَوْلَهُ } : جعلنَاهُ مَوضعاً للأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، وفيه مَهبطُ الملائكةِ ، وفيه الوحيُ ، وفيه الصَّخرةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ } ؛ أي من عَجائب قُدرَتِنا ، { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } ؛ لمقالةِ قُريشٍ وإنكارِهم { البَصِيرُ } ؛ بهم وبأعمالهم.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم " لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي وَأنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ ، جَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام وَقَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ قُمْ ، فَقُمْتُ فَإذا جِبْرِيلُ مَعَهُ مِيكَائِيلُ ، فَقَالَ لِي : تَوَضَّأْ ، فَتَوَضَّأْتُ ، ثُمَّ قَالَ لِي : انْطَلِقْ يَا مُحَمَّدُ ، فَقُلْتُ : إلَى أيْنَ ؟ فَقَالَ : إلَى رَبكَ. فَأَخَذ بيَدِي وَأخْرَجَنِي مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَإذا بالْبُرَاقِ دَابَّةٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ ، خَدُّهُ كَخَدِّ الإنْسَانِ ، وَذنَبُهُ كَذنَبِ الْبَعِيرِ ، وَأظْلاَفُهُ كَأَظْلاَفِ الْبَقَرِ ، وَصَدْرُهُ كَأَنَّهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ ، وَظَهْرُهُ كَأَنَّهُ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ ، عَلَيْهِ رَحْلٌ مِنْ رحَالِ الْجَنَّةِ ، خَطْوُهُ مُنْتَهَى طَرْفِهِ. فَقَالَ لِي : ارْكَبْ ، فَلَمَّا وَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ شَمَسَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : مَهْلاً يَا بُرَاقُ ؛ أمَا تَسْتَحِي! فَوَاللهِ مَا رَكِبَكَ نَبيٌّ أكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذا ، هُوَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. فَارْتَعَشَ الْبُرَاقُ ، وَتَصَبَّبَ عَرَقاً حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ خَفَضَ حَتَّى لَزَقَ بالأَرْضِ ، فَرَكِبْتُهُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى ظَهْرِهِ.

قَامَ جِبْرِيلُ نَحْوَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى يَخْطُو مَدَّ الْبَصَرِ ، وَالْبُرَاقُ يَتْبَعُهُ لاَ يَفُوتُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَإِذا بالْمَلاَئِكَةِ قَدْ نَزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ يَتَلَقَّوْنِي بالْبشَارَةِ وَالْكَرَامَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَلَمَّا وَصَلْتُ بَابَ الْمَسْجِدِ أَنْزَلَنِي جِبْرِيلُ ، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بالْحَلَقَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبطُ بهَا الأَنْبيَاءُ ، وَكَانَ لِلبُرَاقِ خِطَامٌ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ ، فَصَلَّيْتُ فِي الْمَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ ، وَالْمَلاَئِكَةُ خَلْفِي صُفُوفاً يُصَلُّونَ مَعِي.

ثُمَّ أَخَذ جِبْرِيلُ بيَدِي ، وَانْطَلَقَ بي إِلَى الصَّخْرَةِ فَصَعَدَ بي عَلَيْهَا. وَإِذا مِعْرَاجٌ أَصْلُهُ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَرَأْسُهُ مُلْتَصِقٌ بالسَّمَاءِ ، إِحْدَى عَارِضَيْهِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء وَالأُخْرَى زُبُرْجُدَةٌ خَضْرَاءُ ، وَدَرْجُهُ زُمُرُّدٌ مُكَلَّلٌ بالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، فَاحْتَمَلَنِي جِبْرِيلُ حَتَّى وَضَعَنِي عَلَى جَنَاحَيْهِ ، ثُمَّ صَعَدَ بي ذلِكَ الْمِعْرَاجَ حَتَّى وَصَلَ بي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

فَقَرَعَ الْبَابَ فَقِيلَ : مَنْ هَذا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قَالُوْا : مَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. فَفَتَحُواْ الْبَابَ فَدَخَلْنَا ، فَقَالُواْ : مَرْحَباً وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذا ؟ قَالَ : أَبُوكَ آدَمُ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَرْحَباً بكَ ، بالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَفَتَحُواْ لَنَا وَقَالُواْ : مَرْحَباً برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ، فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى فَقُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذانِ ؟ قَالَ : عِيسَى وَيَحْيَى ابْنَا الْخَالَةِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا ، فَقَالاَ : مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقَالُواْ : مَنْ هَذا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، فَفَتَحُواْ وَقَالُواْ : مَرْحَباً بهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، قَالَ : جَاءَ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ عليه السلام فَقَالَ : مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ.

ثُمَّ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابعَةَ فَكَانَ مِنَ الاسْتِفْتَاحِ وَالْجَوَاب مِثْلَ مَا تَقَدَّمْ ، فَوَجَدْتُ إِدْرِيسَ فَقَالَ لِي : مَرْحَباً بالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبيِّ الصَّالِحِ. وَفِي السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ وَجَدْتُ هَارُونَ فَقَالَ لِي كَذلِكَ ، وَفِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَجَدْتُ مُوسَى فَقَالَ لِي كَذلِكَ ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ وَجَدْتُ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِي : مَرْحَباً بالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَإِنَّ نَبقَهَا مِثْلَ قِلاَلِ هَجَرٍ ، وَوَرَقُهَا كَأَذانِ الْفِيَلَةِ ، وَرَأَيْتُ أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ تَجْرِي مِنْ أَصْلِهَا ، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الأَنْهَارِ ؟ فَقَالَ : النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وأَمَّا النَّهْرَانِ الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ ، وَفِيهَا مَلاَئِكَةٌ لاَ يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلاَّ اللهُ ، وَمَقَامُ جِبْرِيلَ فِي وَسَطِهَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهَا فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ : تَقَدَّمْ ، فَقُلْتُ : تَقَدَّمْ أَنْتَ يَا جِبْرِيلُ! فَقَالَ : بَلْ تَقَدَّمْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ؛ فَأَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنِّي.

قَالَ : فَتَقَدَّمْتُ وَجِبْرِيلُ عَلَى إِثْرِي حَتَّى انْتِهَائِي إِلَى حِجَابٍ مِنْ ذهَبٍ ، فَحَرَّكَهُ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ ، فَأَخْرَجَ الْمَلَكُ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ الْحِجَاب ، فَاحْتَمَلَنِي وَتَخَلَّفَ جِبْرِيلُ ، فَقُلْتُ : إِلَى أَيْنَ ؟ فَقَالَ : وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ، وَإِنَّمَا أُذِنَ لِي فِي الدُّنُوِّ مِنَ الْحِجَاب لإِكْرَامِكَ وَإِجْلاَلِكَ.

فَانْطَلَقَ بي الْمَلَكُ فِي أسْرَعِ مِنْ طُرْفَةِ عَيْنٍ إلَى حِجَابٍ آخَرَ ، فَحَرَّكَهُ فَقَالَ الْمَلَكُ : مَنْ هَذا ؟ فَقَالَ : هَذا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَعِي ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الْحِجَاب ، فَاحْتَمَلَنِي حَتَّى وَسِعَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَلَمْ أزَلْ كَذلِكَ مِنْ حِجَابٍ إلَى حِجَابٍ حَتَّى سَبْعِينَ حِجَاباً ، غِلْظُ كُلِّ حِجَابٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمَا بَيْنَ الْحِجَاب إلَى الْحِجَاب خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ ، ثُمَّ احْتُمِلتُ إلَى الْعَرْشِ "

(٠/٠)

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَآ مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } ؛ أي أعطَينا موسَى التوراة وجعلناهُ دلالةً لبني إسرائيل ، { أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً } ؛ رَبّاً ، ولا تتوكَّلوا على غَيري ، ومَن قرأ { أَلاَّ تَتَّخِذُواْ } بالتاءِ ، فهو على الخطاب بعد الغَيبَةِ مثلُ{ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الفاتحة : ٢] ثُم قالَ : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[الفاتحة : ٥].

(٠/٠)

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } ؛ أي يا ذرِّيةَ مَن حَمَلنا مع نُوحٍ ، والناسُ كلُّهم ذريةُ نوحٍ ، ثم اثنَى على نوحٍ فقال : { إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } لنِعَمِ اللهِ ، كان إذا أكلَ أو شَرِبَ أو اكتسَى أو احتذى قال : الْحَمْدُ للهِ.

(٠/٠)

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ } ؛ أي أخبَرنَاهُم في التوراةِ ، { لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ } ؛ أي لتَعْصُنَّ كرَّتَين بقتلِ النُّفوس ، وتخريب الديارِ ، وأخذِ الأموال ، { وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً } ؛ ولتظلمُنَّ ظُلماً عظيماً.

(٠/٠)

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } ؛ أي سلَّطنا عليكم عِبَاداً لنا ذوي عُدَّة في القتالِ ، { فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ } ؛ قال ابنُ عباس : (وَهُمْ بَخِتْنَصَّرَ وَأَصْحَابُهُ الْمَجُوس ، سَلَّطَهُمْ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ عَصَتْ فِي أَوَّلِ الْفَسَادَيْنِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ بَخِتْنَصَّرَ أَرْبَعِينَ أَلْفاً مِمَّنْ كَانَ يَقْرَأُ التَّوْرَاةَ ، وَدَخَلَ دِيَارَهُمْ وَطَلَبَهُمْ طَلَباً شَدِيداً حَتَّى كَانُوا يَنْظُرُونَ فِي الأَزِقَّةِ وَالْبُيُوتِ ، هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ لَمْ يَقْتُلُوهُ ، وَاسْتَأْسَرُواْ مِنْ بَقِيَ بَعْدَ الأَرْبَعِينَ أَلْفاً ، وَمَضَواْ بِهِمْ إِلَى بِلاَدِهِمْ ، فَمَكَثَ الأُسَرَاءُ فِي أَيْدِيهِمْ تِسْعِينَ سَنَةً حَتَّى مَاتَ بَخِتْنَصَّرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً } ؛ أي وَعداً كَائناً لا محالةَ.

(٠/٠)

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ } ؛ أي جعَلنا لكم الدولةَ والرجعةَ عليهم ، { وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ } ؛ أي وأعطيناكم أمْوَالاً وبنين ، { وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً } ؛ أي أكثرَ عَدَداً ينفِرُون إليهم. وذلك أنَّ رجُلاً من أهلِ الكتاب يقالُ له : كُورشُ غزَا أرضَ بابل ، وهي بلادُ بَخِتْنَصَّر ، فظهرَ عليهم فقتلَهم وسكنَ ديارَهم ، وتزوَّجَ امرأةً مِن بني إسرائيلَ أُخْتُ مَلكِ بني إسرائيلَ ، فطلَبت من زوجِها أن يَرُدَّ قومَها إلى أرضِهم ففعلَ ، فمكثَ في بيتِ المقدس مِائتين وعشرين سنةً ، وقامت بينهم الأنبياءُ ، ورجَعُوا الى أحسنَ ما كانوا عليهِ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ }.

وعن حذيفةَ بن اليمانِ قالَ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في هذهِ الآية : " إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمَّا اعْتَدَواْ وَقَتَلُواْ الأَنْبِيَاءَ ، بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلِكَ الرُّومِ بَخِتْنَصَّرَ ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهُمْ وَفَتَحَهَا ، فَقَتلَ عَلَى دَمِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا أَرْبَعِينَ أَلْفاً – وَقِيْلَ : سَبْعِينَ أَلْفاً – وَسَبَى أَهْلَهَا ، وَسَلَبَ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُدَ قَدْ بَنَاهُ مِنْ ذهَبٍ وَيَقُوتٍ وَزُبُرْجُدٍ ، وَعَمُودُهُ ذهَبٌ ، أَعْطَاهُ اللهُ ذلِكَ وَسَخَّرَ الشَّيَاطِينَ لَهُ يَأْتُونَهُ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ.

ثُمَّ سَارَ بَخِتْنَصَّرَ بالأُسَارَى حَتَّى نَزَلَ بَابِلَ فَأَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مُدَّتِهِ سَنَةً تَتَعَبَّدُ الْمَجُوسَ وَأَبْنَاءَ الْمَجُوسِ ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَحِمَهُمْ فَسَلَطَ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ فَارسَ يُقَالُ لَهُ كُورشُ وَكَانَ مُؤْمِناً ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ فَاسْتَنْقَذ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُمْ ، وَاسْتَنْقَذ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى رَدَّهُ إِلَيْهِ ، فَأَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُطِيعِينَ اللهَ زَمَاناً ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْمَعَاصِي ، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلِكاً آخَرَ وَحَرَقَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَسَبَاهُمْ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا }[الإسراء : ٥] يعني أُولى الْمَرَّتَين ، واختلَفُوا فيها ، فعلى قولِ قتادة : (إِفْسَادُهُمْ فِي الْمَرَّةِ الأُوْلَى مَا تَرَكُواْ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ ، وَعَصَوا رَبَّهُمْ وَلَمْ يَحْفَظُوا أَمْرَ نَبِيِّهِمْ مُوسَى ، وَرَكِبُواْ الْمَحَارِمَ).

وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه (أَنَّ الْفَسَادَ الأَوَّلَ قَتْلُ زَكَرِيَّا) ، وَقِيْلَ : قَتْلُهُمْ شَعْيَا نَبِيُّ اللهِ فِي الشَّجَرَةِ ، قال ابنُ اسحق : (إِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ أَخْبَرَهُ أَنَّ زَكَرِيَّا مَاتَ مَوْتاً وَلَمْ يُقْتَلْ ، وَإِنَّمَا الْمَقْتُولُ شَعْيَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ }[الإسراء : ٥] يعني جَالُوتَ وجنودَهُ ، وقال ابنُ اسحق : (بَخِتْنَصَّرَ الْبَابليُّ وَأَصْحَابُهُ ، أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ؛ أيْ ذوِي بَطْشٍ شَدِيدٍ فِي الْحَرْب ، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَار ؛ أيْ طَافُوا وَدَارُواْ). وقال الفرَّاء : قتلوكم بين بيوتكم ، قال حَسَّنُ : وَمِنَّا الَّذِي لاَقَى بسَيْفٍ مُحَمَّدٍ فَجَاسَ بِهِ الأَعْدَاءَ عَرْضَ الْعَسَاكِرِوَقِيْلَ : (فَجَاسُواْ) أي طلَبُوا مَن فيها كما تُجَاسُ الأخبارُ.

وقولهُ تعالى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ }[الإسراء : ٧] أي المرَّة الآخرة ، وهو قصدُهم قتلَ عيسى حين رُفِعَ ، وقتلُهم يحيى بن زَكريَّا عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، فسلَّطَ الله عليهم طَطُوسُ بن استِيباتيُوس فَارسَ وَالرُّومَ حِينَ قَتَلُوهُمْ وسَبَوهم ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ }[الإسراء : ٧].

(٠/٠)

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ } ؛ أي منفعةُ إحسانِكم راجعةً إليكم ، { وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } ؛ أي فإلى أنفُسِكم ، ولم يقل فإليها على جهةِ المقابلة للكلامِ الأول ، ومثلُ هذه الحروفِ قد تُقام

بعضُها مقامَ بعضٍ ، كما في قولهِ تعالى : { بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا }[الزلزلة : ٥] أي إليها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ } ؛ أي وعدَ المرَّة الآخرة في الفسادِ ، { لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ } ؛ بالقتلِ والسَّبي ، { وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ } ؛ أي مسجدَ بيتِ المقدس ، { كَمَا دَخَلُوهُ } ؛ دخلَهُ بَخِتْنَصِّر وأصحابهُ ، { أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً } ؛ أي وليُخرِّبوا ما عَلَوا عليه تخريباً ، والتَّبَارُ والرَّماد والهلاكُ بمعنى واحدٍ.
ذلك أن اللهَ سلَّط عليهم بعدَ مائتين وعشرين سنةً طوطوس بن استيباتوس الرومي ، فحاصَرَهم وقَتَلَ منهم مائةَ ألفٍ وثمانين ، وخرَّبَ بيتَ المقدس ، وذلك بعدَ قَتلِهم يحيى عليه السلام ، فلم يزَلْ كذلك خَراباً إلى أن بناهُ المسلمون ، فلم يدخلْهُ رُومِيٌّ بعد ذلكَ إلا خائفاً ، كما قالَ تعالى : { أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ }[البقرة : ١١٤].
وذهبَ بعضُهم إلى أن بَخِتْنَصَّرَ غزَا بني إسرائيلَ مرَّتين ، ففتحَ مدينَتهم في المرَّة الأولى ، وجَاسُوا خلالَها يَقتُلون فيهم ، فتابَتْ بنو إسرائيلَ إلى اللهِ تعالى فأظهرَهم اللهُ تعالى على بختنصِّر فرَدَّ عنهم ، ثم بعثَ الله إلى بني اسرائيلَ (أرْمِيَا) النبيَّ عليه السلام ، فقامَ فيه بوحيِ الله تعالى ، فضربوهُ وقيَّدوه وحبسوهُ ، فسلَّطَ الله عليهم بختنَصِّر مرَّةً أُخرى ففعلَ ما فعلَ.

(٠/٠)

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ } ؛ أي بعدَ استقامةِ منكم ، { وَإِنْ عُدتُّمْ } ؛ لمعصيةٍ ، { عُدْنَا } ؛ إلى العقوبةِ ، قال قتادةُ : (فَعَادُواْ فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، فَعَادَ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْعُقُوبَةِ بإذْلاَلِهِمْ بأَخْذِ الْجِزْيَةِ وَالْقَتْلِ ، فَهُمْ يُعْطُونَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً } ؛ أي مُحْتَبَساً من قولِكَ : حصَرتهُ فهو محصورٌ إذا حبستَهُ ، وَقِيْلَ : فِرَاشاً ومِهَاداً تَشْبيهاً بالحصيرِ الذي يُبسَطُ ويُفرَشُ.

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } ؛ أي يَهدي للحالةِ التي هي أقوَمُ الحالاتِ ، والطريقةِ التي هي أصوبُ ، وَقِيْلَ : يُرشِدُ إلى الكلمةِ التي هي أعدلُ الكلماتِ ، وهي كلمةُ التوحيد والطاعةِ لله تعالى والإيمان به وبرُسلِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً } ؛ ثواباً عظيماً وهو الجنَّةُ ، { وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } ؛ أي إنَّ الذين لا يُؤمنون بالآخرةِ يُبشِّرُهم بعذابٍ أليم وهو النارُ.

(٠/٠)

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ } ؛ أي يدعُو على نفسهِ وعلى ولَدهِ بالسُّوء عندَ الضَّجَرِ والغضب ، فيقولُ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُ اللهم أهلِكْهُ ونحوُ ذلك ، كدُعائِه ربَّهُ بأن يهَبَ له العافِيةَ والنِّعمةَ ، ويرزقه السلامةَ في نفسهِ وماله وولدهِ ، فلو استجابَ اللهُ له إذا دعاهُ باللعنِ والهلاك ، كما يستجابُ له إذا دعاهُ بالخيرِ لَهَلَكَ ، ولكنَّ اللهَ تعالى بفضلهِ لا يستجيبُ له ، ونظيرُ هذا{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ }[يونس : ١١].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً } ؛ أي عَجُولاً في الدُّعاء بما يكرَهُ أن يستجابَ لهُ ، وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ ضَجُوراً لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ). وَقِيْلَ : أرادَ به آدمَ عليه السلام لَمَّا نُفِخَ في الروحُ فبلغَ إلى رجليه ، قصدَ القيامَ قبلَ أن يجرِيَ فيه الروحُ فسقَطَ ، فقيل له : لاَ تَعْجَلْ).

(٠/٠)

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا الَّيلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ } ؛ أي عَلامَتَين تدُلاَّن على قُدرةِ خالِقِهما ، { فَمَحَوْنَآ آيَةَ الَّيلِ } ؛ أي ضوءَ القمَرِ ، قال ابنُ عبَّاس : (أَرَادَ بِهِ السَّوَادَ الَّذِي فِي الْقَمَرِ ، وَذلِكَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْقَمَرَ

أَوَّلَ مَا خَلَقَهُ عَلَى صُورَةِ الشَّمْسِ ، وَكَانَتِ شَمْسٌ باللَّيْلِ وَشَمَسٌ بالنَّهَارِ ، وَكَانَ لاَ يُعْرَفُ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ ، فَأَمَرَ اللهُ جِبْرِيلَ فَمَسَحَ بجَنَاحَيْهِ شَمْسَ اللَّيْلَ فَذَهَبَ ضَوْءُهَا ، وَبَقِيَ عَلاَمَةُ جَنَاحِهِ وَهُوَ السَّوَادُ الَّذِي يَرَوْنَهُ فِي جَوْفِ الْقَمَرِ).

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً : (جَعَلَ اللهُ نُورَ الشَّمْسَ سَبْعِينَ جُزْءاً ، وَنُورَ الْقَمَرِ سَبْعِينَ جُزْءاً ، فَأُمْحِيَ مِنْ نُور الْقَمَرِ تَسْعَةٌ وَسِتُّونَ جُزْءاً فَجَعَلَهَا مِنْ نُور الشَّمْسِ ، فَصَارَ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِائَةً وَثَلاَثِينَ جُزْءاً ، وَالْقَمَرُ جُزْءاً واحداً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَآ آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } ؛ وهي الشَّمسُ مُبْصِرَةً مُضِيئةً مُنِيرةً ، { لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي لتَسكنُوا بالليلِ ، وتطلبُوا معايشَكم بالنهار ، إلاَّ أنه حذفَ لتَسكنُوا بالليلِ ؛ لأنه ذكرَهُ في موضعٍ آخر ، { وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } ؛ أي جعَلنا ذلك لتَعلَمُوا حسابَ الشُّهور والأيَّامِ ومواقيتَ الصلاةِ والصيام والحجِّ ، يعني بمَحْوِ آيةِ الليل ، { وَكُلَّ شَيْءٍ } ؛ من الأمرِ والنهي والحلال والحرامِ ، { فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } ؛ أي بَيَّنَّاه في القرآنِ ؛ ليكونَ أقربَ إلى معرِفَتكم ، وبَيَّنَّاهُ تبييناً ؛ لئلا يلتبسَ بغيرِهِ.

(٠/٠)

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ } ؛ أي ألزمناهُ عمَلهُ من خيرٍ أو شرٍّ في عنُقِهِ ، فجعلنا جزاءَ عملهِ لازماً له ، كما يقالُ : هذا الحقُّ في عُنقِ فلان وفي ذمَّتِهِ ، قال مجاهدُ : (مَكْتُوبٌ فِي وَرَقَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي عُنُقِهِ شَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ) روىَ الحكمُ عن مجاهدٍ : (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَفِي عُنُقِهِ مَكْتُوبٌ شَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ).

وفي الآية تشبيهُ العملِ بالطائرِ الذي يجيءُ من ناحية اليمينِ فيُتبَرَّك بهِ ، والذي يجيءُ من ذاتِ الشِّمال فيُتشاءَمُ به ، وأما الإضافةُ إلى العُنقِ دون سائرِ الأعضاء ؛ فلأنَّ ما يتزيَّن به من طَوقٍ أو ما يشين من غِلٍّ فإنما يضافُ إلى الأعناقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً } ؛ أي يرفعُ الله يوم القيامةِ كتابَهُ يرَى فيه جزاءَ أعمالهِ ، قرأ الحسنُ ومجاهد : (وَنُخْرَجُ) على ما لَم يسَمَّ فاعلهُ ، على معنى : ونخرجُ له الطائرَ كتاباً. وانتصبَ قولهُ (كِتَاباً) على الحالِ.

وقرأ أبو جعفرٍ : (وَيُخْرِجُ) بالياء مسمَّى الفاعل ؛ أي ويَخرُجُ له الطائرُ يومَ القيامةِ. وقرأ يحيى بن وثَّاب (وَيُخْرِجُ) بضمِّ الياء وكسر الراء ، المعنى : ويخرِجُ اللهُ له كتاباً ، وقرأ الحسنُ ومجاهد : (أَلْزَمْنَاهُ طَيْرَهُ)

بغيرِ ألف ، وقال أهلُ المعاني : أرادَ بالطائرِ ما قضَى عليهِ أنه فاعلهُ ، وما هو صائرٌ إليه من شقاوةٍ أو سعادة. قَوْلُهُ تَعَالَى : (يُلَقَّاهُ مَنشُوراً) قرأ أبو جعفر بضمِّ الياء وفتحِ اللام وتشديدِ القاف ، يعني يَلقى الإنسانُ ذلك الكتابَ الذي يؤتى ، وقرأ الباقون بالتخفيفِ ؛ أي يراهُ مَنشورةً فيه حسناتهُ وسيئاته.

قال ابنُ عباس (يُعْطَى الْمُؤْمِنُ كِتَاباً بيَمِينِهِ وَهِيَ صَحِيفَتُهُ ، يَقْرَأُ فِيْهَا حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ فِي بَطْنِهَا : عَمِلْتَ كَذا ، وَقُلْتَ كَذا فِي سَنَةِ كَذا ، فِي شَهْرِ كَذا ، فِي يَوْمِ كَذا ، فِي سَاعَةِ كَذا ، فِي مَكَانِ كَذا. فَإذا انْتَهَى إِلَى أَسْفَلِهَا قِيْلَ لَهُ : قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ، إقْرَأ مَا فِي ظَاهِرِهَا ، فَيَقْرَأ حَسَنَاتِهِ فَيَسُرُّهُ مَا يَرَى فِيْهَا ، وَيُشْرِقُ لَوْنُهُ عِنْدَ ذلِكَ{ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ }[الحاقة : ١٩ و٢٠]).

قال : (وَيُعْطَى الْكَافِرُ كِتَابَهُ بشِمَالِهِ ، فَيَقْرَأُ حَسَنَاتِهِ فِي بَاطِنِهَا ، فَيَجِدُ عَمِلْتَ كَذا فِي سَنَةِ كَذا فِي شَهْرِ كَذا ، فِي يَوْمِ كَذا ، فِي سَاعَةِ كَذا. فَإذا انْتَهَى إِلَى آخِرِهَا قِيلَ لَهُ : هَذِهِ حَسَنَاتُكَ قَدْ رُدَّتْ عَلَيْكَ ، إقْرَأْ مَا فِي ظَاهِرِ كِتَابكَ ، فَيَرَى مَا فِي ظَاهِرِ كِتَابِهِ كُلَّ سَيِّئَاتِهِ ، كُلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ، فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ وَتَزْرَقُ عَيْنَاهُ ، وَيَقُولُ عِنْدَ ذلِكَ{ يالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ }[الحاقة : ٢٥ و٢٦]).

(٠/٠)

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اقْرَأْ كِتَابَكَ } ؛ أي يقالُ له اقْرَأ كِتَابَكَ ، قال الحسنُ : (يَقْرَؤُهُ أُمِّيّاً كَانَ أوْ غَيْرَ أُمِّيٍّ) ، وقال قتادةُ : (يَقْرَؤُهُ يَوْمَئِذٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَارِئاً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } ؛ أي مُحَاسِباً ، وإنما جُعل محاسباً لنفسهِ ؛ لأنه إذا رأى أعمالَهُ كلَّها مكتوبةً ، ورأى خيرَ أعمالهِ مكتوباً لم ينقُصْ من ثوابهِ شيءٌ ، ولم يُزَدْ على عقابهِ شيءٌ كفاهُ ذلك في الحساب ، وكان الحسنُ يقول : (يَا ابْنَ آدَمَ لَقَدْ عَدَلَ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ لِنَفْسِكَ حَسِيباً).

(٠/٠)

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ } ؛ أي منفعةُ هدايتهِ راجعةٌ إليه ، { وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا

يَضِلُّ عَلَيْهَا } ؛ أي ومَن ضلَّ في الدُّنيا ، فإنَّ وَبَالَ ضلالهِ راجعٌ إليهِ ، { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ؛ أي لا يَحْمِلُ أحدٌ حِمْلَ غيرهِ ، فلا يؤخَذُ بذنب غيره ، { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } ؛ إقامةً للحجَّة ، وقطعاً للعُذرِ.

(٠/٠)

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا } ؛ أي إذا أرَدنا الحكمَ بهَلاكِ قريةٍ ، (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) جَبابرَتَهَا ورُؤساءَها بالطاعةِ فعَمِلُوا بالمعاصي ، وهذا كما يقالُ للرجُلِ : أمَرتُكَ فَعَصَيتَنِي ، يعني أمرتُكَ لتُطيعَنِي فخالَفتَني.
وإنما ذكرَ الرؤساءَ دون المتبوعين ؛ لأن غيرَهم تَبَعٌ لَهم ، فيكون الأمرُ لهم بالطاعةِ أمرٌ للأَتباع. وقرأ مجاهدُ وأبو رجاء (أَمَّرْنَا) بالتشديدِ ؛ أي جعَلنا لهم إمْرَةً وسُلطاناً. وقولهُ تعالى : { فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ } ؛ أي وجبَ عليها القولُ بالعذاب ، { فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } ؛ أي أهلَكناها هَلاكاً.

(٠/٠)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ } ؛ أي أهلكنا قروناً كثيرة بعد نوح ، قال ابنُ عباس : (الْقَرْنُ مشائَةٌ وَعُشْرُونَ سَنَةً) ، وقال المازنيُّ : (مِائةُ سَنَةٍ) ، وقولهُ تعالى : { وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ } ؛ أي مَن كان هَمُّهُ مَقصوراً على طلب الدُّنيا دونَ الآخرةِ ، نحوُ أن يكون يريدُ بالجهادِ الغنيمةَ وبعمَلِهِ الذي فرضَهُ اللهُ عليه في الدُّنيا ويَغنَمُهَا خاصَّةً ، عجَّلنا له في الدُّنيا ما نشاءُ مِن عَرَضِ الدُّنيا لا ما يشاءُ العبد ، ولِمَن يريدُ أن يُعطِيَهُ لا لكلِّ مَن يطلبُ ، فأدخلَ اللهُ تعالى في إعطاءِ المراد من العاجِلَة استثناءً من استثناءٍ في العطيَّة ، واستثناءً في المعطِين ؛ لئلاَّ يَثِقُ الطالِبون للدُّنيا بأنَّهم لا محالةَ سينَالون بسَعيهم ما يريدون.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ } ؛ أي بهذا الذي لم يُرِدِ اللهَ بعمَلِهِ ، { يَصْلاهَا } ؛ أي يدخُلها ، { مَذْمُوماً } ؛ بذمِّ نفسهِ ويَذُمُّهُ الناسُ ، { مَّدْحُوراً } ؛ أي مَطرُوداً مُبعَداً من كلِّ خيرٍ.

(٠/٠)

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ } ؛ شَرَطَ اللهُ تعالى في ذلك ثلاثةَ شرائطَ : أحدُها : أنْ يريدَ بعملهِ ثوابَ الآخرةِ بالإخلاصِ في النيَّة.
والثاني : أن يسعَى في العملِ الذي يستحقُّ به ثوابَ الآخرةِ. والثالثُ أن يكون مُؤمناً ؛ لأنه إذا كان كَافراً لا ينتفعُ بشيءٍ من عملهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً } ؛ أي تُضَعَّفُ لهم الحسناتُ ، وتُمْحَى عنهم السَّيئاتُ ، وتُرفَعُ لهم الدرجاتُ ، وقال مجاهدُ : (شُكْرُهُ أنْ يُثِيبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ لَهُ ، وَيَعْفُوَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ).

(٠/٠)

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلاًّ نُّمِدُّ هَاؤُلاءِ وَهَاؤُلاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ } ؛ أي كلُّ واحدٍ من الفريقَين ممن يريدُ الدنيا ، وممن يريدُ الآخرةَ نُمِدُّهُ من رزقِ ربكَ ، { وَمَا كَانَ عَطَآءُ } ؛ رزقُ ، { رَبِّكَ مَحْظُوراً } ؛ أي مَحْبُوساً من البرِّ والفاجرِ. وفي هذا بيانُ أنَّ نِعَمَ الدنيا مشتركةٌ بينهم ، بخلافِ نِعَمِ الآخرةِ التي هي خاصَّةٌ للمتَّقين ،

ألاَ ترَى أن سائرَ نِعَمِ اللهِ من الشَّمسِ والقمر ؛ والهواءِ والماء ؛ والنباتِ والحيوانات ؛ والأغذيَةِ والأدويةِ ؛ وصحَّة الجسمِ والعافيةِ ؛ وغيرِ ذلك شاملةٌ للمؤمنِ والكافر.

(٠/٠)

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } ؛ أي انظُرْ يا مُحَمَّدُ كيف فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ في الرِّزق في الدُّنيا بالمال والخَدَمِ ، منهم الْمُقِلُّ ومنهم الْمُكْثِرُ ، هذا في الدُّنيا ، { وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } ؛ أي ولدرجاتُ الآخرةِ أكبرُ من درجاتِ الدُّنيا ، وفضائلُ الآخرة وثوابُها أرفَعُ مما فُضِّلوا في الدنيا ، فينبغي أنْ يكون سَعيُهم للآخرةِ أكثرَ.

(٠/٠)

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ } ؛ قِيْلَ : أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والمرادُ به كافَّةُ المكلَّفين كما في قولهِ تعالى : { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ }[الزمر : ٦٥]. وَقِيْلَ : هو خطابٌ للإنسانِ ، كأنَّهُ قالَ : لا تجعَلْ أيُّها الإنسانُ مع مَن له العَطَايا عَاجِلاً وآجلاً إلَهاً آخر ، { فَتَقْعُدَ } ؛ فتبقَى في جهنم ، { مَذْمُوماً مَّخْذُولاً } ؛ لا نَاصِرَ لكَ.

(٠/٠)

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } ؛ برّاً بهما وعَطْفاً عليهما ، وقولهُ

تعالى : { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا } ؛ أي إنْ عاشَا عندَكَ أيُّها الإنسانُ حتى يَكبُرَا ، وقرأ حمزة والكسائي (يَبْلُغَانِ) ؛ لأن الوالدينِ قد ذُكر قبلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ } ؛ تقذُّراً حين ترَى منهما شيئاً من الأذى ، بل أمِطْ عنهما كما كانا يُمِيطَانِ عنكَ في حالةِ الصِّغَرِ ، والأُفُّ هو وسَخُ الأظفارِ ، والتُّفُّ وسخُ الأُذن ، والمعنى : لا تتأَذى بهما ، كما لم يكُونَا يتأذيان بكَ ، قال صلى الله عليه وسلم " لَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئاً مِنَ الْعُقُوقِ أدْنَى مِنْ أُفٍّ لَحَرَّمَهُ ، فَلْيَعْمَلِ الْعَاقُّ مَا شَاءَ أنْ يَعْمَلَ ، فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ. وَلْيَعْمَلِ الْبَارُّ مَا شَاءَ أنْ يَعْمَلَ ، فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَنْهَرْهُمَا } ؛ أي لا تزجُرهما بإغْلاَظٍ وصِيَاحٍ في وجُوهِهما ، ولا تُكلِّمْهُما ضَجِراً ، { وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً } ؛ أي يكون فيه كرامةٌ لهما كقولِ العبدِ الْمُذْنِب للسيِّد الغليظِ ، كذا قال ابنُ المسيَّب ، وقال عطاءُ : (لاَ تَشْتُمْهُمَا وَلاَ تُبْكِيهِمَا ، وقُلْ لَهُمَا : يَا أبَتَاهُ ، يَا أُمَّاهُ).

(٠/٠)

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } ؛ أي وكُن لهما مُتضرِّعاً مُتَذلِّلاً ، فإنَّ خَفْضَ الْجَنَاحِ عبارةٌ عن الخضُوعِ ، والمبالغةِ في التذلُّل والتواضعِ ، وعن عطاء أنه قالَ : (جَنَاحُكَ يَدُكَ ، فَلاَ يَنْبَغِي لَكَ أنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ عِنْدَ أبَوَيْكَ ، وَلاَ أنْ تُحِدَّ بَصَرَكَ عَلَيْهِمَا تَعْظِيماً لَهُمَا).

وعن عُروة بنِ الزُّبير قال : (مَا أبَرَّ وَالِدَهُ مَنْ أحَدَّ النَّظَرَ إلَيْهِ). وَقِيْلَ : خفضُ الجناحِ عبارةٌ عن السُّكون ، قرأ الحسنُ وسعيد بن جبير وعاصم : (جَنَاحَ الذِّلِّ) بكسرِ الذال ؛ أي لا تَسْتَصْعِبْ معَهُما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } ؛ وهذا أمرٌ بالدُّعاء لهما بالرحمةِ والمغفرةِ إذا كانا مُسلِمين ، والمعنى : رب ارحَمهُما مثلَ رَحمتِهما أيَّايَ في صِغَري حتى ربَّانِي ، وقال قتادةُ : (هَكَذا عُلِّمْتُمْ ، بِهَذا أُمِرْتُمْ).

قال صلى الله عليه وسلم : " رِضَا اللهِ مَعَ رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسَخَطُ اللهِ مَعَ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " " مَنْ أمْسَى مَرْضِيّاً لِوَالِدَيْهِ وَأصْبَحَ ، أصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إلَى الْجَنَّةِ ، وَإنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِدٌ. وَمَنْ أمْسَى مُسْخِطاً لِوَالِدَيْهِ وَأصْبَحَ ، أصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إلَى النَّارِ ، وَإنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِدٌ " فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ فَإنْ ظَلَمَاهُ ؟ قَالَ : [وَإنْ ظَلَمَاهُ ؛ وَإنْ ظَلَمَاهُ ؛ وَإنْ ظَلَمَاهُ] " ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

(٠/٠)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ } ؛ أي هو أعلَمُ بما في قُلوبكم من الرَّحمة عليهما ، والمعنى : ربُّكم أعلمُ بما تُضمِرون من البرِّ والعُقوقِ ، فمَن ندرَتْ منه نادرةٌ وهو لا يُضمِرُ عُقوقاً غَفَرَ اللهُ له ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ } ؛ أي إن تكونُوا مُطِيعِينَ للهِ تعالى ، { فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً } ؛ أي للرَّاجِعين من الذُّنوب إلى طاعةِ الله ، النادِمِين على المعاصي والزَّلاَّتِ. والأوَّابُ : هو الذي يتوبُ مرَّةً بعدَ مرةٍ ، كلَّما أذنبَ بادرَ إلى التوبةِ. وعن مجاهدٍ : (أن الأَوَّابَ : هُوَ الَّذي يَذْكُرُ ذنْبَهُ فِي الْخَلاَءِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ).

(٠/٠)

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (أرَادَ بذِي الْقُرْبَى قَرَابَةَ الأنْسَانِ ، وَحَقُّهُ مَا يَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ). وقال بعضُهم : أرادَ به قرابةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وحقُّهم هو الحقُّ الذي يجب لهم من الْخُمَسِ. والتأويلُ الأول أقربُ إلى ظاهرِ الآية ؛ لأن ذكرَ القرابةِ معطوفٌ على ذكرِ الوالدَين ، وذلك عامٌّ في جميعِ الناس. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ } ؛ أي وآتِ المسكين وابنَ السَّبيل حقَّهم الذي وجبَ لهم من الزَّكاة والعُشرِ وغيرِهما.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } ؛ التبذيرُ : تفريقُ المالِ في المعصية ، قال مجاهدُ : (لَوْ أنْفَقَ دِرْهَماً أوْ مُدّاً فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى كَانَ مُبَذِّراً ، وَلَوْ أنْفَقَ فِي مِثْلِ أبي قُبَيْسٍ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ مُبَذِّراً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } ؛ أي أتباعَ الشَّياطين ، يَتبعونَهم ويَجْرُونَ على سُنَنِهم ، وَقِيْلَ : يُقْرَنُونَ بالشَّياطينِ في النارِ ، { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً }.

(٠/٠)

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا } ؛ معناه : إنْ أعرضتَ عن هؤلاءِ الذين أوصَيناكَ بهم من ذوي القُربَى والمساكينِ انتظارَ رزقٍ يأتيكَ من اللهِ تعالى ؛ لأنَّكَ لا تجدُ ما تصِلُهم ، وكنتَ مُنتظراً لرزقِ ربكَ ترجوهُ من اللهِ لتُعطِيهم منهُ ، { فَقُل لَّهُمْ } ؛ عندَ ذلك ، { قَوْلاً مَّيْسُوراً } ؛ سَهلاً لَيِّناً ، نحوَ أن تَعِدَهم عدةً حسنةً وبقَولِ : افْعَلُ ؛ وكرامةً ليس عندي اليومَ شيءٌ ، وسوف أُعطِيكُم ؛ وأقضِي حقَّكُم إذا ادركتُ الغُلَّةَ ، ووصَلَ إلَيَّ مالِي الذي في موضعِ كذا. أو تقولَ : يرزُقنا الله وإيَّاكم من فضلِهِ.

(٠/٠)

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ } ؛ أي تَبْخَلُ بالمنعِ من حقُوقِهم الواجبة لهم ، ومرادهُ : الذي يتركُ الإنفاقَ يكون بمنْزِلة مَن غُلَّتْ يداهُ إلى عُنقهِ ، فلا يعطِي من مالهِ شَيئاً في الخير ، وسُمِّي البخلُ بمثل هذه الصِّفات ، يقولون : فلانٌ قصيرُ البَاعِ ، وإذا كان كَريماً قالوا : طويلَ الباعِ ، وقال صلى الله عليه وسلم لنسائهِ : " أسْرَعُكُنَّ لَحَاقاً أطْوَلُكُنَّ يَداً " فَكَانَتْ زَيْنَبُ بنْتُ جَحْشٍ ؛ لأنَّهَا كَانَتْ أكْثَرَهُنَّ صَدَقَة.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ } ؛ أي لا تُخرِجْ جميعَ ما في يدِكَ مع حاجتِكَ وحاجة عيالك إليه ، { فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } ؛ ذا حَسرَةٍ تلومُ نفسَكَ وتُلاَمُ ، وتبقَى الحسرَةُ على ما تُخرِجهُ من يدِكَ ، والحسرةُ : الغَمُّ لانْحِسَارِ مَا فَاتَ ، وحَسَرَ عن ذراعهِ يَحْسُرُ حَسْراً إذا كَشَفَ عنه.

وقد قِيْلَ : إنَّ المرادَ بالخطاب في هذه الآية غيرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ ، وكان يجوعُ حتى يشُدَّ الحجرَ على بطنهِ ، وقد كان كثيرٌ من فُضَلاءِ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ يُنفقون جميعَ أمْلاكِهم في سبيلِ الله تعالى ، مِثْلَ ما فعلَهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه حتى يبقَى في عباءة ، فلم يُعنِّفْهمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يُنكِرْ عليهم لصحَّةِ يقينهم وشدَّةِ بصائرهم.

وإنما نَهَى اللهُ تعالى عن الإفراطِ في الإنفاقِ مَن خِيفَ عليه الحسرةَ على ما يخرجهُ من يدهِ ، كما رُوي

: " أنَّ رَجُلاً أتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِمِثْلِ بَيْضَةٍ مِنْ ذهَبٍ ، فَقَالَ : وَجَدْتُهَا فِي مَعْدِنٍ كَذا وَلاَ أمْلِكُ غَيْرَهَا ، فَتَصَدَّقَ بهَا ، فَأَخَذهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَرَمَاهُ بهَا حَتَّى لَوْ أصَابَهُ بهَا لَشَجَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : " إنَّ أحَدكُمْ لَيَتَصَدَّقُ بجَمِيعِ مَالِهِ ، ثُمَّ يَقْعُدُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ". " ومن الدليلِ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لَم يكن دَاخِلاً في هذا الخطاب : أن اللهَ تعالى قال { مَلُوماً مَّحْسُوراً } ومعلومٌ أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحسَّرُ على ما كان يملِكهُ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأن سببَ نُزولِ هذه الآية ما رُوي : " أنَّ امْرَأةً بَعَثَتِ ابْنَهَا إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ لَهُ : قُلْ : إنَّ أُمِّي تَسْتَكْسِيكَ دِرْعاً ، فَإنْ قَالَ لَكَ حَتَّى يَأْتِينَا شَيْءٌ ، فَقُلْ لَهُ : فَإنَّهَا تَسْتَكْسِيكَ قَمِيصَكَ ، فَفَعَلَ الابْنُ كَمَا قَالَتْ أُمُّهُ ، فَنَزَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قَمِيصَهُ وَدَفَعَهُ إلَيْهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَمِيصٌ يَخْرُجُ فِيْهِ إلَى الصَّلاَةِ " ، فنَزلت هذه الآيةُ بما فيها من الدلالةِ بالنَّهي عن الإمساكِ ، فيكون التحسُّرُ على هذا القولِ لتأخُّرِ خروجهِ إلى الصلاةِ بسبب القَميصِ.

(٠/٠)

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ } ؛ أي يوسِّعُ الرزقَ لمن يشاءُ ، ويُضيِّقُ على من يشاءُ ، على ما يرَى فيه المصلحةَ ، { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } ؛ وهذا كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرْضِ وَلَـاكِن }[الشورى : ٢٧].

(٠/٠)

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } ؛ أي خَشيَةَ الفقرِ والإقْتَارِ ، { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم } ؛ نزلَ في جماعةٍ كانوا يدفِنون بنَاتِهم خشيةَ الفَاقَةِ ، ولئَلاَّ يحتاجُوا إلى النفقةِ عليهم ، وكان ذلك مُستفيضاً شَائعاً بينهم وهي الْمَوْءُودَةُ التي ذكرَها اللهُ تعالى في قوله{ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ }[التكوير : ٨].

وقوله تعالى : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم } أي إنَّ رِزقَكم ورزقَ بناتِكم على اللهِ ، وإنْ كان لسببٍ يجري على أيدِيكم ، فإنَّ اللهَ تعالى لو لَم يُقوِّكُم على الاكتساب ولَم يُمكِّنكُم من تحصيلِ النفقة لم تتمَكَّنوا من تحصيلٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } ؛ أي إنَّ دَفنَهم أحياءً كان ذنباً عظيماً في العقوبةِ ، يقال : خَطِأَ الرجُل يَخْطَأُ خطأً مثل أثِمَ يأثَمُ إثماً ، وقرأ ابنُ عامر (خَطَأً) بفتحِ الخاء على أنه مصدرُ أخْطَأَ ، فيكون المعنى على هذا أنَّ قَتلَهم كان غيرَ صوابٍ.

(٠/٠)

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً } ؛ الفَاحِشَةُ ما تفاحَشَ قُبحهُ وتعظَّمَ ، فكان الزنَى قبيحاً في الفعلِ قبل ورُودِ السمعِ ؛ لأن فيه قطعَ الأنساب وما يتعلَّقُ به من الْمُحَرَّمَاتِ ، وإبطالِ حقِّ الولد على الوالدِ.
قال صلى الله عليه وسلم : " وَفِي الزِّنَى سِتُّ خِصَالٍ : ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا ، وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ. فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا : فَيُذْهِبُ نُورَ الْوَجْهِ وَيَقْطَعُ الرِّزْقَ وَيُسْرِعُ الْفَنَاءَ. وأمَّا اللَّوَاتِي فِي الآخِرَةِ : فَغَضَبُ الرَّب وَسُوءُ الْحِسَاب وَالدُّخُولُ فِي النَّارِ " ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَآءَ سَبِيلاً } ؛ أي بئْسَ الزِّنَى طَرِيقاً لمن يسلكهُ.

(٠/٠)

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ } ؛ أي لا تقتُلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ قتلَها إلا بحقٍّ تستحقُّ بهِ ، وهو أن يَقتُلَ نَفساً بغيرِ حقٍّ ، أو يَزنِيَ وهو مُحصَنٌ ، أو يرتدَّ عن الإسلامِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً } ؛ أي مَن قُتل بغيرِ حقٍّ ، فقد جَعلنا لوارثِهِ حجَّةً في كتاب الله تعالى في إيجاب القَوَدِ على القاتلِ ، وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ : (الْمُرَادُ بهَذا

السُّلْطَانِ : أنَّ لِلْوَلِيِّ أنْ يَقْتُلَ إنْ شَاءَ ، أوْ أخَذ الدِّيَةَ ، أوْ عَفَى). ويجوزُ أن يكون المرادُ بالسُّلطان السلطانَ الذي يلِي الأمرَ والنهيَ يجب عليه أن يُعِينَ وليَّ القتيلِ حتى يطلبَ قاتلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ } ؛ السَّرَفُ : أن يقتُلَ غيرَ القاتلِ كما يفعلهُ العربُ. وَقِيْلَ : معناهُ : ولا تُمَثِّلُوا بالقاتلِ في القتل. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً } ؛ يعنِي وليَّ المقتولِ ، حكمَ اللهُ له بذلك ، وأمرَ المؤمنين أن يُعينوهُ ، ويجبُ أيضاً على الإمامِ أن يُدفَعَ إليه القاتلُ. ويقالُ : معناه : إن المقتولَ كان منصُوراً بالثَّوابِ وبإيجاب القَصَاصِ لِوَلِيِّهِ ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ مِنْ أعْتَى النَّاسِ عَلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ : رَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ ، أوْ قَتَلَ بدَخَنٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أوْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللهِ ".

(٠/٠)

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ؛ أي إلا بما يؤدِّي إلى حفظهِ وصيانته وتَمييزِهِ ، وإنما خَصَّ اليتيمَ بذلك ؛ لأن الطمعَ في مالهِ أكثرُ ، وهو إلى الحفظِ أحوَجُ لِعَجْزِهِ عن حفظهِ بنفسه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } ؛ أي حتى يُكمِلَ ثَماني عشرةَ سَنة. وَقِيْلَ : معناهُ : حتى يبلُغَ وقتَ الْحَلُمِ ويكمل عقله.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } ؛ أي وأوْفُوا بعهدِ الله إليكم في أموالِ اليتَامى ، وكلُّ ما أمرَ اللهُ به ونَهى عنهُ فهو من العهدِ ، { إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } عنه للجزاءِ ، فحُذِفَ استكفاءً بدلالةِ الحال.

(٠/٠)

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إذا كِلْتُمْ } ؛ أي أتِمُّوهُ ولا تَبْخَسُوهُ ، { وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ } ؛ أي بميزان العدل ، قرأ أهلُ الكوفة (بالْقِسْطَاسِ) بكسر القافِ وهما لُغتان. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } ؛ أي ذلكَ الذي أمَرتُكم به خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبةً ، والتَّأْويلُ : هو الذي إليه مرجعُ الشيءِ من قولِهم آلَيَؤُولُ.

(٠/٠)

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } ؛ أي لا تَقُلْ ما ليسَ لك به علمٌ ، وقال قتادة : (لاَ تَقُلْ : سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ ، وَلَمْ تَرَ وَلَمْ تَسْمَعْ ، وَعَلِمْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ).
والقَفْوُ في اللغة : اتِّباعُ الأمرِ كأنه يتبَعُ الأثرَ ، ومنه القِيَافَةُ ، كانت العربُ يتَّبعون فيها أثرَ الآباءِ ، ويقولُ : قفوتُ الشيءَ أقْفُوهُ ؛ إذا اتَّبَعْتَ أثَرَهُ ، والمعنى على هذا : لا تُتْبَعَنَّ لسَانَكَ مِن القول ما ليس لكَ به علمٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ } ؛ يعني إنَّ المرءَ مسؤُولٌ يومَ القيامةِ عمَّا يفعلهُ بهذه الجوارحِ مِن الاستماعِ لِمَا لا يحلُّ ، والنظر الى ما لا يجوزُ ، والارادةِ لِمَا يَقْبُحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ أُولائِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } ؛ أي كلُّ هذه الجوارحِ والأعضاء ، ولَم يقُل تلكَ ، قال الشاعرُ : ذَمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُوْلَئِكَ الأَيَّامِويجوزُ أن يكون راجعاً إلى أصحَابها وأربَابها.

(٠/٠)

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً } ؛ أي بَطَراً وكِبْراً وخُيَلاَءَ ، والْمَرَحُ : شدَّةُ الفَرَحِ ، { إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ } ؛ بقَدَمَيكَ وكِبْرِكَ ، { وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ } ؛ بعَظَمَتِكَ ، { طُولاً } ؛ أي لا تُطاولُ الجبالَ فاستقصِرْ نفسَكَ عندما ترَى من سَعَةِ الأرضِ وبسطِها وعِظَمِ الجبال وطُولِها. من قرأ (مَرَحاً) بنصب الراء فهو المصدرُ ، ومَن قرأ بكسرِ الراء فهو اسمُ الفاعلِ.

(٠/٠)

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } ؛ أي كُلُّ ما تقدَّمَ مِن قولهِ تعالى{ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ }[الإسراء : ٣٠] إلى هذا الموضعِ كان سَيِّئَةً لا حسنةَ فيه ، وهذا على قراءةِ مَن قرأ (سَيِّئَةً) بالنصب ، وقرأ ابنُ عامر والكوفيُّون (سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبكَ) على الإضافةِ بمعنى : هذا الذي ذكرتهُ مِن قوله تعالى{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ }[الإسراء : ٢٣] إلى هذه الآيةِ ذكرُ الحسَنِ ، والسَّيِّءُ وقولهُ تعالى { مَكْرُوهاً } على قراءة من قرأ سَيِّئَةً بالنصب بدل من سَيِّئُهُ.

(٠/٠)

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ مِمَّآ أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } ؛ أي ذلك الذي سبقَ ذِكرهُ من هذه الأشياءِ مما أوحَى إليكَ ربُّكَ من صواب القول والعملِ ، { وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ } ؛ هذا خطابٌ لكلِّ مؤمنٍ ، كأنَّهُ قال : ولا تجعَلْ أيُّها الإنسانُ ، { فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً } ؛ تَلُومُ نفسَكَ ، { مَّدْحُوراً } ؛ أي مَطرُوداً من رحمةِ الله تعالى.
قال الكلبيُّ وابنُ عبَّاس : (هَذِهِ الثَّمَانِي عَشْرَةَ آيَةً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ... } إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً }[الإسراء : ٣٨] كَانَتْ فِي أَلْوَاحِ مُوسَى عليه السلام حِينَ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ ، وَقَدْ أَنْزَلَهَا عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَهِيَ فِي الْكُتُب كُلِّهَا مَوْجُودَةٌ لَمْ تُنْسَخْ قَطُّ).

(٠/٠)

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً } ؛ خطابٌ للمشركين الذين زعَموا أن الملائكةَ بناتُ اللهِ مُنكِراً عليهم ، تعالى اللهُ عن ذلكَ عُلُوّاً كَبيراً ، والمعنى : أفحَكَم لكم ربكم بالبنين ، فأخلصَ لكم البنينَ دونَهُ وجعل البناتِ مشتركةً بينَكم وبينَهُ ، فأخلَصَكم بالأجَلِّ وجعلَ لنفسه الأدْوَنَ ،

ولا يكون هذا من الحكمةِ أن يَخُصَّ الحكيمُ عَدُوَّهُ بالأشرفِ ويختارُ لنفسه الأَدْوَنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } ؛ في الكُفرِ والفِرْيَةِ على اللهِ تعالى.

(٠/٠)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَاذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ } ؛ أي بَيَّنَّا في هذا القرآنِ من الأمثال والعِبَرِ لِتَّعِظُوا بها ، { وَمَا يَزِيدُهُمْ } ؛ تصريفُ الأمثالِ ، { إِلاَّ نُفُوراً } ؛ أي تَبَاعُداً عن الإيمانِ. قرأ الأعمشُ وحمزة (لِيَذْكُرُوا) مخفَّفاً.

(٠/٠)

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : لو كانَ مع اللهِ آلِهَةٌ كما تقولُون أنتُم إذاً لطَلَبُوا ما يُقرِّقُهم إلى مالكِ العرشِ لعُلُوِّهِ عليهم وكونهِ أفضلَ منهم ، وهذا قولُ مجاهدٍ. وذهب أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ المعنى : لطَلَبُوا مُغَالَبَتَهُ ، وَابْتَغَوا طَرِيقاً لِيَقْهَرُوهُ ، كَفِعْلِ الْمُلُوكِ يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مُغَالَبَةَ صَاحِبِهِ لِيَصْفُو لَهُ الْمُلْكُ. وقرأ ابنُ كثير (كَمَا يَقُولُونَ) بالياءِ على معنى : كما يقولُ المشركون.

(٠/٠)

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً } ؛ قرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائي (عَمَّا تَقُولُونَ) بالتاء ، وقرأ الباقون بالياءِ. ومعنى الآيةِ : تَنْزِيهَاً للهِ عن كلِّ ما لاَ يليقُ بهِ من الولدِ والشَّريكِ ؛ أي يُرَفَّعُ

عما يقولون من إضافةِ البناتِ إلى اللهِ تعالى. وقولهُ تعالى { عُلُوّاً كَبِيراً } أي تَعظِيماً كَبيراً ، ولم يقل تَعَالِياً ؛ لأن المصدرَ قد يُذكَرُ لا على لفظِ الأوَّل كما في قولهِ تعالى : { وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }[المزمل : ٨].

(٠/٠)

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } ؛ قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائي بالتاء ، وقرأ غيرُهم بالياءِ. قال إبراهيمُ النخعيُّ وجماعةٌ من المفسِّرين : (إنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَبَّحَ للهِ حَتَّى صَرِيرُ الْبَاب) ، ولِهذا قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلَـاكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } ؛ أي لا تَعلَمُونَ ، قال الحسنُ والضحَّاك : (يَعْنِي كُلَّ شَيْءٍ فِيْهِ الرُّوحُ) ، وقال قتادةُ : (يَعْنِي الْحَيْوَانَاتِ) ، وقال عكرمةُ : (وَالشَّجَرُ يُسَبحُ وَالاسْطِوَانَةُ تُسَبحُ).
وَقِيْلَ : إن الترابَ يسبحُ ما دام يَابساً ، فإذا ابْتَلَّ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الماءَ يُسَبحُ ما دامَ جَارياً ، فإذا رَكَدَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الورقَ ما دامَ على الشَّجرِ يسبحُ ، فإذا سقطَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الثوبَ يسبحُ ما دامَ جَديداً ، فإذا توَسَّخَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الوحشَ إذا صاحتَ سبَّحَتْ ، فإذا سكَتَتْ تَرَكَتِ التسبيحَ.
وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَأَخَذ كَفّاً مِنْ حَصَى فَسَبَّحَ فِي يَدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى سَمْعْنَا التَّسْبيحَ ، فَصَبَّهُنَّ فِي أيْدِينَا فَمَا سَبَّحْنَ فِي أيْدِينَا "
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً } ؛ أي حَليماً لا يَعْجَلُ بعقاب الكفَّار ، غَفُوراً يَسْتُرُ الذنوبَ على عبادِهِ.

(٠/٠)

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً } ؛ نزلَ في

قومٍ من المشركين كادوا يُؤذُونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآنَ ، قال الكلبيُّ : (هُمْ أبُو سُفْيَانَ وَالنَّضْرُ بنُ الْحَرِثِ وَأبُو جَهْلٍ وَأُمُّ جَمِيلٍ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ ، حَجَبَ اللهُ رَسُولَهُ عَنْ أبْصَارِهِمْ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَكَانُواْ يَأْتُونَهُ وَيَمُرُّونَ بِهِ وَلاَ يَرَوْنَهُ)

وعن سعيدِ بن جُبير قال : " (لَمَّا نَزَلَتْ { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد : ١] جَاءَتِ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ تَجَنَّبْتَ عَنِ امْرَأةِ أبي لَهَبٍ لِئَلاَّ تُسْمِعَكَ ، فَإنَّهَا امْرَأةٌ نَدِيَّةٌ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنّ ّهُ سَيُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا " فَجَاءَتْ أُمُّ جَمِيلٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ ، وَهِيَ تَقُولُ : هَذا مِمَّا أبَيْنَا وَدِينِهِ قَلَيْنَا وَأمْرِهِ عَصَيْنَا.

وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسٌ وَأبُو بَكْرٍ إلَى جَنْبِهِ. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : لَقَدْ أقْبَلَتْ هَذِهِ وَأنَا أخَافُ أنْ تَرَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : إنَّهَا لَنْ تَرَانِي ، وَقَرَأ { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً }. قَالَ : فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ عِنْدَ أبي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : يَا أبَا بَكْرٍ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي ، فَقَالَ : لاَ وَرَبِ الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ ، فَانْدَفَعَتْ رَاجِعَةً ، فَقَالَ أبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ أمَا رَأتْكَ ؟ قَالَ : " لا ". قال : لِمَ ؟ قَالَ : " نَزَلَ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا يَسْتُرُنِي حَتَّى ذهَبْتُ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حِجَاباً مَّسْتُوراً } أي سَاتِراً لَهم عن إدراكِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ } ؛ أي منعناهم عن تدبُّرِ كلامِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في وقتٍ مخصوصٍ ، وهو الوقتُ الذي أرادوا إيذاءَهُ فيهِ ، { وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً } ؛ ففِي ذلك الوقتِ صرَفنا آذانَهم عن الاستماعِ إليه ، والمعنى : طبَعنا على قُلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ } ؛ يعني إذا قُلتَ : لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ ، وأنتَ تَتلُو القرآنَ ، { وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً } ، قال ابنُ عبَّاس : (كَارِهِينَ أنْ يُوَحِّدُواْ اللهَ) ، وقال قتادةُ : " إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَالَ : لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، أنْكَرَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ ". والمعنى : انصَرَفُوا عنكَ هاربين ؛ كراهةً لما يسمعونَهُ من توحيدِ اللهِ.

(٠/٠)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ } ؛ أي نحنُ أعلمُ بما يستَمعون إليه من قراءةِ القرآن ، أنَّهم لماذا يستَمِعون وأنَّ قَصدَهم به الأذى دون طلب الحقِّ ، فيسمعون إلى قِرَاءَتِكَ ، {

وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } ؛ في أمرِكَ يتَناجَوْنَ ، فيقولُ بعضهم : هذا كاهنٌ ، ويقول بعضُهم : هذا ساحرٌ ، ويقول بعضهم : هذا مجنونٌ ، ويقول بعضُهم : هذا شاعرٌ.
وَقِيْلَ : إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَمَرَ عَلِيّاً رضي الله عنه أنْ يتَّخِذ طَعاماً ، فيدعُو إليه أشرافَ قُريش من المشركين ، ففعلَ ذلكَ ، ودخلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآنَ ، ودعاهُم إلى التوحيدِ ، فكانوا يستَمِعون ويقولون فيما بينهم مُتَنَاجِينَ : هو ساحرٌ ، وهو مجنون مسحورٌ.
فأخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ بذلكَ ، وأنزلَ عليه { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } أي يتناجَون بينهم بالتكذيب والاستهزاءِ ، { إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي أُولئك المشركون : { إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } أي مغلوبَ العقلِ قد سُحِرَ ، وأُزيلَ عن حدِّ الاستواءِ.

(٠/٠)

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ } ؛ أي كيف وصَفُوا لكَ الأشباهَ ، فشَّبهوكَ بالمجنون والكاهنِ والساحر ، { فَضَلُّواْ } ؛ عن الحقِّ ، { فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } ؛ مَخرَجاً عن الضَّلالِ إلى الهدَى.

(٠/٠)

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً } ؛ أي إذا صِرْنَا عِظَاماً بَالِيَةً وصِرنَا تُراباً ، { أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } ؛ لنُبعَثُ بعدَ ذلكَ ؛ { خَلْقاً جَدِيداً } ؛ أيْ أنُبْعَثُ بعدَ ذلكَ ؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ منهم.
والرُّفَاتُ في اللغة : كلُّ شيءٍ يُحَطِّمُ ويُكَسَّرُ ، قال ابنُ عبَّاس : (يَقُولُونَ : إذا ذهَبَ اللَّحْمُ وَالْعُرُوقُ وَتَفَتَّتَ عِظَامٌ قَدْ بَلَتْ ، فَإذا مَسَّيْتَهُ بَيْنَ يَدَيْكَ انْسَحَقَ ، أَنُبْعَثُ بَعْدَ ذلِكَ).

(٠/٠)

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : كونُوا حجارةً إنْ قَدرتُم عليها ، أو أشدَّ منها بأن تكُونوا حَديداً ، أو أقوَى من الحديدِ ؛ { أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ } ؛ أو أيَّ شيءٍ من الخلقِ نحوَ السَّموات والأرضِ والجبالِ ، فإنِّي أُعيدكم لا محالةَ إلى ما كُنتم عليهِ من قَبْل.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا } أي إذا قُلْتَ لهم ذلكَ فسيقولون لكَ : مَن يُعِيدُنا ؟ { قُلِ } ؛ لَهم : يُعِيدُكم ، { الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ؛ لأنَّ مَن قَدَرَ على البناءِ كان على الهدمِ أقدرَ ، ومَن قدر على ابتداءِ الشيءِ كان على إعادتهِ أقدرَ.
قولهُ : { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ } ؛ أي فسيُحرِّكون إليكَ رُؤوسَهم تعجُّباً لقولِكَ ، والإنْغَاضُ : تحرُّكُ الرأس بالارتفاع والانخفاضِ على جهة الاستهزاءِ والاستبطاء ، { وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ } ؛ أي متى تكون الإعادةُ ، { قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً } ؛ أي قل عسى أن تكون الإعادةُ قريبةً ، و(عَسَى) مِن الله واجبةٌ ، { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ } ؛ في النَّفخةِ الثانية ، فتجيبون دَاعِيَ اللهِ حامِدين لله ، قال سعيدُ بن جبير : (يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُولُونَ : سُبْحَانَكَ وَبحَمْدِكَ ، وَلاَ يَنْفَعُهُمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ ؛ لأَنَّهُمْ حَمَدُوا حِينَ لاَ يَنْفَعُهُمُ الْحَمْدُ).
قولهُ : { وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي تظُنون أنَّكم لم تلبَثُوا في الدُّنيا إلا قَليلاً لسُرعةِ انقلاب الدُّنيا إلى الآخرةِ ، كما قال الحسنُ : (كَأَنَّكَ بالدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ وَبالآخِرَةِ وَلَمْ تَزَلْ).
ومِن المفسِّرين مَن قالَ : هذه الآية خطابٌ للمؤمنين ؛ لأنَّهم يستَجيبون للهِ بحمده على إحسانهِ إليهم ، كما قالَ صلى الله عليه وسلم : "كَأَنِّي بأَهْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَهُمْ يَنْفِضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَيَقُولُونَ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ".

(٠/٠)

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } ؛ وذلك " أنَّ المشركين كانوا يُؤذُونَ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بالقولِ والفعلِ بمكَّة ، فشَكَوا ذلكَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقالُوا : يَا رَسُولَ

اللهِ ائْذنْ لَنَا فِي قِتَالِهِمْ ، فَقَالَ : " إنِّي لَمْ أُؤْمَرْ فِيْهِمْ بشَيْءٍ " وكان ذلك قبلَ أن يُؤمَرَ بالجهادِ.
والمعنى : قُل للمؤمنين يقولون للكفَّار ، والمقالَةُ التي هي أحسَنُ من الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الرِّفقِ ، ويقولون لَهم : يَهدِيكُمُ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ } ؛ أي يُغْرِي المشركين على المسلمين ، فيوقعُ العداوةَ بينهم ويفسِدُ نيَّتَهم ، { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً } ؛ مُظْهِراً للعداوةِ.

(٠/٠)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } ؛ أي بأحوالِكم ، { إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ } ؛ بأن يُنَجِّيكُمْ من كفَّار مكَّة وينصُرَكم عليهم ، { أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ } ؛ أي يُسلِّطْهم عليكم ، { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } ؛ أي حَفيظاً وكفيلاً ؛ أي ما وُكِّلَ إليكَ إيمانُهم ، إنْ شاءَ اللهُ تعالى هدَاهُم ، وإنْ شاءَ خذلَهم.

(٠/٠)

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ لأنه خلَقَهم فهدَى بعضَهم وأضلَّ بعضهم على علمٍ منه بهم ، لم يَخْتَرْ بعضَ الملائكةِ والأنبياء لِمَيْلِهِ إليهم ، وإنما أختارَهم لِعلمهِ بباطنهم ، وقولهُ تعالى : { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ }.
قال قتادةُ : (اتَّخَذ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ، وَجَعَلَ عِيسَى كَلْمَتَهُ وَرُوحَهُ ، وَآتَى سُلَيْمَانَ مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ ، وَغَفَرَ لِمُحَمَّدٍ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً } ؛ يعني كِتَابَهُ الذي أعطاهُ إياه ، وهو مِائَةٌ وخمسون سورةً ، ليس فيها حُكمٌ ولا فريضة ، وإنما هو ثناءٌ على اللهِ تعالى.

(٠/٠)

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ } ؛ أي قالَ المفسِّرون : ابتلَى اللهُ كفارَ مكَّة بالقحطِ سنينَ ، فشَكَوا ذلك إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ ؛ أي قُل للمشركين : ادْعُوا الذين زعَمتُم أنَّهم آلهةٌ ، { فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ } ؛ أي البُؤْسِ والشدَّةِ ، { عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً } التحويلُ : النَّقْلُ من حالٍ الى حال.

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُولَـائِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ } ؛ معناهُ : أولئكَ الذين يْدعون إلى اللهِ في طلب الجنَّة ، ويطلُبون التقرُّبَ إليه ، فكيف تَعبُدونَهم أنتم. والوسيلةُ : القربَةُ إلى اللهِ تعالى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيُّهُمْ أَقْرَبُ } أي أقرَبُ إلى اللهِ بالوسيلة ، يعني يتقرَّبون إليه بالعملِ الصالح ، وعن ابنِ مسعودٍ في تفسيرِ هذه الآية : (أنَّ قَوْماً مِنَ الإِنْسِ كَانُواْ يَعْبُدُونَ قَوْماً مِنَ الْجِنِّ ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَبَقِيَ الإِنْسُ عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).
وقولهُ تعالى : { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } أي يطلبُون أن يعلَمُوا أيُّهم أقربُ إلى اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ } ؛ أي يريدون جَنَّتَهُ ، { وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } ؛ أي مما يجبُ أن يُحذرَ عنهُ.

(٠/٠)

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً } ؛ يعني بالموتِ أو معذِّبوها بعذاب الاستئصال ، ومعنى { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ } : وما مِنْ قريةٍ قال ابنُ مسعودٍ : (إذا ظَهَرَ الزِّنَى وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أذِنَ اللهُ فِي هَلاَكِهَا) ، وقال مقاتلُ : (أمَّا الصَّالِحَةُ فَبالْمَوْتِ ، وَأمَّا الطَّالِحَةُ فَبالْعَذاب).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَانَ ذالِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً } ؛ أي قضاءً من اللهِ ، كما يسمَعون ليس منه بدٌّ ، وَقِيْلَ : كان ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ مَكتوباً ، فإنه مكتوبٌ فيه كيفَ يُهلِكهم اللهُ ، ومتى يُهلِكهم ، وبأَيِّ عذابٍ يُهلكهم.

(٠/٠)

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مَنَعَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ } ؛ وذلكَ أنَّ قُريشاً قالت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : حوِّلْ لَنَا الصَّفَا ذهَباً ، وَنَحِّ الْجِبَالَ عَنَّا لنَنْفَسِحَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ؛ أي أنْ حوَّلتهُ فلم يؤمنوا لَمْ أُمهِلْهُمْ لسُنَّتي في مَن قبلَهم.

وموضع (أنْ) الأُولى نُصِبَ بتكذيب الأوَّلين برفعِ المنع عليه ، وموضعُ (أنْ) الثانية رَفعٌ تقديره : وما مَنَعَنَا الإرسالَ بالآياتِ إلا تكذيب الأوَّلين بها ، وهذا اللفظُ أغنَى عن لفظ المنعِ على طريق المجازِ ؛ لأن المنعَ لا يجوزُ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً } ؛ أي أخرَجنا لثمودَ الناقةَ ليُبصِرُوا بها الْهُدَى من الضَّلالة ، والسعادةَ من الشقاوةِ ، { فَظَلَمُواْ بِهَا } ؛ أي جَحَدوا بها وعَقَرُوها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً } ؛ أي العِبَرَ والدلالاتِ إلا تَخْوِيفاً للعبادِ ليُؤمِنُوا ، فإذا لم يفعَلُوا عُذِّبُوا.

قال قتادةُ : (يُخَوِّفُ اللهُ الْخَلْقَ بمَا شَاءَ مِنْ آيَةٍ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ أوْ يَرْجِعُونَ ، ذُكِرَ لَنَا أنَّ الْكُوفَةَ رَجَفَتْ عَلَى عَهْدِ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ : يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَاعْتِبُوهُ). وعن الحسنِ في قوله : { وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً } قال : (الْمَوْتُ الذريعُ).

(٠/٠)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } ؛ عِلْماً وقدرةً فَهُمْ في قبضتهِ لا يقدرون على الخروجِ عن مَشِيئته ، وهو مانعُكَ منهم وحافظُكَ ، فلا تتهيَّب وتخافُ منهم ، وامْضِ بما أُمِرْتَ به من تبليغِ الرِّسالةِ ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : أحَاطَ بالنَّاسِ ؛ أيْ أهْلَ مَكَّةَ أَنَّهَا سَتُفْتَحُ لَكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ } ؛ قال أكثرُ المفسِّرين : يعني ما ذُكِرَ في أوَّلِ هذه السُّورة من الإسراءِ في ليلةٍ واحدة من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصَى على معنى أنَّها شدَّةٌ من التكليفِ ، كما رُوي أنَّ المشركين استعظَمُوا ذلك وكذبوهُ ، فيكون معنى الرُّؤيا رؤيةَ العينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ } ؛ أي وما جعَلنا الشجرةَ الملعونةَ إلاَّ فتنةً للناس ، والشجرةُ الْمَلْعُونَةُ : شجرةُ الزَّقُّوم ، يقولُ العرب : لكُلِّ طعامٍ منارٌ معلوم ، وسَمَّوها فتنةً ؛ لأنَّهم قالوا : إنَّ النارَ تأكلُ الشجرةَ ، فكيف تنبتُ الشجرة في النارِ؟!

وقال ابن الزِّبْعَرَى : (مَا نَعْلَمُ الزَّقُّومَ إلاَّ التَّمْرَ وَالزُّبَدَ) فَهَذا الْكَلاَمُ مِنْهُمْ هُوَ فِتْنَتُهُمْ ؛ أيْ فُتِنُواْ بذلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً } ؛ أي نُخوِّفُهم بما نُرسِلُ الآياتِ ، فما يزدادون إلا تَجاوُزاً عن الحدِّ.

(٠/٠)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ } ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك. وقولهُ تعالى : { قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } ؛ أي قالَ إبليسُ : أأسجدُ لآدم وهو مخلوقٌ من طينٍ ؟ وهذا استفهامٌ بمعنى الإنكار ، ونُصِبَ (طِيناً) على الحالِ.

قال اللهُ تعالى حَاكياً عن إبليس : { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَاذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } أي قالَ إبليس : أخبرني عن هذا الذي كرَّمتهُ عليَّ ، لِمَ كرَّمتَهُ علَيَّ ، وقد خلَقتَني من نارٍ وخلقتهُ من طينٍ؟! اعتقدَ إبليس أنَّ النارَ أكرَمُ أصلاً من الطينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي لأَستأْصِلَنَّ ذُرِّيتَهُ بإغوائِهم ،

إلاَّ قليلاً منهم وهمُ الذين عصَمتَهم مني ، تقولُ العربُ : احْتَنَكَتِ السَّنَةُ أمْوالَنَا ؛ أي استأْصَلَتْهَا ، قال الشاعرُ : أشْكُو إلَيْكَ سَنَةً قَدْ أجْحَفَتْ وَاحْتَنَكَتْ أمْوَالَنَا وَاجْتَلَفَتْوَاحْتَنَكَتْ حَلَقَتْ ، وَاحْتَنَكَتِ الْجَرَادُ مَا عَلَى الأَرْضِ. وَقِيْلَ : معنى { لأَحْتَنِكَنَّ } أي لأقتطِعَنَّ ذُرِّيتَهُ إلى المعاصي ، يقالُ : احْتَنَكَ فلانٌ ما عندَ فلانٍ من مالٍ ، إذا اقتطعَهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لأَقُودَنَّ ذُرِيَّتَهُ إلى المعاصِي وإلى النار ، مِن قولهم : حَنَكَ دَابَّتَهُ يَحْنِكُهَا من الأَسْفَلِ بحَبْلٍ يَقُودُهَا بهِ.

(٠/٠)

قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً } ؛ أي فمَن تَبعَكَ من ذُرية آدمَ فإنَّ جهنمَ جزاؤُكم جزاء وافراً مُكَمَّلاً. قولهُ : { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ } ؛ أي اسْتَنْزِلْ واستَخِفَّ واستَجْهِلْ مَن استطعتَ منهم بدُعائِكَ في المعصيةِ ، مِن قولهم : صَوَّتَ فلانٌ ، إذا دعاهُ ، ويقال : أراد بالصوتِ صوتَ الغناءِ والمزامير ، وهذا لعَلَى وجهِ التهديدِ وإنْ كان في صورَةِ الأمرِ كقوله تعالى : { اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ }[فصلت : ٤٠] وكقولهم : أجْهِدْ جُهْدَكَ.

(٠/٠)

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ } ؛ أي صِحْ بخَيْلِكَ ورَجْلِكَ احْثُهُمْ على الإغواءِ ، يقالُ : أجْلَبَ على العدوِّ ، إذا جمعَ عليهم الخيولَ ، والمعنى على هذا : إجمعْ عليهم كلَّ ما تقدرُ من مكائدٍ ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : اسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بركَاب جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ). والْجَلْبُ هو قَوْدُ الشيءِ وسَوقُهُ بالصوتِ ، يقالُ للغنَمِ : جَلَبٌ وجَلُوبَةٌ ؛ أي جلبت من موضعٍ إلى آخر ، قال الحسنُ : (كُلُّ رَاكِبٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ خَيْلِ إبْلِيسَ ، وَكُلُّ مَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ رَجْلِ الشَّيْطَانِ) ، وقرأ حفصٌ (وَرَجِلِكَ) بنصب الراء وكسرِ الجيم وهما لُغتان ، أتبَعَ كسرةَ الجيمِ كسرةَ اللام ، وهذا على طريقِ الإهانَةِ لإبليسَ ، لاَ أنَّ له خَيْلاً ورَجِلاً ، كما يقولُ الرجل لغيرِهِ : أجْمِعْ خَيْلَكَ وَرَجِلَكَ وَمَا أمْكَنَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ } ؛ شِرْكَتهُ في الأموالِ أن يجعَلُوا شيئاً من أموالهم لغيرِ الله ، كما جعَلُوا من الحرثِ والأنعامِ ، وشِرْكَتهُ في الأولادِ أن سَمَّوا أولادَهم : عبدَ يَغُوث ، وعبدَ شمسٍ ، وعبدَ الحرب. وقال بعضُهم : شِرْكتهُ في أولادِهم أولاد الزِّنَى ، كذا قال مجاهدُ والضحَّاك. ويقالُ شركتهُ في الأموالِ كلَّ ما أُخذ من حرامٍ وأُنفِقَ في حرامٍ ، وشركتهُ في الأولادِ الذي يُهَوِّدَاهُ أبَوَاهُ ويُنَصِّرانِهِ ويُمَجِّسانِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً } ؛ أي مَنِّيهِمْ بما شِئتَ من الغُرور : من طولِ الحياةِ ، والتَّشكيكِ في البعثِ ، وما تكون مواعيدُ الشَّيطان إلا غُروراً ؛ أي تَزييناً بَاطِلاً.

(٠/٠)

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } ؛ أي " إلاَّ " في الوسوَسة ، فإما أن يَمنعَهم عن الطاعةِ ، أو يحملَهم على المعصيةِ فلا ، وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ أوليائي ليس لك عليهم حجَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً } ؛ أي حَافِظاً لأوليائهِ يعصِمُهم عن القبولِ من إبليس ؛ لأن الوكيلَ بالشيءِ يكون حَافظاً له.

ثُم ذكَرَ سبحانَهُ نِعَمَهُ على عبادهِ فقال :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ } ؛ أي ربُّكم الذي يسوقُ لكم ، ويُجرِي لكم السُّفنَ في البحرِ ، { لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ } ؛ أي لتطلبُوا ما كان مصلحةً لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم من التِّجارة وغيرِها ، { إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } ؛ حين أنعمَ عليكم بهذه النِّعم.

(٠/٠)

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ } ؛ أي يُخَلِّصُكم من الشدَّة في

البحرِ عند عَصْفِ الرياحِ وترادُفِ الأمواجِ ، وخِفتُم الغرقَ ، ضلَّ مَن تدعون من الأصنامِ عن تخليصِكم ؛ أي بَطَلَ وزَالَ ، ولا يرجُون النجاةَ إلا من اللهِ.
قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ نَسِيتُمُ الأَنْدَادَ وَالشُّرَكَاءَ ، وَتَرَكْتُمُوهُمْ وَأَخْلَصْتُمْ للهِ) ، { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ } ، فَلَمَّا أجَابَ دُعَاءَكُمْ وَنَجَّاكُمْ مِنَ الْبَحْرِ ، وَأَخْرَجَكُمْ إلى البَرِّ ونجاكم ، { أَعْرَضْتُمْ } ؛ عن الإيمانِ والطاعة ، ورجعتُم إلى ما كنتم عليهِ ، { وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً } ؛ لنِعَمِ اللهِ تعالى ، وأرادَ بالإنسانِ الكافرَ.

(٠/٠)

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ } ؛ معناهُ : أفأَمِنتُمْ بعدَ ذلك أن نَخسِفَ بكمُ الأرضَ كما فُعِلَ بقارونَ ، { أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً } ؛ أي حجارةً تُمطِرُ من السَّماءِ عليكم ، كما أمطَرتْ على قومِ لوط ، قال القُتَيْبِيُّ : (الْحَاصِبُ : الرِّيحُ الَّتِي تَرْمِي بالْحَصْبَاءِ) وهي الحصَى الصِّغار ، يقال : حَصَبَهُ بالحجارةِ ، إذا رمَاهُ بها مُتَتابعاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً } ؛ أي حَافِظاً يحفَظُكم من عذاب الله.

(٠/٠)

أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى } ؛ أي أمْ أمِنتُم أن يُعيدَكم اللهُ في البحرِ مرَّةً أُخرى ، { فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ } ؛ أي ريحاً شديدةً تَقْصِفُ الفُلْكَ ، قال أبو عُبيدة : (الْقَاصِفُ هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَقْصِفُ كُلَّ شَيْءٍ ؛ أيْ تَدُقُّهُ وَتُحَطِّمُهُ). وقال القتيبيُّ : (هِيَ الَّتِي تَقْصِفُ الشَّجَرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ } ؛ أي بكُفرِكم ، { ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً } ؛ أي لا تجدُوا لكم من يَتْبَعُنَا فيطالِبُنا بدمائِكم ، والتَّبيعُ : مَنْ يَتْبَعُ غَيْرَهُ لأمرٍ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ } ؛ أي فضَّلناهم بالعقلِ والنُّطقِ والتمييزِ ، وعامَلناهم معاملةَ الإكرامِ بالنعمة ، وجعلناهم يهتَدُون إلى مَعايشهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ؛ أي في البَرِّ على الدواب ، وفي البحرِ على السُّفن. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } ؛ أي لَذِيذِ المطاعمِ والمشارب ، قال مقاتلُ : (السَّمْنُ وَالزُّبْدُ وَالتَّمْرُ وَالْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } ؛ أي فضَّلنَاهم على كثيرٍ من حيواناتِ البرِّ والبحرِ ، ومِن تفضيلهم أنَّهم يأكُلون بالأيدِي ، وغيرُهم من الحيواناتِ يأكلون بالأفواهِ. ويقالُ : إنَّ ابنَ آدم يَمشِي مُنتَصِباً قائماً وسائرُ الحيواناتِ تَمشِي مُنْكَبَّةً.

ولم يقُل في الآية : عَلَى كلِّ مَنْ خلَقْنَا ؛ لأن اللهَ فضَّلَ الملائكةَ كما قالَ تعالى : { وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ }[النساء : ١٧٢] ولكنَّ ابنَ آدمَ مُفَضَّلٌ على سائرِ الحيوانات ، وقال عطاءُ في هذه الآيةِ : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ بتَعْدِيلِ الْقَامَةِ وَامْتِدَادِهَا) ، وقال محمَّدُ بن كعبٍ : (بأَنْ جَعَلَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم مِنْهُمْ). وَقِيْلَ : بحُسنِ الصُّورة ، وَقِيْلَ : الرِّجالُ باللِّحَا والنِّساءُ بالذوائب.

وَقِيْلَ : بتسلِيطهم على غيرِهم من الخلائقِ ، وبتسخيرِ الخلائق لَهم. وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في تفسيرِ الآية قال : " الْكَرَامَةُ الأَكْلُ بالأصَابعِ " وقولهُ : { وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } يعني الثِّمارَ والحبوبَ ، وكلَّ طعامٍ لَيِّنٍ ، ورَزَقَ الدوابَ النَّبنَ والحشيشَ والشَّوكَ.

(٠/٠)

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } ؛ يعني يومَ القيامةِ وهو منصوبٌ على معنى : واذْكُرْ يومَ ندعُو كلَّ أناسٍ بإمامِهم ؛ أي نَبيِّهِمْ ، فيقالُ : هاتُوا متَّبعِي إبراهيمَ ، هاتوا مُتَّبعي موسَى ، هاتوا متَّبعي عيسَى ، هاتوا متَّبعي مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فيقومُونَ يأْخذُونَ كُتبَهم بأَيمانِهم.

ثم يقالُ : هاتُوا متَّبعي الشيطانِ رؤساءَ الضَّلالةِ ، هاتوا مُتَّبعي الطاغوتِ ، فيقُومون ويُعطَونَ كُتبَهم بشمائلِهم. ويقالُ : يُدعَى كلُّ أُناسٍ بعَملهِ ، فيقالُ : أين صاحبُ هذا الكتاب ؟ أين فلانُ بن فلان الْمُصَلِّي ؟ وأين فلانُ بن فلان الصَّوَّام ؟ إلى أن يُنادِي بالعازفِ والدفَّافِ والرَّقاصِ ، فيُدعَى كلُّ أُناسٍ بعملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ } ؛ أي مَن أُعطِيَ كتابَهُ الذي فيه ثوابُ عملهِ بيمينه ، { فَأُوْلَـائِكَ يَقْرَؤونَ كِتَابَهُمْ } ؛ يفرَحُون ويُسَرُّونَ بما يقرَأُون ، وقولهُ تعالى : { وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً } ؛ ولا يُنقَصُونَ من ثواب أعمالهم مقدارَ الفَتِيلِ ، وهو القِشْرُ الذي في شِقِّ النَّواةِ ، ويقالُ : هو الوَسَخُ الذي تَفْتِلُهُ بين إصبعَيكَ.

(٠/٠)

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن كَانَ فِي هَاذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } ؛ أي مَن كان في هذه الدُّنيا التي هو مُشَاهِدٌ لها أعمَى عن الحجَّة ، لا يتفكَّرُ بقلبهِ في ملَكوتِ السَّموات والأرضِ ، فهو في الآخرةِ التي هي غائبةٌ عن عَينَيهِ أشدُّ عمًى ، وأخطأُ طَريقاً. ويقالُ : معناهُ : مَن كان في هذه الدُّنيا ضَالاً عن الحقِّ فهو في الآخرةِ أشدُّ تَحَيُّراً وذهَاباً عن طريقِ الحقِّ.

(٠/٠)

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ } ؛ وذلك " أنَّ ثَقيفاً أرسَلُوا وَفدَهُم إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينةِ ، فقالُوا : يَا مُحَمَّدُ نَحْنُ أخْوَالُكَ وَأصْهَارُكَ وَجِيرَانُكَ ، وَجِيرَانُ أهْلِ نَجْدٍ لَكَ سِلْماً وَصِرْهُمْ عَلَيْكَ حَرَباً ، إنْ سَالَمْنَا سَالَمَ مَنْ بَعْدَنَا ، وَإنْ حَارَبْنَا حَارَبَ مَنْ بَعْدَنَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَاذا تُرِيدُونَ ؟ " قَالُواْ : نُبَايِعُكَ عَلَى أنْ تُعْطِيَنَا ثَلاَثَ خِصَالٍ : أنْ لاَ نَنْحَنِي – يَعْنُونَ فِي الصَّلَوَاتِ – وَأنْ لاَ تُكْسَرَ أصْنَامُنَا بأَيْدِينَا ، تُمَتِّعُنَا بالأَصْنَامِ سَنَةً.

فَقَالَ لَهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لاَ صَلاَةَ فِيْهِ وَلاَ رُكُوعَ وَلاَ سُجُودَ ، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ عَلَى أنْ لاَ تَكْسِرُواْ أصْنَامَكُمْ بأَيْدِيكُمْ فَذلِكَ لَكُمْ ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ لَهَا مَنْ يَكْسِرُهَا ، وأمَّا الأَصْنَامُ فَأَنَا غَيْرُ مُمَتِّعُكُمْ بهَا " فَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ فَإنَّا نُحِبُّ أنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أنَّكَ أعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ غَيْرَنَا ، فَإنْ خِفْتَ أنْ تَقُولَ الْعَرَبُ أعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا ، فَقُلِ اللهُ أمَرَنِي بذلِكَ! فَسَكَتَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَلَمْ يَقُلْ لاَ : رَجَاءَ أنْ يُسْلِمُواْ " ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ } أي يَصرِفُونَكَ عن الذي أمَرنَاكَ من كَسْرِ آلِهتِهم وعَيب دِينِهم ؛ لتَفتَرِيَ علينا غيرَ الذي أمرنَاكَ به ، فلو فعلتَ ما أرادوهُ ، { وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } ؛ أي صَفِيّاً لمبايَعتِكَ إيَّاهم.

(٠/٠)

وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً } ؛ أي لقد كِدْتَ تَميلُ إليهم ، قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي حِينَ سَكَتَّ عَنْ جَوَابِهِمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ } ؛ أي إنَّكَ لو مِلْتَ إليهم لأذقناكَ ضِعْفَ عذاب الدُّنيا ، وضعفَ عذاب الآخرة ، يريدُ عذابَ الآخرةِ ضِعْفَ ما يُعذبُ به غيرهُ ، { ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } ؛ أي مَانِعاً يَمنعُنَا من تعذيبكَ ، قال ابنُ عبَّاس : (وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَعْصُومٌ ، وَلَكِنْ هَذا تَخْوِيفاً لأُمَّتِهِ ؛ لِئَلاَّ يَرْكَنَ أحَدٌ منَ الْمُؤْمِنِينَ إلَى أحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أحْكَامِ اللهِ تَعالَى وَشَرَائِعِهِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَلاَ أدْنَى مِنْ ذلِكَ ".

وذهبَ السديُّ في هذه الآياتِ : (إلَى أنَّ قُرَيْشاً قَالَتْ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنَّكَ تَرْفُضُ آلِهَتَنَا كُلَّ الرَّفْضِ ، فَلَوْ أنَّكَ تأْتِيهَا وَتَلْمِسُهَا وَتَبْعَثُ بَعْضَ وَلَدِكَ فَيَمْسَحُهَا ، كَانَ أرَقَّ لِقُلُوبنَا وَأحْرَى أنْ نَتَّبعَكَ! فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَبْعَثَ بَعْضَ وَلَدِهِ فَيَمْسَحَهَا ، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذلِكَ).

ويقال : إنَّهم قالوا : أُطْرُدْ سِقَاطَ الناسِ ومواليهم ، هؤلاءِ الذين رائحتُهم كرائحةِ الضَّأنِ حتى نتَّبعَكَ ، فَهَمَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يفعلَ رجاءَ أن يُسلِمُوا ، فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ.

وقولهُ تعالى : { وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا } ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لِمَّا قَدِمَ المدينةَ ، حسَدَتْهُ اليهودُ قالوا له : يَا مُحَمَّدُ أنَبيٌّ أنْتَ ؟ فَقَالَ : " نَعَمْ " قَالُواْ لَهُ : وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذِهِ بأرْضِ الأَنْبيَاءِ ، وَإنَّ أرْضَ الأَنْبيَاءِ الشَّامُ ، كَانَ بهَا إبْرَاهِيمُ وَعِيسَى ، فَإنْ كُنْتَ نَبيّاً

فَأْتِ الشَّامَ ، فَإِنَّ اللهَ سَيَمْنَعُكَ بهَا مِنَ الرُّومِ إِنْ كُنْتَ رَسُولَهُ ، وَهِيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَأَرْضُ الْمَحْشَرِ. فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الشَّامِ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الآيَةِ. ومعناها : وقد كَادُوا لَيَستَفِزُّونَكَ من أرضِ المدينة لِيُخرِجُوكَ منها إلى الشَّامِ ، { وَإِذاً } ؛ لو أخرَجُوكَ ، { لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً } ؛ أي الاَّ مدَّةً يسيرةً حتى يُهلِكَهم اللهُ. ومن قرأ (خِلاَفَكَ) فمعناهُ : مُخالَفَتِكَ.

(٠/٠)

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا } ؛ نَصْبٌ على المصدرِ ؛ أي سَنَّ لَهم سُنَّةَ مَن قد أرسَلنا ، فإن سُنَّةَ اللهِ قد جرت في مَن قبلِكَ من الرُّسل بأنَّ أُمَمَهم إذا أخرجُوهم من مواضِعهم لم يلبَثُوا إلا قليلاً ، والسُّنَّةُ : هي العادةُ الجارية. وقولهُ تعالى : { وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } ؛ أي لا يقدرُ أحدٌ على تحويلِ السُّنة التي أجرَاها اللهُ.
وقال مجاهدُ وقتادة : (هَمَّ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَكَّةَ حِينَ شَاوَرُواْ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْ فَعَلُواْ مَا أُمْهِلُواْ ، وَلَكِنَّ اللهَ كَفَّهُمْ عَنْ إِخْرَاجِهِ حَتَّى أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ). والقَلِيلُ : مَا لَبِثُوا بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَكَّةَ حَتَّى أَهْلَكَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، غيرَ أن التأويلَ الأول أصحُّ.

(٠/٠)

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ الَّيلِ } ؛ قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : (مَعْنَاهُ : أَقِمِ الصَّلاَةَ لِغُرُوب الشَّمْسِ) والصلاةُ المأمور بها على هذا هي المغربُ ، والغَسَقُ بُدُوُّ الليلِ ، وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في إحدى الرِّوايَتين عنه مثلُ قول ابنِ مسعود ، وفي الروايةِ الثانية وهو قولُ الحسنِ ومجاهد وقتادةُ : (إِنَّ دُلُوكَهَا زَوَالُهَا) وَالصَّلاَةُ المأمور بها على هذا الظهرُ والعصر والمغربُ والعشاءُ. فالغَسَقُ على هذا القولِ هو اجتماعُ ظُلمَةِ الليلِ.
قوله تعالى : { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } ؛ صلاةَ الفجرِ تشهدُها ملائكةُ الليلِ

وملائكةُ النهارِ يُصلُّونَها مع المسلمين. وإنما سُميت صلاةُ الفجرِ قُرْآناً ؛ لأن القراءةَ فيها طولٌ ، ولأن القراءةَ فريضةٌ من الرَّكعتين ، وفي هذا بيانُ أن الصلاةَ لا تكون إلا بقراءةٍ.

(٠/٠)

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (فَصَلِّ بالْقُرْآنِ). والتَّهَجُّدُ هو التَّيَقُّظُ بَعْدَ النَّومِ ، ويقالُ : تَهَجَّدَ إذا نامَ ، وتَهَجَّدَ إذا استيقظَ ، والمعنى : أقِمِ الصلاةَ بالليلِ بعد التيقُّظِ من النومِ ، ويقال : الْمُتَهَجِّدُ القائمُ إلى الصلاةِ من النوم ، وقيل له : مُتَهَجِّدٌ لانتفاءِ التجدُّدِ عن نفسهِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَافِلَةً لَّكَ } أي تطَوُّعاً ، وَقِيْلَ : فضيلةً لكَ لرفعِ الدرجات لا للكفَّارات ، فإنه عليه السلام قد غُفِرَ له من ذنبهِ ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ ، وليست لنا بنافلةٍ ، لكَثرَةِ ذُنوبنا وإنما هي كفارةٌ لغيرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، هكذا قال مجاهدُ. وقد رُوي ما يدلُّ على أنَّها نافلةٌ لغيرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو ما روَى أبو أُمامة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " الْوُضُوءُ يُكَفِّرُ مَا قَبْلَهُ ، وَتَصِيرُ الصَّلاَةُ نَافِلَةً " قِيلَ لَهُ : أنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قَالَ : نَعَمْ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلاَ مَرَّتَيْنِ وَلاَ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٍ وَلاَ خَمْسٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } ؛ أي المقامَ الذي تُحْمَدُ عاقبتهُ ، وهو المقامُ الذي يُعطيهِ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فيه لواءُ الْحَمْدِ تجتمعُ تحته الملائكةُ والأنبياء ، فيكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم أوَّلَ شافعٍ وأوَّلَ مُشفَّعٍ ، قال ابنُ عبَّاس : (وَعَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ). ويعني بقولهِ { مَقَاماً مَّحْمُوداً } أي يُعطِيكَ اللهُ يومَ القيامة مقاماً يحمدُكَ فيه الأوَّلون والآخِرون شرفٌ به على جميعِ الخلائق ، والمقامُ المحمود مقامُ الشَّفاعَةُ ، ومعنى { يَبْعَثَكَ } يُقِيمُكَ.

(٠/٠)

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ } ؛ أي أدخِلني المدينةَ

وأخرِجني من مكَّة. وَقِيْلَ : أدخِلني في ما أمَرتَّني به ، وأخرِجني من ما نَهيتني عنهُ. وَقِيْلَ : أدخِلني مُدخَلَ صدقٍ في جميع الأمور ، وأخرجني مُخرَجَ صدقٍ من جميعِ الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً } ؛ أي واجعَلْ لي من عندَكَ قوَّةً أمتنعُ بها عن مَن عادَانِي. وقِيْلَ : حجَّةً أتقَوَّى بها على إبطالِ سائرِ الأديان الباطلة.

وعن محمَّد بن المنكدر قال : " قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ دَخَلَ الْغَارَ : أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ " وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ مِنْ مَكَّةَ آمِناً مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَدْخِلْنِي مَكَّةَ مُدْخَلَ صِدْقٍ ظَاهِراً عَلَيْهَا بالْفَتْحِ) ، وقال عطيةُ عن ابنِ عبَّاس : (أَدْخِلْنِي الْقَبْرَ مُدْخَلَ صِدْقٍ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَأَخْرِجْنِي مِنْهُ مُخْرَجَ صِدْقٍ عِنْدَ الْبَعْثِ). وَقِيْلَ : المعنى : أدخلني حيث ما أدخلتَني بالصِّدقِ ، وأخرجني منه بالصِّدقِ ، أي لا تجعلني مِمَّن يدخلُ بوجهٍ ويخرجُ بوجهٍ آخرَ ، فإنَّ ذا الوجهَين لا يكون أميناً عند الله.

(٠/٠)

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } ؛ معنى : الحقُّ هو ما جاءَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم من الشَّرائعِ والإسلامِ ، وما جاءَ به من القُرآنِ ، وقال السديُّ : (الْحَقُّ الإِسْلاَمُ ، وَالْبَاطِلُ الشِّرْكُ). ومعنى (زَهَقَ) : بَطَلَ واضْمَحَلَّ.

قال ابنُ مسعودٍ وابن عبَّاس : [" لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ ، وَجَدَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ صَنَماً ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بمخْصَرَةٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً " فَكَانَ الصَّنَمُ يَنْكَبُّ لِوَجْهِهِ ، وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَتْبَعُونَهُ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ : مَا رَأَيْنَا رَجُلاً أَسْحَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ "

(٠/٠)

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي شفاءٌ للمسلمين في الدُّنيا

والآخرةِ ، يتبَرَّكون بقراءَتهِ على أنفُسِهم ، ويستَعينون به على دفعِ الأسقام والبلاَيا. وَقَيْلَ : شفاءٌ للقلوب يزولُ به الجهلُ منها كما يشفَى المريض.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } أي نعمةٌ مِن الله تعالى عليهم ، وكونُ القرآن شفاءٌ ؛ أي يُزِيلُ عمَى الجهلِ وحيرةَ الشكِّ ، فهو شفاءٌ من داءِ الجهلِ. وقال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ) ، ويؤيِّدُ هذا ما رُوي أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بالْقُرْآنِ فَلاَ شَفَاهُ اللهُ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً } ؛ أي لا يُزَادُ الكفارُ عند نزولِ القرآن إلا خَسَاراً لأنه لا ينتفِعُ به.

(٠/٠)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ } ؛ أي أنعَمنا عليه بكشفِ الضُّرِّ وتبديلِ البُؤسِ بالنعمةِ ، { أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } ؛ أي أعرضَ عن شُكرِه وتباعَدَ عن ذلك بنفسهِ ، وقولهُ تعالى : { وَنَأَى بِجَانِبِهِ } أي تعَظَّمَ وتكَبَّر وبعَّدَ نفسَهُ عن القيامِ بحقوق النِّعَمِ. يريدُ بالإنسانِ ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيدُ بالإِنْسَانِ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً } ؛ أي إذا أصابتْهُ شدَّةٌ كان قَنُوطاً من رجاءِ الفَرَجِ من اللهِ ، لا يَثِقُ بفضلِ الله تعالى على عبادهِ فيطمعُ في كشفِ تلك البليَّةِ من جهتهِ ، وهذه صفةُ الكافرِ.

(٠/٠)

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ } ؛ أي على طَبْعِهِ الذي جُبلَ عليه ، وَقِيْلَ : على عادتهِ التي ألِفَها ، وفي هذا تحذيرٌ من الفسادِ المسكون إليهِ ، وَقِيْلَ على فِتَنِهِ ، وَقِيْلَ : على طريقتهِ التي تشابهُ كلَّ أخلاقهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً } ؛ أي إنَّ اللهَ يعلمُ أيَّ الفريقَين على الهدى وأيُّهما على الضلالةِ من المؤمنين والكفَّارِ.

(٠/٠)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ؛ اختلَفُوا في الذي سأَلُوا عنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال بعضُهم : سأَلوهُ عن جبريلَ قد سَمَّاهُ اللهُ روحاً في قولهِ تعالى{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا }[الشورى : ٥٢] ، وعن عليٍّ رضي الله عنه قالَ : (إنَّ الرُّوحَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ وَجْهٍ ، فِي كُلِّ وَجْهٍ سَبْعُونَ أَلْفَ لِسَانٍ يُسَبحُ اللهَ تَعَالَى بكُلِّ لِسَانٍ مِنْ هَذِهِ الأَلْسِنَةِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذلِكَ الْمَلَكِ).

وعن عبدِالله بن مسعود قال : (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَمَرَّ بقَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : اسْأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لاَ تَسْأَلُوهُ ، ثُمَّ أَتَاهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ فَقَالُواْ لَهُ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا تَقُولُ فِي الرُّوحِ ؟ فَسَكَتَ ، ثُمَّ قَامَ فَاشْتَدَّ بيَدِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَحْيٌ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ... } الآية).

وعن ابن عبَّاس : (أَنَّ الْيَهُودَ اجْتَمَعُواْ فَقَالُواْ لِقُرَيْشٍ : سَلُوا مُحَمَّداً فِي ثَلاَثٍ ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ باثْنَيْنِ وَأَمْسَكَ عَنِ الثَّالِثَةِ فَهُوَ نبيٌّ ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ مَضَوا فِي الزَّمَانِ ، وَعَنْ رَجُلٍ بَلَغَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَاسْأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَسَأَلُوهُ عَنْ ذلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي الْفِتْيَةِ{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ }[الكهف : ٩]... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ ، وَأَنْزَلَ اللهُ{ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ }[الكهف : ٨٣]... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي الرُّوحِ { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ... } الآيَةُ ، وإِنَّمَا سَأَلَتْهُ الْيَهُودُ عَنِ الرُّوحِ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ قِصَّتُهُ وَلاَ تَفْسِيرُهُ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اسْمِهِ الرُّوحُ).

وقال سعيدُ بن جبير : (لَمْ يَخْلُقِ اللهُ خَلْقاً أَعْظَمَ مِنَ الرُّوحِ غَيْرَ الْعَرْشِ ، لَوْ شَاءَ أَنْ يَبْلَعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِمَا بلُقْمَةٍ فَعَلَ ، صُورَةُ خَلْقِهِ عَلصى صُورَةِ الْمَلاَئِكَةِ ، وَصُورَةُ وَجْهِهِ عَلَى وَجْهِ الآدَمِيِّينَ ، وَلَوْلاَ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ سِتْراً مِنْ نُورٍ لاحْتَرَقَتِ السَّمَوَاتُ مِنْ نُوره).

ويقالُ : أرادَ بالرُّوحِ روحَ الحيوانِ وهو ظاهرُ الكلامِ ، وفي روحِ الحيوان خِلافٌ بين العلماءِ ، وكلُّ حيوانٍ فهو روحٌ وبَدَنٌ ، وروحُ الحيوان جسمٌ رقيق على بُنيَةٍ حيوانيَّة ، في كلِّ جُزءٍ منها حياةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } أي من الأمرِ الذي لا يعلمهُ إلا ربي ، وإنما لم يُجِبْهُمْ عن ذلك ؛ لأن اليهودَ هم الذين سألوهُ عن الروحِ ، وكان في كتابهم أنه إنْ أجابَهم عن الروحِ فليس بنبيٍّ! فلم يُجِبهُم تصديقاً لِمَا في كتابهم ، وكانت المصلحةُ في هذا أن لا يُعرِّفَهم الروحَ من جهة النصِّ ، بل يكلِّمُهم في تعريفهِ إلى ما في عقولهم ، لِمَا في ذلك من الرياضةِ باستخراج الفائدة.

وقال بعضُهم : هو الدمُ! ألا ترَى أنه مَن نَزَفَ دمهُ ماتَ ، والْمَيْتُ لا يَفْقُدُ من جسمهِ إلا الدمَ.

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } ؛ أي لو شِئْنا لَمَحَونَا القرآنَ من القلوب والكتُب ، وأنسَيْنَا ذكرَهُ كَيلاَ يوجدَ له أثرٌ ، { ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً } ؛ تتوكَّلُ عليه في ردِّ شيءٍ منهُ ، وقولهُ تعالى : { إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ } ؛ أي لكِنْ لا نشاءُ ذلك إلا رحمةً من ربك ، فأثبتَ ذلك في قلبكَ وقلوب المؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } ؛ أي حيث اختارَكَ للنبوَّةِ ، واصطفاكَ للرسالةِ ، وخصَّكَ بالوحيِ والقرآن ، وجعلَكَ سيِّدَ ولدِ آدمَ ، وختمَ بك الأنبياءَ ، وأعطاكَ المقامَ المحمودَ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " أَنَّهُ خَرَجَ وَهُوَ مَعْصُوبُ الرَّأسِ مِنْ وَجَعٍ ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ ، فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي تَكْتُبُونَ ؟ أَكِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِ اللهِ ، كُلُّ مَنْ كَتَبَ كِتَاباً غَيْرَ كِتَابِ اللهِ يُوشِكُ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَيْهِ لِكِتَابِهِ ، وَلاَ يَدَعُ وَرَقاً وَلاَ قَلْباً إِلاَّ أُخِذ مِنْهُ " قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ بالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : " مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْراً بَقِيَ فِي قَلْبِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ".

وعن عبدِالله بن مسعودٍ : (إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلاَةَ ، وَلَيُصَلِّيَنَّ أَقْوَامٌ ولاَ دِينَ لَهُمْ ، وَإِنَّ هَذا الْقُرْآنَ لَيُصْبحَنَّ وَمَا فِيكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ) فَقَالَ رَجُلٌ : كَيْفَ يَكُونُ ذلِكَ يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ وَقَدْ أَتْقَنَّاهُ فِي قُلُوبنَا ، وَأَثْبَتْنَاهُ فِي مَصَاحِعِنَا ، نُعَلِّمُهُ أَبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : (يَسْرِي بِهِ فِي لَيْلَةٍ فَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ وَمَا فِي الْقُلُوب. وقرأ عبدُالله : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }).

وعن عبدِالله قالَ : (أَكْثِرُواْ الطَّوَافَ بالْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَتَبْنِي النَّاسُ مَكَانَهُ ، وَأَكْثِرُواْ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ) فَقِيلَ : هَذِهِ الْمَصَاحِفُ تُرْفَعُ ، فَكَيْفَ بمَا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ ؟ قَالَ : (يَسْرِي عَلَيْهِ لَيْلاً فَتُصْبحُواَ مِنْهُ فُقَرَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ قَوْلَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَتَقَعُونَ فِي قَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَارِهِمْ).

وعن عبدِالله بن عَمرٍو قال : (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْتَفِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ نَزَلَ بِهِ ، لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : مَا بَالُكَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَب مِنْكَ خَرَجْتُ وَإِلَيْكَ أَعُودُ ، أُتْلَى وَلاَ يُعْمَلُ بي).

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـاذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } ؛ هذا تكذيبٌ للنَّضرِ بن الحارثِ حين قالَ : لو نشاءُ لقُلنَا مثلَ هذا ، والمعنى : قُل لو اجتَمَعوا على أن يأتُوا بمثلهِ في حُسنِ النَّظْمِ ، وجودَةِ اللفظِ ، وجمعِ المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرةِ لا يأتُونَ بمثلهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } ؛ أي أعْوَاناً ، وأما رَفْعُ { لاَ يَأْتُونَ } ، فلأنَّ جوابَ القسَمِ غالبٌ على جواب (أنْ) لوقوعه في صدر الكلام.

(٠/٠)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـاذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } ؛ أي من التخويفِ والتَّرغيب ، { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً } وامتنعَ أكثرُهم ؛ أي أكثرُ أهلِ مكَّة إلا جُحوداً وإنكاراً للحقِّ.

(٠/٠)

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً } رَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس : " [أنَّ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَا رَبِيعَةَ ، وَأَبَا سُفْيَانَ ، وَالنَّضرَ بْنَ الْحَارِثِ ، وأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام ، وَالأَسْوَدَ بْنَ الْمُطَّلِب ، وَرَبِيعَةَ بْنَ الأَسْوَدِ ، وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ ، وَأَبَا جَهْلٍ ، وَأُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ ، وَالْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ وَغَيْرَهُمُ ، اجْتَمَعُوْا بَعْدَ غُرُوب الشَّمْسِ عِنْدَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إبْعَثُواْ إلَى مُحَمَّدٍ ، وَكَلِّمُوهُ وَخَاصِمُوهُ. فَبَعَثُوا إلَيْهِ أنَّ أشْرَافَ قَوْمِكَ قَدِ اجْتَمَعُواْ لَكَ لِيُكَلِّمُوكَ.
فَجَاءَ إلَيْهِمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم سَرِيعاً يَظُنُّ أنَّهُ بَدَا لَهُمْ فِي أمْرِهِ شَيْءٌ ، فَجَلَسَ إلَيْهِمْ فَقَالُواْ : يَا

مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَب أدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ ، لَقَدَ شَتَمْتَ الآبَاءَ ، وَعِبْتَ الدِّينَ ، وَسَفَّهْتَ الأَحْلاَمَ ، وَشَتَمْتَ الآلِهَةُ ، وَفَرَّقْتَ الْجَمَاعَةَ. فَمَا أمْرٌ قَبيحٌ إلاَّ وَقَدْ جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، فَإنْ كُنْتَ إنَّمَا جِئْتَ بهَذا الْحَدِيثَ تَطْلُبُ مَالاً ، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أكْثَرَنَا مَالاً ، وَإنْ كُنْتَ تَطْلُبُ بِهِ الشَّرَفَ فِيْنَا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا ، وَإنْ كَانَ هَذا الَّذِي بكَ تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ ، بَذَلْنَا أمْوَالَنَا فِي طَلَب الطِّب لَكَ حَتَّى نُبْرِيَكَ مِنْهُ!

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا بي مَا تَقُولُونَ ، مَا جِئْتُكُمْ بِهِ لِطَلَب أمْوَالِكُمْ وَلاَ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَنِي رَسُولاً وَأنْزَلَ عَلَيَّ كِتَاباً ، وَأمَرَنِي أنْ أكُونَ لَكُمْ بَشِيراً وَنَذِيراً ، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصْبرُ عَلَى مَا أمَرَ اللهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمِ ".

فَقَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ فَإنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا مَا عَرَضْنَا عَلَيْكَ ، فَقَدْ عَلِمْتَ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أحَدٌ أضْيَقَ بلاَداً وَلاَ أقَلَ مِنَّا ، فَاسْأَلْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ إلَيْنَا أنْ يُسَيِّرَ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا ، وَيَبْسُطَ لَنَا بلاَدَنَا وَيُجْرِيَ لَنَا فِيهَا أنْهَاراً كَأَرْضِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَلْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ أبَائِنَا ، وَلْيَكُنْ مِمَّنْ يَبْعَثُ لَنَا قُصَيَّ بْنَ كِلاَبٍ فَإنَّهُ كَانَ شَيْخاً صَدُوقاً ، فَنَسْأَلُهُمْ عَنْ مَا تَقُولُ : أحَقٌّ هُوَ أمْ بَاطِلٌ ؟ فَإنْ صَنَعْتَ لَنَا مَا سَأَلْنَاكَ وَصَدَّقُوكَ صَدَّقْنَاكَ ، وَعَرَفْنَا بذلِكَ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللهِ بأَنَّهَ بَعَثَكَ رَسُولاً كَمَا تَقُولُ.

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا بهَذا بُعِثْتُ ، إنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بمَا بَعَثَنِي ".

قَالُواْ : وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ هَذاَ فَاسْأَلْ رَبَّكَ يَبْعَثْ مَلَكاً يُصَدِّقُكَ ، وَيُعِينُكَ عَمَّا نَرَى بكَ ، فَإنَّكَ تَقُومُ فِي الأَسْوَاقِ تَتَلَمَّسُ الْمَعَاشَ. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا أنَا بالَّذِي يَسْأَلُ اللهَ هَذا ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيراً ونَذِيراً ".

قَالُواْ : فَأَسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ، كَمَا زَعَمْتَ أنَّ اللهَ مَا شَاءَ فَعَلَ! فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " ذلِكَ إلَى اللهِ ، إنْ شَاءَ فَعَلَهُ بكُمْ " فَقَالُواْ : قَدْ أُعْذِرْنَا إلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، أمَا وَاللهِ مَا نَتْرُكُكَ وَمَا فَعَلْتَ بنَا حَتَّى نُهْلِكَكَ أوْ تُهْلِكَنَا. وَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَأْتِيَ باللهِ وَالْمِلاَئِكَةِ قَبيلاً.

فَلَمَّا قَالُواْ ذلِكَ قَامَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَامَ مَعَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيُّ ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ عَاتِكَةُ بنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِب ، فَقَالَ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُواْ فَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أُمُوراً لأَنْفُسِهِمْ ؛ لِيَعْرِفُواْ بهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ فَلَمْ تَفْعَلْ ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ مَا خَوَّفْتَهُمْ بهِ مِنَ الْعَذاب فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَوَاللهِ لاَ أُؤْمِنُ بكَ أبَداً حَتَّى تَتَّخِذ سُلّ◌ًماً إلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ تَرْقَى فِيْهِ وَأنَا أنْظُرُ حَتَّى تَلِجَ بَابَهَا ، أوْ تَأْتِيَ مَعَكَ بنُسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ ، وَنَفَرٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أنَّكَ نَبِيٌّ كَمَا تَقُولُ ، وَأيْمِ اللهِ لَمْ فَعَلْتَ ذلِكَ لَظَنَنْتُ أنِّي لاَ أُصَدِّقُكَ.

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَى مَنْزِلِهِ حَزِيناً لِمَا نَالَهُ مِنْ سَفَاهَةِ قَوْمِهِ وَتَبَاعُدِهِمْ مِنَ اللهِ ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ حِينَ قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنَّ مُحَمَّداً قَدْ أتَى إلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْب دِينِنَا وَشَتْمِ آبَائِنَا وَتَسْفِيهِ أحْلاَمِنَا وَتَثْبيب آلِهَتِنَا ، إنِّي أُعَاهِدُ اللهَ لأَجْلِسُ لَهُ بحَجَرٍ غَداً

قَدْرَ مَا أُطِيقُ حَمْلَهُ ، فَإذا سَجَدَ فِي صَلاَتِهِ رَضَخْتُ بِهِ رَأسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً } "

(٠/٠)

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ } ؛ فَتُشَقِّقَ ، { الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً } ؛ في وسطِ ذلك البُستَان تَشْقِيقاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } ؛ مَن قرأ بسُكون السِّين ؛ أي قِطَعاً ، فجَمعُ الكثيرِ كسِدرَةٍ وسُدْرٍ ، وَقِيْلَ : أراد جَانِباً. ومن قرأ (كِسَفاً) بفتح السين فهو جمعُ القليلِ ؛ أي جمعُ كُسْفَةٍ ، يقالُ : أعْطِنِي كُسْفَةً من هذا الثوب ؛ أي قطعةً منه ، والكُسُوفُ هو انقطاعُ النُّورِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } ؛ قال قتادةُ والضحَّاك : (عَيَاناً) ، والمعنى : تأتِي بهم حتى نرَاهُم مقابلةً ونُشاهِدُهم ، ويشهَدُون على صدقِ دعوَاكَ.

(٠/٠)

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ } ؛ أي من ذهَبٍ ، والزُّخْرُفُ في الأصلِ هو الزِّينَةُ كما في قولهِ تعالى{ حَتَّى إِذَآ أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ }[يونس : ٢٤] أي بزينَتِها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ } ؛ معناهُ : أو تصعدُ ، { وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ } ؛ أي لن نصدِّقَك مع ذلك ، { حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً } ؛ تأتِينا بكتابٍ من الله ، { نَّقْرَؤُهُ } ؛ أنَّك رسولُ من اللهِ إلينا.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي } ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّد : تَنْزِيهاً لرَبي عن المقابَلةِ التي وصَفتُمْ ، فإنَّ العارفَ باللهِ يعلمُ أنه لا يجوزُ المقابَلةُ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } ؛ أي ما كنتُ إلا بَشراً رَسُولاً كسائرِ الرُّسل ، فلا أقدرُ على الإتيانِ بالآيات المقترَحة ، كما لم يقدِرْ عليها مَن

قبلِي من الأنبياءِ.
قرأ ابنُ مسعودٍ (أوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذهَبٍ) قال مجاهدُ : (كُنْتُ مَا أدْرِي مَا الزُّخْرُفُ حَتَّى رَأَيْتُهُ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي } ، قرأ أهلُ مكَّة والشام : (قَالَ سُبْحَانَ رَبي) يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً } ؛ أي ما صَرَفَ الناسَ إذ جاءَهم الْهُدَى إلاّ شبهةً أدخَلُوها على أنفُسِهم ، يعني قولَهم { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً } وهذه شبهةٌ ضعيفة ، ويعجَبُ منهم في غير التعجُّب ، ومرادُهم هَلاَّ بعثَ اللهُ بشَراً رسولاً ؟ فأجابَهم اللهُ بقولِهِ تعالى : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ } ؛ أي لو كان في الأرض ملائكةٌ يَمشُونَ على أقدامِهم مُقِيمين في الأرض كما أنتم مُقيمون فيها ، { لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً } ؛ مِن جِنسِهم ، { رَّسُولاً } ؛ كما أرسَلنا إليكم بشَراً من جِنْسِكم رسُولاً ، لأن الملَك إنما يُبعَثُ إلى الملائكةِ.

(٠/٠)

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } ؛ فإن اللهَ يشهدُ لِي بالنبوَّة في القرآنِ ، وأنتم تُنكِرُونَ نُبُوَّتِي ، { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } ؛ بأحوالِهم.

(٠/٠)

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ } ؛ أي من يُوَفِّقْهُ اللهُ لدينهِ بالطاعة فهو المهتدي ، { وَمَن يُضْلِلْ } ؛ أي مَن يخذُلْهم عن دينهِ ، { فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ } ؛ يَهدُونَهم من دون الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً } ؛ عما يسُرُّهم ، { وَبُكْماً } ؛ عما ينفعُهم ، { وَصُمّاً } ؛ عما يَمنَعُهم.

وَقِيْلَ : يُحشَرون في أول الحشرِ عُمياً وبُكماً وصُمّاً على هذه الصفةِ ، ثم تزولُ هذه الصفات عنهم فيَرَونَ ويتكلَّمون ويسمعون كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ }[الكهف : ٥٣] وقال{ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً }[الفرقان : ١٢] وقال{ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً }[الفرقان : ١٣]. ويقالُ : إنه لَمْ يُرِدْ بالحشرِ في هذه الآية الحشرَ عن القبرِ ، وإنما أرادَ به الحشرَ عن موضعِ الْمُحاسَبَة ، فإنَّهم يُسحَبُونَ عن ذلك الموضعِ على وجُوهِهم على هذه الصِّفاتِ. وعن أنسٍ : " أنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ : " إنَّ الَّذِي أمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيهِ عَلَى وَجْهِهِ ".

وعن أبي هريرةَ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أصْنَافٍ : صِنْفٌ مُشَاةٌ ، وَصِنْفٌ رُكْبَانٌ ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ " قِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : " إنَّ الَّذِي أمْشَاهُمْ عَلَى أرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ } ؛ أي مَصيرُهم إليها. وقولهُ تعالى : { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } ؛ أي كلَّما سَكَنَ لَهبُها من جانبٍ زدنَاها اشْتِعَالاً من جانبٍ آخر ، يقالُ للنار اذا سَكَنَ لَهبُها : خَمَدَتْ ، فَإذا أُطْفِئَتْ ولَمْ يبقَ فيها شيءٌ من النارِ قِيْلَ : هَمَدَتْ ، وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى { خَبَتْ } أيْ سَكَنَتْ) ، وقال مجاهدُ : (طُفِئَتْ) ، وقال قتادةُ : (لاَنَتْ وَضَعُفَتْ) ، وقولهُ تعالى : { زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } أي وَقُوداً.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى لماذا يزدَادُون سَعيراً ، فقال تعالى : { ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ أي ذلك العذابُ جزاءُ كُفرِهم بدلائلنا ، وإنكارِهم للبعثِ ، وهو قولُهم : { وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } ؛ في صِغَرِهم وضَعْفِهم ، ونظيرُ هذا قوله{ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ }[النازعات : ٢٧] وقولهِ تعالى : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ }[غافر : ٥٧] ولأنَّ مَن قَدَرَ على خلقِ الأكبر عُلِمَ أنه قادرٌ على خلقِ الأصغرِ ، فإذا قدرَ على خلقِ أمثالهم قدرَ على إعادَتِهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ } ؛ أي جعلَ لإعادَتِهم وقتاً لا شكَّ فيه أنه كائنٌ ، { فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً } ؛ جُحوداً مع وضُوحِ الدلالة والحجَجِ.

(٠/٠)

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً } ؛ جوابٌ لقولِهم : { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً }[الإسراء : ٩٠] المعنى : لو أنتم تَملِكون مقدورات رحمةِ ربي إذاً لأَمسَكْتُم لأنفُسِكم مخافةَ أن يَفْنَى بالإنفاقِ ولا يبقَى لكم ، وقوله تعالى : { خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ } ، أي خشيةَ الفقرِ والحاجة ، وَقِيْلَ : خشيةَ أن يُنفِقُوا فيَفتَقِروا.

(٠/٠)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } ؛ أي تِسْعَ دلالاتٍ واضحات ، قال ابنُ عبَّاس : (هِيَ الْعَصَا وَاللِّسَانِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةً فَرَفَعَهَا اللهُ ، كَمَا قَالَ : { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي *

يَفْقَهُواْ قَوْلِي }[طه : ٢٧-٢٨] والْبَحْرُ وَالْيَدُ ، وَالآيَاتُ الْخَمْسُ : وَهِيَ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمُ). وقال محمَّد بنُ كعبٍ : (هَذِهِ الْخَمْسُ وَالْعَصَا وَاللِّسَانِ وَانْفِجَارِ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ ، وَالطَّمْسِ كَمَا قَالَ{ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ }[يونس : ٨٨]. وَقِيْلَ : هي الخمسُ والعصى ويدهُ والسُّنون ونقصٌ من الثمراتِ.

قال محمَّد بن كعبٍ في الطَّمسِ : (كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ مَعَ أَهْلِهِ فِي فِرَاشِهِ ، وَإِذا قَدْ صَارَا حَجَرَيْنَ ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ الْقَائِمَةَ تَخْبِزُ وَقَدْ صَارَتْ حَجَراً ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ فِي الْحَمَّامِ وَأَنَّهَا لَحَجَرٌ ، وَكَانَتْ تَنْقَلِبُ الْفَوَاكِهُ وَالْفُلُوسُ وَالدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ أَحْجَاراً).

ورُوي : " أنَّ يَهُودِيّاً قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ حَتَّى نسْأَلَ هَذا النَّبيَّ ، فَأَتَيَاهُ فَسَأَلاَهُ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } قَالَ : " لاَ تُشْرِكُواْ باللهِ شَيْئاً ، وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ ، وَلاَ تَزْنُوا ، وَلاَ تَسْرِقُواْ ، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا ، وَلاَ تَسْحَرُواْ ، وَلاَ تَمْشُواْ ببَرِيءٍ إِلَى سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ ، وَلاَ تَقْذِفُواْ الْمُحْصَنَةَ ، وَلاَ تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يَا يَهُودُ أَنْ لاَ تَعْدَواْ فِي السَّبْتِ " فَقَبَّلُواْ يَدَهُ وَقَالُواْ : نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبيٌّ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ } ؛ الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ به غيرهُ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يقعُ له العِلمُ من عندِ الله ، فكان لا يحتاجُ في معرفةِ ذلك إلى الرُّجوعِ إلى أهلِ الكتاب ، فكأنَّهُ تعالى قال : فاسأل أيها السامعُ وأيها الشَّاكُّ بنَي إسرائيلَ إذ جاءَهم موسى بالبيِّنات ، قال ابنُ عباس : (فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّظِيرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَى مَسْحُوراً } ؛ أي إنِّي لأَظُنُّكَ يا موسى قد سُحِرتَ فلذلك تدَّعي النبوةَ ، وَقِيْلَ : هذا مفعولٌ بمعنى فاعلٍ كأنه قالَ : إنِّي لأَظُنكَ ساحراً ، وَقِيْلَ : المسحورُ المخدوع.

(٠/٠)

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَاؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي قالَ موسى لفرعونَ : لقد عَلِمتَ يا فرعون أنَّ هذه الآيات لا تدخلُ في مقدور العبادِ ، فلَمْ يُنْزِلها إلا ربُّ السموات والأرضِ ، { بَصَآئِرَ } ؛ أي حُجَجاً للناسِ يُبصَرُونَ بها في أمرِ دينهم ، { وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافِرْعَونُ مَثْبُوراً } ؛ وإني لأعلَمُ يا فرعون إنَّكَ هالكٌ ، يقال : ثَبَرَ الرجلُ فهو مَثْبُورٌ ؛ أي هالكٌ ، والظنَّ قد يُذكَرُ بمعنى اليقينِ على ما تقدَّمَ.

وقرأ الكسائيُّ (لَقَدْ عَلِمْتُ) بضمِّ التاء ، وهي قراءةُ عليٍّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) وقالَ : (وَاللهَ مَا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ ، وِلَكِنْ مُوسَى هُوَ الَّذِي عَلِمَ) فبلغَ ذلك ابنَ عبَّاس فقالَ : ({ لَقَدْ عَلِمْتَ } تَصْدِيقاً لِقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً }[النمل : ١٤]). وقراءةُ النصب أصحُّ وأشهر ، وليست قراءةُ الضمِّ مشهورةً عن عليٍّ رضي الله عنه ولا ثابتة ، وإنما روَاها عنه رجلٌ مجهول لا يُعْرَفُ ، ولا تَمسَّكَ بها أحدٌ من القرَّاء غيرَ الكسائيِّ.

وقولهُ تعالى : { مَثْبُوراً } قال ابنُ عبَّاس : (مَغْلُوباً) ، وقال مجاهدُ : (هَالِكاً) ، وَقِيْلَ : مُخَبَّلاً لا عقلَ لكَ ، وَقِيْلَ : بَعِيداً من الخيراتِ ، وَقِيْلَ : سِلاَخاً في القطيفةِ ، قال مجاهدُ : (دَخَلَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَرَأى فِرْعَوْنَ ثُعْبَاناً فَفَزِعَ وَأحْدَثَ فِي الْقَطِيفَةِ).

وروَى أبو سعيدٍ الجوهريُّ قال : (كُنْتُ قَائِماً عَلَى رَأسِ الْمَأْمُونِ وَهُوَ يُنَاظِرُ رَجُلاً وَهُوَ يَقُولُ : يَا مَثْبُورُ ، ثُمَّ أقْبَلَ إلَيَّ فَقَالَ : مَا مَعْنَى (مَثْبُوراً) ؟ قُلْتُ : لاَ أدْرِي ، فَقَالَ : حَدَّثَنِي الرَّشِيدُ قَالَ : حَدَّثَنِي الْمَهْدِي قَالَ : كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُور ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِرَجُلٍ : يَا مَثْبُورُ ، فَقُلْتُ : يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَعْنَى يَا مَثْبُورُ ؟ قَالَ مَيْمُونُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (يَا فِرْعَوْنَ مَثْبُوراً) مَا مَثْبُوراً ؟ قَالَ : نَاقِصُ الْعَقْلِ).

(٠/٠)

فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ } ؛ أي فأرادَ فرعونُ أن يُزعِجَ بني إسرائيلَ ، ويُخرِجَهم من أرضِ مصرَ قَهْراً. والاسْتِفْزَازُ : هو الخوفُ بالشدِّة ، ويجوز أن يكون المرادُ به أنه قصَدَ قَتلَهم ، { فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً } ؛ أي أمَرْنا موسى وقومَهُ بالخروجِ من مصرَ ، فتَبعَهُ فرعونُ وقومهُ ، فجعلنَا في الماءِ طريقاً يَابساً ، فجاوزَ موسى وقومهُ البحرَ ، فَتَبعَهُمْ فرعونُ وقومهُ ، فأطبَقنا الماءَ عليهم حتى غَرِقوا كلُّهم.

(٠/٠)

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ } ؛ من بعدِ هلاك فرعون ، { لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ } ؛ الشَّامَ وأرضَ مصرَ ، وأورثَ بني إسرائيلَ مساكِنَهم وديارَهم ، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه يفعلُ به وبالمشركين ما فعلَ بموسَى وعدُوِّهِ ، فأظهرَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على المشركين ، ورَدَّهُ إلى مكَّةَ ظَافراً عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } ؛ يعني يومَ القيامةِ جِئنَا بكم جَميعاً ؛ أي أتَينا بكم مِن كلِّ قبيلةٍ ، واللَّفِيفُ : الجماعاتُ من قبائلَ شتَّى ، وَقِيْلَ : جئنا بكم مُختَلِطِينَ لا تتعارَفُون ، والمعنى : جِئنا بكم من قُبورِكم إلى الْمَحْشَرِ أخلاطاً ، يعني جميعَ الخلقِ ، المسلمَ والكافرَ والبَرَّ والفاجرَ.

(٠/٠)

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } ؛ يعني القرآنَ ، ويجوز أن تكون الهاءُ كنايةً عن جبريلَ ، فإن اللهَ أنزلَهُ بالقرآنِ ، ونزَلَ هو به. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً } ؛ أي بَشيراً لِمَن أطاعَ بالجنَّة ، ومخوِّفاً بالنُّذُر للكفارِ.

(٠/٠)

وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ } ؛ معناه : وأنزَلنا قُرآناً فرَّقناهُ شيئاً بعد شيءٍ ، فإنه كان ينْزِلُ منه شيءٌ ، ثم يَمكثُون ما شاءَ اللهُ ، ثم ينْزِلُ منه شيءٌ آخر ، وكان بين أوَّهِ وآخرِهِ عشرون سَنة. وقولهُ تعالى : { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ } ؛ أي على تَثَبُّتٍ وتوقُّفٍ ليَفهموهُ بالتأمُّلِ ، ويعمَلُوا ما فيه بالتفكُّرِ ، وهو معنى قولهِ تعالى{ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً }[المزمل : ٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } ؛ تأكيداً لأَنزلنَاهُ مرَّةً بعدَ مرةٍ لِعظَمِ شأنهِ.

(٠/٠)

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة : آمِنوا بالقرآنِ أو لا تُؤمِنُوا ، وهذا وعيدٌ لَهم ؛ أي إنْ آمَنتُم وإنْ لَم تُؤمِنُوا ، فاللهُ غنِيٌّ عنكم وعن إيمانِكم ، وإيمانُكم لا ينفعُ غيرَكم ، وكفرُكم لا يضرُّ سِوَاكُم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ } ؛ أي مِن قبلِ نُزولِ القرآن ، والمرادُ بهم مُؤمِنوا أهلِ الكتاب ، { إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ } ؛ القرآنُ ، { يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ } ؛ أي يقَعُون على وجُوهِهم { سُجَّداً } ؛ لله ، والمرادُ بالأذقانِ الوجوهَ ، كذا قال ابنُ عبّاس.

(٠/٠)

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً } ؛ أي يقولُون في سُجودِهم : تَنْزيهاً للهِ عما لا يليقُ به ، وقد كان وعدُ ربنا كَائناً لا محالةَ. وهؤلاءِ الذين سجدوا كانوا يسمَعون أنَّ اللهَ يبعثُ نَبيّاً من العرب وينَزِّلُ عليه كِتَاباً ، فلما سَمعوا القرآنَ سَجَدوا للهِ وحمدوه على إنجازِ الوعدِ ببعثِ الرسولِ والكتاب ، وقالوا : قد كان وعدُ ربنا مَفعُولاً.

(٠/٠)

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ } ؛ أي يسقُطون على الوجوهِ يَبْكُونَ في السُّجودِ ، { وَيَزِيدُهُمْ } ؛ البكاءُ في السُّجودِ ، { خُشُوعاً } ؛ إلى خُشوعِهم ؛ لأن مخافَتهم الله داعيةً إلى طاعتهِ ،

والإخلاصِ في عبادتهِ.
وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ البكاءَ في الصَّلاةِ من خوفِ الله لا يقطعُ الصلاةَ ؛ لأن اللهَ مدَحَهم عليه. " وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم " أنَّهُ كَانَ يُصَلِّي ، فَيُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أزيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ ". وعن عبدِالله بن شدَّاد قالَ : (كُنْتُ أُصَلّي خَلْفَ عُمَرَ رضي الله عنه صَلاَةَ الصُّبْحِ ، وَكَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ يُوسُفَ حَتَّى إذا بَلَغَ{ إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ }[يوسف : ٨٦] سَمِعْتُ نَشِيجَهُ ، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ).

(٠/٠)

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـٰنَ } ؛ فقالَ ابنُ عبَّاس : (تَهَجَّدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذاتَ لَيْلَةٍ بمَكَّةَ ، فَجَعَلَ يَقُولُ في سجودِهِ : " يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ ". فَقَالَ أبُو جَهْلٍ : إنَّ مُحَمَّداً يَنْهَانَا أنْ نَعْبُدَ الَهَيْنِ وَهُوَ يَدْعُو إلَهاً آخَرَ مَعَ اللهِ يُقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ! وَهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الرَّحْمَنَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).
ومعناها : قل يا مُحَمَّدُ : أُدعوا اللهَ يا معشرَ المؤمنين ، أو ادعُو الرَّحْمَنَ ، إنْ شِئتُم فقُولُوا : يا رَحْمَنُ ، وإنْ شِئتُم فقولوا : يَا اللهُ يا رَحْمَنُ ؛ { أَيّاً مَّا تَدْعُواْ } ؛ أيُّ أسماءِ الله تدعوهُ بها ، { فَلَهُ الأَسْمَآءَ الْحُسْنَى } ؛ فأسْماؤهُ كلُّها حَسنةٌ فادعوهُ بصفاتهِ. وقوله تعالى : { أَيّاً مَّا تَدْعُواْ } قال بعضُهم : (مَا) في هذا صِلَةٌ ، ومعناها التأكيدُ ، تقديرهُ : أيّاً تدعون ، ومِثلهُ : عمَّا قليلٍ ، وخُذ مَا هُنالِكَ ، و{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }[أل عمران : ١٥٩].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ بمَكَّةَ ، كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا صَلَّى بأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بالْقُرْآنِ ، فَإذا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، وَلَعِبُوا وَصَفَّقُوا وَصَفَّرُواْ وَلَغَطُوْا ، كُلُّ ذلِكَ لِيُغْلِطُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَانُوا بِهِ يُؤْذُونَهُ ، وَإذا خَافَتَ بالْقِرَاءَةِ لَمْ يَسْمَعْهُ أصْحَابُهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). أي لا تجهَرْ بقِراءَتِكَ في الصَّلاةِ فيسمَعُها المشركون فيُؤذونَكَ ، فِي الصَّلاَةِ كُلِّهَا وَلاَ تُخَافِتْ بهَا فِي الصَّلاَةِ كُلِّهَا ، وَلَكِنِ اجْهَرْ بهَا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ ، وَخَافِتْ بهَا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ).
" وَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أبَا بَكْرٍ عَنْ قِراءَتِهِ باللَّيْلِ ، فَقَالَ : (أُخَافِتُ بهَا كَيْ لاَ أُؤْذِي جَاري ، أُنَاجِي رَبي وَقَدْ عَلِمَ بحَاجَتِي ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم " أحْسَنْتَ " وَسَأَلَ عُمَرَ رضي الله

عنه عَنْ قِرَاءَتِهِ باللَّيْلِ فَقَالَ : أَرْفَعُ صَوْتِي أُوْقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، فَقَالَ : " أَحْسَنْتَ " فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ لأبي بكر : " زِدْ فِي صَوْتِكَ " وقال لعُمر : " انْقُصْ مِنْ صَوْتِكَ " { وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً }. وعن ابن عباس أن معنى الآية : (لاَ تُصَلِّ مُرَاءَاةً لِلنَّاسِ وَلاَ تَدَعَهَا مَخَافَةً لِلنَّاسِ). " وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحسنِ الناس قراءةً ؟ فقال : " الَّذِي إذا سَمِعْتَ قِرَاءَتَهُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ تَعَالَى ".

(٠/٠)

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً } ؛ فيرثه ؛ { وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ } ؛ يعاونه عليه ، { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ } ؛ أي من أهل الذل وهم اليهود والنصارى ، يودون إخراج رؤوسهم ويقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال مجاهد : (مَعْنَاهُ : لَمْ يُحَالِفْ ، وَلَمْ يَبْتَغِ نَصْرَ أَحَدٍ) والمعنى أنه عَزَّ وَجَلَّ لا يحتاج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير,
وقوله تعالى : { وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } ؛ أي عظِّمهُ عظمّةً تامة عن أن يكون له شريك أو ولي وصِفْهُ بأنه أكبر من كل شيء ، وأنه القادر الذي لا يُعجِزهُ شيءٌ ، العالِمُ الذي لا يخفى عليه شيء ، الغنيُّ عن كل شيء. معتقداً لذلك بقلبك ، عاملاً على أمره فيما أمرك. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أَنَّهُ كَانَ إذا أَفْصَحَ الْوَلَدُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَّمَهُ هَذِهِ الآيَةَ { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً... } الآية ".
وروي أنَّ " رَجُلاً جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كَثِيرُ الدَّينِ كَثِيرُ الْهَمِّ ، فَقَالَ : " إِقْرَأْ آخِرَ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ { قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَانَ... } [الإسراء : ١١٠] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، ثُمَّ قُلْ : تَوَكَّلْتُ عَلَى الَّذِي لاَ يَمُوتُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ".
وعن ابن عباس أنه قال : ((مَنْ قَرَأَ سُورَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سَفَرٍ أَوْ حَضَرٍ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً ضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِ سُوراً مِنْ حَدِيدٍ مِنَ الْغَرَقِ وَالْحَرْقِ وَالْبَرْقِ)). وعن عبدالحميد أنه قال : ((مَنْ قَرَأَ آخِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِينَ السَّبْعِ ، وَالْبحَارِ وَالْجِبَالِ)).

(٠/٠)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ } ؛ أي الذي أنزلَ على عبدهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الْقُرْآنَ ؛ { وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } ؛ أي لَم يجعلْهُ مُلْتَبساً لا يُفْهَمُ ، ومِعْوَجَاً لا يَسْتَقِيْمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَيِّماً } ؛ أي مُستقيماً عَدْلاً ؛ أي مُستوياً قيما على الكُتُب كلِّها ناسخاً لشرائعِها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ } ؛ أي لِيُنْذِرَ العبدُ الذي أنزل عليه الكتابُ بَأْساً شَدِيداً ؛ أي لينذرَ الكفَّارَ عذاباً شديداً من عندِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً } أي ثَواباً حَسَناً في الجنة ؛ { مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً } ؛ أي مُقيمين في ذلك الأجْرِ خالدين فيه.

(٠/٠)

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } ؛ وهم قريشٌ واليهودُ والنصارى ، فإنَّ قُريشاً قالوا : الملائكةُ بناتُ اللهِ ، واليهودُ قالوا : عُزَيْرٌ ابنُ الله ، والنصارى قالوا : المسيحُ ابن الله.

(٠/٠)

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ } ؛ أي هم وآباؤهم كلُّهم مقلِّدين ليس لَهم على ذلك بيانٌ ولا حُجَّةٌ ، بل قالوا جَهْلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } ؛ أي كَبُرَتْ مقالتُهم تلكَ كلمةً تخرجُ من أفواهِهم ما ؛ { إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً } ؛ و(كلمةً) نَصْبٌ على التمييزِ ، وإنَّما كَبُرَتْ هذه الكلمةُ ؛ لأن صاحبَها يستحقُّ بها العذابَ ، ومِن ذلك سُميت الكبيرةُ كبيرةً ؛ لأن عقابَها يزيدُ على استطاعة صاحبها.

(٠/٠)

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ } ؛ فيه نَهْيٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم من إهلاكِ نفسه حُزناً عليهم بسبب إعراضِهم عن الإيْمان لشدَّة شفقتِهِ عليهم ، وحقيقةُ الأسفِ الحزنُ على من فاتَ.
ومعنى الآية : فَلعلَّكَ قاتلٌ نفسَكَ ، يقال بَخَعَ الرجلُ نفسَهُ إذا قتلَها غيظاً من شدَّةِ حُزنه على الشيءِ أو وَجْدِهِ بالشيءِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَى آثَارِهِمْ } أي مِن بعدهم ، يعني مِن بعدِ تولِّهم وإعراضهم عنكَ إن لَم يؤمنوا ، { بِهَاذَا الْحَدِيثِ } ؛ يعني القُرْآنَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَسَفاً } ؛ أي حُزناً.

(٠/٠)

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا } ؛ أي جعلنا جميعَ ما على الأرضِ مِن الأشجارِ والثِّمار والنباتِ والمياه والذهب والفضةِ والحيوان لهم منها زينةً للأرض ، وجعلناها محفوفةً بالشَّهواتِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً } ؛ أي لنأمرَهم فننظُرَ أيُّهُم أعملُ بطاعةِ الله هذا أم هذا.
فال الحسنُ : (أيُّهُمْ أزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأتْرَكُ لَهَا). وقال مقاتلُ : (أيُّهُمْ أصْلَحُ فِيْمَا أُوْتِيَ مِنَ الْمَالِ ، وَيُحْسِنُ الْعَمَلَ ، وَيَزْهَدُ فِي مَا زُيِّنَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا).
ثُم بيَّن اللهُ تعالى أنه يعني ذلكَ كلَّه ؛ فَقَالَ تَعَالَى : { وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً } ؛ أي يجعلُ ما عليها من الحيوانِ والنَّبات تُراباً يابساً مستوياً على الأرضِ ، والْجُرُزُ الأرضُ التي لا ماءَ فيها ولا نباتَ ، ويقالُ : سَنَةٌ جُرُزاً إذا كانت حرَّة. قال عطاءُ : (يُرِيْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْعَلُ اللهُ الأَرْضَ جُرُزاً لاَ مَاءَ فِيْهَا وَلاَ نَبَاتَ).

(٠/٠)

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً } ؛ أي لَم يكونوا بأعجب ، فقد كان مِن آياتنا ما هو أعجبُ من ذلك. قال الزجَّاجُ : (أعْلَمَ اللهُ أنَّ قِصَّةَ أهْلَ الْكَهْفِ لَيْسَتْ بعَجِيْبَةٍ ؛ لأَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا أعْجَبُ مِنْ قِصَّةِ أصْحَاب الْكَهْفِ).

والكهفُ : الغَارُ فِي الْجَبَلِ ، والرَّقِيْمُ : قِيْلَ : هو وادٍ دونَ فلسطين ، وهو الوادي الذي فيه أصحابُ الكهفِ ، وَقِيْلَ : الرقيمُ لوحٌ من حجارةٍ ، وَقِيْلَ : من رصاصٍ كتبوا فيه أسماءَ أهلِ الكهف وقصَّتَهم ثُم وضعوهُ على باب الكهفِ وهو على هذا التأويل بمعنى الْمَرْقُومِ ؛ أي المكتوب ، والرقيمُ : الْخَطُّ والعلامةُ ، والرقيمُ : الكتابةُ.

قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ قُرَيْشاً بَعَثُوا خَمْسَةَ رَهْطٍ إلَى الْيَهُودِ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ أمْرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالُوا لَهُمْ : إنَّهُ يَزْعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَاسْمُهُ مَحَمَّدٌ ، وَهُوَ فَقِيرٌ يَتِيمٌ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمٌ ، وَإنَّا نَزْعُمُ أنَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْ مُسَيْلَمَةَ ، فَإنَّهُ يَقُولُ : أنَا مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ ، وَنَحْنُ لاَ نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إلاَّ رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ – يَعْنُونَ مُسَيْلَمَةَ –.

فَلَمَّا أتَى هَؤُلاَءِ الرَّهْطُ الْمَدِيْنَةَ ، أتَوا أحْبَارَ الْيَهُودِ وَعُلَمَائَهُمْ فَسَأَلُوا عَنْهُ وَوَصَفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وَخَاتَمَهُ ، قَالُوا : نَحْنُ نَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ كَمَا وَصَفْتُمُوهُ ، وَلَكِنْ سَلُوهُ عَنْ ثَلاَثِ خِصَالٍ ، فَإنْ كَانَ نَبِيّاً أخْبَرَكُمْ بِخصْلَتَيْنِ ، وَلَمْ يُخْبِرْكُمْ بالثَّالِثَةِ ؟ فَإنَّا سَأَلْنَا مُسَيْلَمَةَ عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَلَمْ يَدْرِ مَا هِيَ ، وَأنْتُمْ سَلُوهُ عَنْ خَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، وَعَنِ الرُّوحِ ، وَعَنْ أصْحَاب الْكَهْفِ.

فَرَجَعُوا وَأخْبَرُوا قُرَيْشاً بذلِكَ ، فَسَأَلُوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : سَأُخْبِرُكُمْ غَداً ، وَلَمْ يَقُلْ إنْ شَاءَ اللهُ. فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَشُقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ نَزَلَ جِبْرِيْلُ بهَذِهِ الآيَةِ{ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذلِكَ غَداً * إلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ }[الكهف : ٢٣–٢٤].

ثُم أخبرَهُ عن أصحاب الكهف وحديثِ ذي القرنين وخبرِ أمر الرُّوح ، وحدَّثهُ أن مدينةً بالروم كان فيها ملكٌ كافر يدعو إلى عبادةِ الأوثان والنِّيران ، ويقتلُ مَن خَالَفَهُ ، وفي المدينةِ شابٌّ يدعو إلى الإسلامِ سرّاً ، فتابعهُ فتيةٌ من أهلِ المدينة ، فَفَطِنَ بهم الملكُ فأخذهم ، ودفعَهم الى آبائهم يحفظونَهم ، فمرُّوا بغلامٍ راعٍ ، فبايَعَهم ومعهُ كلبُهم حتى إذا أتَوا غاراً فدخلوهُ ، وألقَى اللهُ عليهم النَّومَ سنين عدداً ، والملكُ طالبٌ لَهم لَم يقِفْ على أمرِهم ، وَعمِيَ عليه خبرُهم ، فسدُّوا بابَ الكهف ليموتوا فيه إن كانوا هنالكَ.

ثُم عَمَدَ رجلٌ إلى لوحٍ رصاص ، فكتبَ فيه أسماءَهم وأسماءَ آبائهم ومدينتَهم ، وأنَّهم خرجُوا فراراً من

دِين ملكِهم في شهرِ كذا في سنة كذا وألزقَهُ بالسدِّ ، وكان السدُّ في داخل الكهفِ ، وذكر الفصةَ إلى آخرِها ، فهذا اللوحُ الرصاص هو الرَّقِيْمُ. فأخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قُريشاً بذلك ، فلما أتَوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قولَ اليهودِ أخبرَهم بخصلَتين ولَم يخبرهم بالثالثةِ ، قال كفارُ قريشٍ :

(٠/٠)

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ } ؛ أي اذْكُرْ لقومِكَ إذْ أوَى الْفِتْيَةُ يعني الشبابُ ؛ { فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً } ؛ نَنْجُوا بها مِن قومنا ، { وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } ، أي اجْعَلْ لنا طريقاً ومَخرجاً يوفِّقُنا إليكَ ، وارشِدْنا إلى ما يقرِّبنا إليكَ.

(٠/٠)

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً } ؛ أي أنمَناهُم في الكهفِ سنين معدودةً وهم أحياء يتعشَّون ، { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ } ؛ أي أيقظناهم من نومهم ؛ { لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً } ؛ أي ليعرف غيرُهم أنه ليس فيهم من يعرفُ مقدارَ السِّنين التي نَامُوا فيها ؛ والمرادُ بأحدِ الحِزْبَين : الفتيةُ ، والآخرُ ناسُ ذلك الزمانِ ، وقيلَ : أراد بأحدِ الحزبين : المؤمنينَ ، والحزبُ الآخر : الكافرين.

(٠/٠)

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بِالْحَقِّ } ؛ أي نُبَيِّنُ لكَ خبرَهم بالصِّدق ؛ { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ } ؛ أي شبابٌ ؛ { آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } ؛ أي ثَبَّتْنَاهُمْ على الإيْمانِ.

(٠/٠)

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ } ؛ أي أَلْهَمْنَا قلوبَهم الصبرَ ، وشجَّعناها حين قاموا بحضرة الكفَّار ؛ يعني بين يَدَي دقيانوس الذي كان يَفْتِنُ أهلَ الإيْمان حتى قالوا بين يديه ؛ { فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } ؛ أي كَذِباً وجُوراً ، والمعنى إنْ عَبَدْنَا غيرَ الله ودَعَوْنَا معهُ إلَهاً آخر ، قُلْنا قَوْلاً ذا شَطَطٍ ؛ أي مُتَجَاوِزاً للحقِّ في غايةِ البُطلان.

(٠/٠)

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ } ؛ أي قالُوا : هؤلاء قومُنا عَبَدُوا مِن دونِ الله ؛ { آلِهَةً } ؛ أي عبدُوا الأصنامَ ؛ يَعْنُونَ الذين كانوا في زَمَنِ دقيانوس ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ } ؛ أي هَلاَّ يأتون على عبادتِهم لَها بِبُرْهَانٍ واضحٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً } ؛ أي فمَنْ أظلمُ لنفسهِ ممن اختلقَ على اللهِ كَذِباً بأن جعلَ معه شريكاً في العبادةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ } ؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ ، قيلَ : إن القائلَ بهذا يَمليخا وهو رئيسُ أصحاب الكهف ؛ قال لأصحابِهِ : إذ فارقْتُموهم وتَنَحَّيْتُمْ عنهُم جانباً ؛ أي عن عبادةِ الأصنام { وَمَا يَعْبُدُونَ } ؛ وهذا آخرُ الكلام ثُم قال : { إِلاَّ اللَّهَ } ؛ يعني إلاَّ الله فلا تعتزلوهُ أي فلا تعتزلوا عبادتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ } ؛ أي فصيرُوا إلى الكهفِ ، واجعلوهُ مأواكم ؛ { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم } ؛ أي يبسِطْ لكم ؛ { مِّن رَّحْمَتِهِ } ؛ نعمته ؛ { وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً } ؛ ما تَرْفِقُونَ به هناك في معايشِكم يكون مخلِّصاً لكم مِن ظُلم هؤلاء الكفَّار. قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : وَيُسَهِّلْ عَلَيْكُمْ مَا تَخَافُونَ مِنَ الْمَلِكِ وَظُلْمِهِ). يقال : فيه (مَرْفَقاً) بكسر الميم وفتح القاف ، وفتحِ الميم وكسرِ الفاء ، وكذلكَ في مِرفق اليدِ.

(٠/٠)

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ } ؛ الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قرأ أهلُ الكوفة (تَزَاوَرُ) بالتخفيف على حذفِ إحدَى التَّائين ، وقرأ أهلُ الشام ويعقوبُ (تَزْوَرُّ) بوزن تَحْمَرُّ ، وكلُّها بمعنى واحد أي تَمِيْلُ ، وفيه بيانُ أن الكهفَ الذي أوَوا إليه كان بابهُ نحوَ القُطْب الذي يقربُ بباب نعشٍ ، وكانت الشمسُ تَطْلُعُ مزوارةً على باب الكهف عند الطلوعِ وعند الغروب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَاتَ الْيَمِينِ } ؛ أي ناحيةَ اليمين ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ } ؛ أي تَعْدِلُ عنهم. قال الكلبيُّ : (إذا طَلَعَتْ مَالَتْ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ يَمِيْنِ الْكَهْفِ ، وَإذا غَرَبَتْ تَمُرُّ بِهِمْ ذاتَ الشِّمَالِ يَعْنِي شِمَالَ الْكَهْفِ لاَ تُصِيْبُهُ ، وَكَانَ كَهْفُهُمْ فِي أَرْضِ الرُّومِ ، أَعْلَمَ اللهُ أَنَّهُ يُمِيْلُ عَنْهُمْ الشَّمْسَ طَالِعَةً وَغَارِبَةً ، لاَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فَتُؤْذِيَهُمْ بحَرِّهَا وَتُغَيِّرَ أَلْوَانَهُمْ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ } ؛ أي في مُتَّسَعٍ من الكهفِ ، هَيَّأَ اللهُ لَهم مكاناً واسعاً لا يصيبُهم فيه حَرٌّ ولا سَمومٌ ، ولا يتغيرُ لَهم ثوبٌ ولا لون ولا رائحةٌ ، ولكن كان ينالُهم فيه نسيمُ الرِّيح وبردُها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ } القَرْضُ من قولِهم : قَرَضْتُهُ بالْمِقْرَاضِ ؛ إذا قَطَعْتُهُ ، كأنهُ قال : تقطعُهم ذاتَ الشمالِ. وَقِيْلَ : تعطيهم اليسيرَ مِن شُعاعها عند الغروب ، كأنه شبَّهَهُ بقرضِ الدراهم التي تُعطى ثُم تستردُّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ } ؛ أي إبقاؤُهم طولَ السنين التي ذكرَها اللهُ نياماً لا يستطيعون يستيقظون من دون طعامٍ ولا شَراب ، { مِنْ آيَاتِ اللَّهِ }. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً } ظاهر المعنى.

(٠/٠)

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

قولهِ تعالى : { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ } ؛ تظنُّهم يا مُحَمَّدُ منتَبهين وهو نائمونَ ، وإنَّما كان يحسَبُهم الرَّائي منتبهينَ ؛ لأنّهم كانوا نياماً وهم مفتوحُو الأعيُنِ ، وكانوا يتنفَّسُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } ؛ قرا الحسنُ (وَنُقْلِبُهُمْ) بالتخفيفِ ، والمعنى نقلبُهم تارةً عن اليمين إلى الشمال ؛ وتارةً عن الشمالِ إلى اليمين ، كما نقلبُ النائمُ ؛ لئلاَّ تأكُلَ الأرضُ أجسامَهم. ذكرَ قتادةُ : (أنَّ لَهُمْ فِي عَامٍ تَقْلِيبَيْنِ) ، وعن ابنِ عبَّاس : (فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ } ؛ أي على باب الفجوة أنامَهُ الله كذلكَ ، والوَصِيْدُ مِن قولِهم : أوْصَدْتُ البَابَ ، وَأصَدْتُهُ إذا أغلقتهُ ، وقد يقالُ لذلكَ الأصِيْدُ أيضاً ، وَقِيْلَ : الوَصِيْدُ فناءُ الكهفِ. وقال سعيدُ بن جُبير : (الْوَصِيْدُ : التُّرَابُ). وقال السديُّ : (الْوَصِيْدُ : الْبَابُ). وقال عطاءُ : (عَتَبَةُ الْبَاب).

وكان لونُ الكلب أحمرَ ، كذا قال ابنُ عبَّاس ، وقال مقاتلُ : (كَانَ أصْفَرَ يَضْرِبُ إلَى الْحُمْرَةِ) وَقِيْلَ : كان كلونِ الحجَرِ ، وَقِيْلَ : كلونِ السَّماء. قال عليٌّ رضي الله عنه : (كَانَ اسْمُهُ رَيَّان). وقال ابنُ عبَّاس : (قِطمِيْرُ). وقال سفيانُ : (اسْمُهُ حِمْرَانُ). وقال عبدُالله بن سلام : (لسْمُهُ نَشِيْطٌ). روي عن بعضِهم أنه مما أخذ على الكلب أن لا يضرَّ بأحدٍ يقرأُ : وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً } ؛ أي لو اطَّلَعْتَ عليهم يا مُحَمَّدُ لَوَلَّيْتَ منهم فِراراً لِما ألبَسَهم اللهُ تعالى من الْهَيْبَةِ حتى لا يصلَ إليهم أحدٌ حتى يبلغَ الكتابُ أجَلَهُ فيهم وينتبهوا من رقدتِهم. وَقِيْلَ : لأنَّهم كانوا في مكانِ مُوحِشٍ من الكهفِ ، وَقِيْلَ : لأن أعيُنَهم مفتحةً كالمستيقظ الذي يريدُ أن يتكلَّمَ وهم نيامٌ.

وعن ابنِ عبَّاس قال : (غَزَوْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ نَحْوَ الرُّومِ فَمَرَرْنَا بالْكَهْفِ الَّذِي فِيهِ أصْحَابُ الْكَهْفِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : لَوْ كَشَفَ لَنَا عَنْ هَؤُلاَءِ فَنَظَرْنَا إلَيْهِمْ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَيْسَ لَكَ ؛ قَدْ مَنَعَ اللهُ ذلِكَ عَنْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، فَقَالَ : لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً ؛ { وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } ؛ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : لاَ أنْتَهِي حَتَّى أعْلَمَ عِلْمَهُمْ ، فَبَعَثَ أُنَاساً فَقَالَ : اذْهَبُوا وَانْظُرُواْ ، فَفَعَلُوا فَلَمَّا دَخَلُواْ الْكَهْفَ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيْحاً فَأَخْرَجَتْهُمُ مِنَ الْكَهْفِ).

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ } ؛ أي وكذلكَ أيقظناهُم ، كما أنَمناهُم ليتحدَّثوا ويسألوا بعضَهم بعضاً ، { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ } ؛ وهو رئيسُهم وسُمِّي مكسلميا : { كَم لَبِثْتُمْ } ؛ في نومِكم في الكهفِ ؛ { قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً } ؛ فلما نظَرُوا إلى الشَّمسِ ، وقد بَقِيَ منها شيءٌ ؛ قالوا : { أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } ؛ تَوَقِّياً من الكذب ، فلما نظَرُوا إلى أظفارِهم وأشعارِهم علموا أنَّهم لبثُوا أكثرَ من يومٍ ؛ ف ؛ { قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَابْعَثُواْ أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَاذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ } ؛ أي فابعثوا يَمليخا ، والوَرقُ الفِضَّةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبةٍ ، وأما المدينةُ فهي أفسوس ، وَقِيْلَ : طرسوسُ ، كان اسْمُها في الجاهلية : أقسوس ، فلما جاءَ الإسلامُ سَمَّوها طرسوسُ. ومعنى الآيةِ : فابعثُوا أحدُكم بدراهمكم هذه إلى السُّوق ؛ { فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَى طَعَاماً } ؛ أي أحَلَّ ذِبْحَةً ؛ لأن عامَّتَهم كانوا مَجُوساً ، وفيهم مؤمنون يُخفون إيْمانَهم ، وَقِيْلَ : أطيبَ خُبزاً وأبعدَ عن الشُّبهة ، لأن مَلِكَهم كان يظلمُ الناسَ في طعامهم ، وكانوا يحسبون أن ملكَهم دقيانوس الكافرُ. وقال عكرمةُ معناه : (أكْثَرَ وَأفْضَلَ) في معنى أنَّ الزكاةَ هو الزيادةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ } ؛ أي بقُوتٍ وطعام. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلْيَتَلَطَّفْ } ؛ أي يتوقَّف في الذهاب والْمَجيءِ ، وفي دخولِه المدينة حتى لا تعرفَهُ الكفارُ ؛ { وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } ؛ أي لا يخبرنَ أحدٌ من أهلِ المدينة بمكانكم.

(٠/٠)

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ } ؛ أي إنهم إنْ علِمُوا مكانَكم رجموكُم بالحجارةِ حتى يقتلوكم ، وَقِيْلَ : يشتموكُم ويؤذوكم ، وكان من عادتِهم القتلُ بالرَّجمِ وهو أخبثُ القتل. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ } ؛ أي إلى دِينهم وهو الكفرُ ؛ { وَلَن تُفْلِحُواْ إِذاً أَبَداً } ؛ إن عُدْتُمْ إلى دِينهم ، وَلم تظفَرُوا الخيرَ في الدُّنيا والآخرة.

فإن قيلَ : أليسَ لو أكرهوهم ، وأظهَرُوا الكفرَ لَم يكن في ذلك مَضَرَّةً عليهم ؟ قِيْلَ : يجوزُ أنه لَم يكن في شريعةِ الإسلام جوازُ إظهار كلمة الكفر على وجه التُّقيةِ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } ؛ أي أطْلَعْنَا عليهم ، وذلك أنَّهم لَمَّا بَعَثُوا بورِقِهم على يدِ يَمليخا ومضَى إلى السُّوق ، فإذا ملكُهم مسلمٌ قد أظهرَ علامات الإسلامِ فتعجَّبَ من تغيُّرِ الأمرِ ، وقال لخبَّازٍ : يعني من طعامِكَ بهذا الوَرِقِ ، فلما رأى الخبازُ دراهمَه أنكرَها وقال : مِن أينَ لك هذه وقد ضُربت منذ ثلاثِمائة سنةٍ ؟ فإما أن تعطِيَني من هذا الكَنْزِ ، أو أرفعُكَ إلى الْمَلِكِ ؟ فأنتَ وجدْتَ كَنْزاً.

فحملَهُ إلى الملكِ فلم يجِدْ بُداً من أن يذكرَ للملكِ قصَّتَهم ، فجاءَ الناسُ معهُ إلى باب الكهف ، فدخل هُوَ قَبْلَهم ، وأخبَرَ أصحابَهُ بأنَّ الملِكَ أتاهُم إذ ظهرَ القومُ عليهم فسألوهُ عن أمرِهم ، فقَصُّوا عليهم قصَّتَهم ، فَنَظَرُوا فإذا اللوحُ الرَّصاصُ وفيه أسماؤُهم وفرارُهم من دقيانوسِ.

فقالَ الملكُ : هؤلاء قومٌ هلَكُوا في زمانِ الكافرِ ، فأحياهُم اللهُ في زماني ، وحَسَبُوا المدَّةَ ، فوجدُوها ثلاثَمائة سنةٍ وتسعَ سنين ، فبينا هم كذلكَ يحدِّثونَهم إذ دخلُوا المكانَ ، وقد ضربَ اللهُ على آذانِهم بالنَّومِ ، هكذا رويَ عنِ ابن عبَّاس.

وذهبَ عكرمةُ إلى أنَّ القومَ دخلُوا المكانَ وقد ضربَ اللهُ على آذانِهم ، فهذا معنى قولهِ { وَكَذالِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ } وقولهِ تعالَى : { لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } أي ليعلَمَ الملكُ وقومه وغيرُهم أن البعثَ بعد الموتِ كائنٌ ، { وَأَنَّ السَّاعَةَ } ؛ القيامة ، { لاَ رَيْبَ فِيهَا } ؛ لا شك فيها.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ } ؛ قِيْلَ : كان التنازعُ في أنْ قالَ بعضُهم لبعضٍ إنَّهم قد ماتوا في الكهفِ ، وقال بعضُهم : بل ناموا كما نامُوا مِن قبلُ ، وسيوقظُهم اللهُ من بعد.

وَقِيْلَ : كانوا يتنازعون في البنَاءِ كما قالَ تعالَى : { فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً } ؛ أي قال بعضُهم : نَبْنِي عليهم بُنياناً كما تُبْنَى المقابرُ ؛ كي يستُرُوهم عن الناسِ ، وقال بعضُهم : بل نَبْنِي في هذا الموضعِ مَسْجِداً يُعْبَدُ اللهُ فيه ، وهو قولُ الذين غَلَبُوا على أمرِهم وهم رؤساؤُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً } ؛ أي أعْلَمُ بلَبْثِهِمْ

ورُقادِهم وأحوالِهم ؛ لأنَّ قومَ الملكِ تنازَعُوا في قدر مَكْثِهم في الكهفِ ، وفي عددهم وفي ما يفعلونَ بعدَ ذلك.

(٠/٠)

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ } ؛ أي وذلكَ أنَّ أهل الكتاب الذين سأَلُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن أهلِ هذه الصفةِ يختلفون في عدَدِهم. رويَ أنَّ السيدَ والعاقبَ وأصحابَهما من النَّصَارَى وأهلِ نجرانَ كانوا عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وذكروا أصحابَ الكهفِ ، فقال السيدُ : كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم ، وقال العاقبُ : كانوا خمسةً سادسُهم كلبهم ، { وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ } ؛ أي ظَنّاً من غيرِ يقينٍ كأنَّهم يرجُمون بالغيب بالقول فَهُمْ بالغيبةِ عنهم ، وقال المسلمونَ : كانوا سبعةً وثامِنُهم كلبُهم. { وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ }
وقال بعضُهم : هذه الواوُ واو الثَّمانية ، وذلك أن العربَ تقولُ : واحدٌ اثنانِ ثلاثةٌ أربعة ستَّة سبعة وثَمانية ؛ لأن العددَ عندهم سبعةٌ ، كما هو اليومُ عندنا عشرة ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ }[التوبة : ١١٢] إلى قولهِ{ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ }[التوبة : ١١٢] وقولهُ في صفةِ أهلِ الجنَّة{ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا }[الزمر : ٧٣] وقولهُ في أزواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم{ وَأَبْكَاراً }[التحريم : ٥].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم } ؛ أي قُل ربي أعلمُ كَمْ كان عددهُم ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً } ؛ عَنَى به رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تعالَى أخبرَهُ بعدَّتِهم ، وأمرَهُ أن لا يُمَارِ في معرفةِ مَن أدَّعى عددَهم إلاّ بأن بيَّن لهُ أنه يقولهُ بغيرِ حُجَّةٍ ، ولا خبرَ عنده من اللهِ ، فإنَّ هذا العلمَ ليس عند أهلِ الكتاب ، وهذا هو المرادُ الظاهر.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً } ؛ أي لا تَسْتَفْتِ في أصحاب الكهف من اليهود وأهل الكتاب أحداً ، فالخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والمرادُ به أُمَّتُهُ ، فإنهُ مستغنياً بإخبارِ الله إياه عن أن يستَفْتِيهم. وعن ابنِ عبَّاس أنهُ قال : (أَنَا مِنَ الْقَلِيْلِ الَّذِي يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ كَانُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) ، وَإِنَّمَا عَرَفَهُ سَمَاعاً مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ } ؛ أي لا تَقُلْ إنِّي فاعلٌ شيئاً حتى تَقْرُنَ به قولَكَ إنْ شاءَ اللهُ ، فلعلَّكَ لا تبقَى إلى الغدِ ، ولا تقدرُ عليه من الغدِ.

قال المفسِّرون : لَمَّا سألَ اليهودُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن خبرِ الفِتْيَةِ وَعَدِهُمْ أن يُخبرَهُمْ غداً ، ولَم يقُلْ إن شاءَ اللهُ ، فحُبسَ عنه الوحيُ حتى شُقَّ عليه ، وأنزل هذه الآية يأمرهُ بالاستثناءِ بمشيئة اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ : (مَعْنَاهُ إذا نَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ ثُمَّ ذَكَرْتَهُ فَاسْتَثْنِ) ، وقال سعيدُ بن جبير : (إذا قُلْتَ لِشَيْءٍ : إنِّي فَاعِلُهُ غَداً ؛ وَنَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ بمَشِيْئَةِ اللهِ ، ثُمَّ تَذَكَّرْتَ ، فَقُلْ : إنْ شَاءَ اللهُ ، وَإنْ كَانَ بَعْدَ يَوْمٍ أوْ بَعْدَ شَهْرٍ أوْ سَنَةٍ).

وعن ابنِ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : إذا حَلَفْتَ عَلَى شَيْءٍ وَنَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ ، ثُمَّ ذَكَرْتَ فَاسْتَثْنِ مَكَانَكَ وَقُلْ : إنْ شَاءَ اللهُ وَلَوْ كَانَ إلَى سَنَةٍ مَا لَمْ تَحْنَثْ). وقال الحسنُ : (لَهُ أنْ يَسْتَثْنِيَ فِي الْيَمِيْنَ مَا لَمْ يَقُمْ مِنَ الْمَجْلِسِ).

وقال إبراهيمُ وعطاء والشعبيُّ : (لاَ يَصِحُّ الاسْتِثْنَاءُ إلاَّ مَوْصُولاً بالْكَلاَمِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذا الْقَوْلِ : وَإذا ذَكَرْتَ إذا نَسِيْتَ شَيْئاً فَادْعُ اللهَ حَتَّى يُذَكِّرُكَ). وقال عكرمةُ : (مَعْنَاهُ : وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا غَضِبْتَ). قال وهبُ : (مكتوبٌ في الإنجيلِ : يا ابنَ آدمَ اذكروني حين تغضبُ أذكُرك حين أغضبُ). وقال الضحَّاك والسُّدي : (هَذا فِي الصَّلاَةِ لِقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ نَسِيَ صَلاَةً أوْ نَامَ عَنْهَا ؛ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَهَا ").

قَوْلُهُ : { وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَاذَا رَشَداً } ؛ أي قُلْ عسى أن يعطيَنِي ربي مِن الآيات والدلالاتِ على النبوَّة ما يكونُ أقربَ في الرَّشد ، وأدلَّ من قصَّة أصحاب الكهف.

(٠/٠)

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعاً } يعني مِن يوم دخلُوا الكهفَ إلى أنْ بعثَهم اللهُ وأطلَعَ عليهم الخلقَ. قال الفرَّاء والزجَّاج والكسائيُّ : (التَّقْدِيْرُ : سِنِيْنَ ثَلاَثَمِائَةٍ ؛ لأنَّ التَّفْسِيْرَ

لاَ يَكُونُ بلَفْظِ الْجَمَعِ). وقال أبو عليٍّ الفارسي : (سِنِيْنَ بَدَلٌ مِنْ ثَلاَثَمِائَةٍ). وقرأ حمزةُ : (ثَلاَثَمِائَةِ سِنِيْنَ) مُضَافَةً غير مُنَوَّنَةٍ. وقال الضحَّاكُ : (نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَمِائَةٍ ، فَقَالُوا : أيَّاماً أوْ شُهُوراً أوْ سِنِيْنَ ؟ فَقِيْلَ : سِنِيْنَ) ولذلكَ لَم يقُلْ سنةً.

(٠/٠)

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ } ؛ أي لقَدْرِ ما لبثوا ؛ { لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي لهُ العلمُ بكلِّ مستورٍ عن الخلق في السَّمواتِ والأرضِ وفي قعرِ البحار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } ؛ أي أذْكُرْ بذلكَ الناسَ فهو مِن خَفِيِّ صفاتِهِ : وَقِيْلَ : معناهُ : ما أبصرَ اللهُ بكلِّ موجودٍ! وما أبصرَهُ بكلِّ مسموعٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ } ؛ أي ما لأهلِ السَّموات والأرضِ مِن دون اللهِ مِن وليٍّ ولا ناصرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً } ؛ أي لا يشركُ في حُكمهِ أحداً غيرَهُ. وقرأ ابنُ عامرٍ : (وَلاَ تُشْرَكُ) على المخاطبةِ : أي لا تُشْرِكْ أيُّها الإنسانُ على النَّهي.

(٠/٠)

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتْلُ مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ } ؛ أي اقْرَأ عليهم القُرْآنَ وعرِّفْهم أنهُ الحقُّ ؛ { لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } ؛ ولا خَلَفَ لخبرِهِ ولا مغيِّرَ لهُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً } ؛ أي مَلْجَأً أو مَعْدَلاً تَهربُ إليه ، مِن قولهم : لَحَدْتُ إلَى كَذا ؛ إذا مِلْتِ إليه ، ومنهُ اللَّحْدُ ؛ لأنهُ يُمال به إلى ناحيةِ القبرِ ، ومنه الإلحادُ في الدِّين الْمَيَلاَنُ عليهِ.

(٠/٠)

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في سَلمان الفارسيِّ وصهيب بن سِنان وعمَّار بن ياسر وخبَّاب وعامرِ بن فُهيرة وغيرِهم من الفقراءِ ، كانوا عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وكان مع سَلمان شَمْلَةٌ قد عَرِقَ فيها إذ دخلَ عُيينة بن حصنٍ الفزَاريِّ ، فقال : يا مُحَمَّدُ إنْ رؤوسَ مُضَرَ وأشرافَها ، وإنهُ والله ما يَمنعُنا من الدُّخول عليكَ إلاّ هذا – يعني سلمانَ وأصحابهُ – ولو أنَّا إذا دخلنا عليكَ أخرَجْتَهم عنا لاتَّبعناكَ ، إنه ليؤذِينا ريحهُ أما يؤذيكَ ريحهُ ؟ فأنزلَ اللهُ في سلمان وأصحابهِ هذه الآية. ومعناها : واحبسْ نفسكَ أيُّها النبيُّ مع الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وتعظيمَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ } ؛ أي لا تَصْرِفْ بصرَكَ عنهم لفقرِهم إلى غيرِهم من ذوي الهيئاتِ والزِّينة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي مجالسةِ أهل الشَّرف والغِنَى (تريدُ) ههنا في موضعِ الحال أي مُريداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } ؛ يريدُ عُيَيْنَةَ وأبناءَهُ ، أي لا تطِعْهم في تنحيةِ الفُقراءِ عنكَ ليجلسوا إليك ، ومعنى : { أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا } أي جعلنَاهُ غافلاً عن القُرْآنِ والإسلام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } أي ضَيَاعاً ونَدَماً ، وَقِيْلَ : هلاكاً ، وَقِيْلَ : مُخالفاً للحق ، وَقِيْلَ : بَاطلاً ، وَقِيْلَ : معناه : ضَيَّعَ أمرَهُ وبطلَ أيامه.

(٠/٠)

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ } ؛ أي قُلِ القُرْآنُ والدلالاتُ على وحدانيَّة الله ونبوَّة رسولهِ هو الحقُّ من ربكم ، و(الحقُّ) مرفوعٌ على الحكاية ، وَقِيْلَ : خبرُ مبتدأ مُضْمَرٍ ؛ أي هو الحقُّ ؛ والمعنى : وقُلْ يا مُحَمَّدُ لِهؤلاء الذي أغفَلْنا قلوبَهم عن ذِكرنا : أيُّها الناس الذي أُنذركم به (الْحَقُّ مِنْ رَبكُمْ) ، لَم أتكلَّمْ به مِن قِبَلِ نفسِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } ؛ تَهديدٌ بلفظِ الخبر ، والمعنى : فمَن شاءَ فيؤمن

، ومن شاء فيكفرُ ، { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } ؛ فقد أعدَّ لكم ناراً على كُفركم أحاطَ بكم سرادقها ؛ قال ابنُ عبَّاس : (السُّرَادِقُ : حَائِطٌ مِنَ النَّار يُحِيْطُ بِهِمْ).

وَقِيْلَ : دخانٌ يحيطُ بِهِمْ قَبْلَ أن يَصِلُوا إلى النار. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال : (سُرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ ، غِلَظُ كُلِّ جِدَارٍ مَسِيْرَةُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةَ ، فَهَذِهِ الْجُدُرُ مُحِيْطَةٌ بِهِمْ). وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى الآيَةِ : فَمَنْ شَاءَ اللهُ لَهُ الإِيْمَانَ آمَنَ ، وَمَنْ شَاءَ لَهُ الْكُفْرَ كَفَرَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ } ؛ معناهُ : وإنْ يستَغيثُوا من شدَّة الحرارةِ يُغاثوا بماءٍ كَعَكَرِ الزَّيت أسودَ غليظ ، وَقِيْلَ : إن الْمُهْلَ هو الصُّفْرُ المذابُ ، ويقالُ : هو القيحُ والدم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَشْوِي الْوجُوهَ } ؛ أي إذا قَرُبَ البشر منه أنضجَ الوجهَ بحرارتهِ ، وأسقطَ فَرْوَةَ وجههِ ولحمَهُ فيه ، { بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ } ؛ النارُ ؛ { مُرْتَفَقاً } ؛ أي ساءَتْ مُتَّكَأً لَهم ، مأخوذٌ من المرْفَقِ ؛ لأنَّهم يتَّكِؤنَ على مرافِقِهم ، وَقِيْلَ : معناهُ : وساءَتْ مَنْزلاً ومَقَرّاً ، وَقِيْلَ : مُجتمعاً مأخوذٌ من المرافقةِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } ؛ أي لا يبطلُ ثوابُ من أخلصَ للهِ ، ويجوزُ أن يكون معناهُ : إنا لا نضيعُ أجرَ مَن أحسنَ منهم ، بل يجازيهم.

ثُم ذكرَ جَزَاءَهُمُ فقالَ : { أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ } ؛ أي بساتينُ إقامةٍ ، وقد ذكرَنا صفات جنَّات عَدْنٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ } ؛ أي يُلْبَسُونَ في الجِنَانِ ذلك.

قال الزجَّاج : (أَسَاوِرُ : جَمْعُ أَسْوِرَةٍ ، وَأَسْوِرَةٌ جَمْعُ سِوَارٍ) ؛ وَهُوَ زِيْنَةٌ يُلْبَسُ فِي الزَّنْدِ مِنَ الْيَدِ ، مِنْ زِيْنَةِ الْمُلُوكِ يُسَوَّرُ فِي الْيَدِ وَيُتَوَّجُ عَلَى الرَّأسِ. قال ابنُ جبير : (عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ مِنَ الأَسَاوِرِ ، وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَوَاحِدٌ مِنْ ذهَبٍ وَوَاحِدٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَيَاقُوتٍ).

وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " لَوْ أنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ حِلْيَةً عُدِلَتْ حِلْيَتُهُ بِحِلْيَةِ أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيْعِهَا لَكَانَ مَا يُحَلِّيهْ اللهُ بِهِ فِي الآخِرَةِ أفْضَلَ مِنْ حِلْيَةً أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيْعِهَا ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ } ؛ الْخُضَرُ : جمعُ أخضرَ ، وهو أحسنُ ما يكون من الثِّياب ، والسُّنْدُسُ : الدِّيْبَاجُ الرقيقُ الفاخر ، وَقِيْلَ : هو الحريرُ ؛ وواحدُ السُّندس سُنْدُسَةٌ ،

والاسْتَبْرَقُ الدِّيباجُ الغليظُ الذي له بريقٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّتَّكِئِينَ فِيهَا } ؛ أي في الجِنَانِ ؛ { عَلَى الأَرَآئِكِ } ؛ أي على السُّرُرِ في الْحِجَالِ وهي من ذهَبٍ مكَلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوتِ ؛ { نِعْمَ الثَّوَابُ } ؛ جزاءُ أعمالِهم ؛ { وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً } ؛ أي مُتَّكَأً.

(٠/٠)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاضْرِبْ لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً } ؛ الآيةُ ، هذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لعبادِهِ ؛ ليستدعيَهم إلى طاعتهِ ، ويزجرَهم عن كُفران نعمتهِ ، والمعنى : واضربْ لَهم مثلاً رَجُلين.
قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا أخَوَيْنِ فِي بَنِي إسْرَائِيْلَ ؛ تُوُفِّيَ أبُوهُمَا وَتَرَكَ ثَمَانِيَةَ آلافِ دِيْنَارٍ ، وَكَانَ أحَدُهُمَا مُسْلِماً وَالآخَرُ كَافِراً ، وَأصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أرْبَعَةَ آلاَفِ دِينَارٍ ، فَالْمُسْلِمُ أنْفَقَهَا فِي سَبِيْلِ حَتَّى أنْفَدَهَا فَأَوْجَبَ اللهُ لَهُ الْجَنَّةَ ، وَالْكَافِرُ اشْتَرَى بهَا بَسَاتِيْنَ ، فَاحْتَاجَ الْمُسْلِمُ إلَيْهِ فَأَتَاهُ يَتَعَرَّضُ إلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ : أيْنَ مَالُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : أنْفَقْتُهُ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ الْكَافِرُ : لاَ أُعْطِيْكَ حَتَّى تَتَّبِعَ دِيْنِي ، ثُمَّ أخَذ بيَدِ أخِيْهِ فَأَدْخَلَهُ بَسَاتِيْنَهُ ، وَجَعَلَ يَطُوفُ بِهِ فِيْهَا وَيَقُولُ لَهُ : مَا أظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَداً ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ } أي جعلَ للكافرِ منهُما بساتينَ من كُرُومٍ ، وجعلَ حَوْلَ البساتينِ نَخيلاً وجعلنا بينَ البساتينِ زَرْعاً ؛ أي يزرعهُ.

(٠/٠)

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً } ؛ أي كِلاَ البساتين أخرجَتْ ثَمرها ولَم تنقُصْ منه شيئاً كأنْ ما أن يذهبُ صنفٌ من الثمار إلاّ أثْمرَ صنفٌ آخر ، وإنَّما قال : آتَتْ ؛ ولَم يقل آتَتَا ؛ لأن المعنى أعطَتْ كلُّ واحدةٍ من الجنَّتين ، ولفظُ كِلْتَا واحدةٌ ؛ لأن الألِفَ في كلتا ليستْ ألِفَ تثنيةٍ ، كأنه قالَ : كلُّ واحدةٍ منهُما آتَتْ أكُلها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً } ؛ أي فجَّرنا وسطَ البساتين نَهراً نَسقيها ، { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ } ؛ أي كان لِهذا الكافرِ ذهبٌ وفضة ومن كل المال ، وقيل : من قرأ : (ثُمُرٌ) بضم الثاء ، فمعناه صنوف من الأموال : الذهب والفضة وغيرهما ، يقالُ : أثْمَرَ الرجلُ إذا كَثُرَ مالهُ. ومن قرأ بنصب الثَّاء كان معناهُ ثَمرة البساتينِ ، والأولُ هو الأقربُ لأن قولَهُ { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا } يدلُّ على الثِّمار ، فاقتضَى أن يكون الثمرُ غير ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالَ لِصَاحِبِهِ } ؛ أي لأخيهِ المسلم ؛ { وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } ؛ أي يراجعهُ بالكلامِ ويفاخرهُ : { أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً } ؛ يعني خَدَماً وحَشَماً وولداً ، يتطاولُ بذلك على أخيهِ ، ورأى تلك النعمةَ مِن قِبَلِ نفسهِ لا من قِبَلِ اللهِ.

(٠/٠)

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } ؛ أي دخلَ الكافرُ بستانَهُ وهو ظالِم لنفسهِ بالكفر وتركِ الشُّكرِ ؛ { قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَاذِهِ أَبَداً } ؛ أي ما أظنُّ أن تَفْنَى هذه أبداً. قال المفسِّرون : أخذ بيد أخيهِ المسلم فأدخلَهُ جنَّته ، وطافَ به فيها ، وأراهُ إياها وجعلَ يعجبه منها ، ويقولُ ما أظنُّ أنْ تَفْنَى هذه أبداً ، { وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً } ؛ أنكرَ البعثَ والثواب والعقابَ ، وأخبرَ أخاهُ بكفرهِ وإنكاره للقيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } ؛ يعني لَئِنْ كان البعثُ حقّاً ، ورُدِدْتُ إلَى ربي على زعمِكَ لأجدنَّ في الآخرةِ خيراً منها مرجِعاً ومنْزِلاً ، ولَم يعني اللهُ هذه في الدُّنيا إلاّ ولي عنده أفضلُ منها لكرامتِي عليه ، فمعناه الجنَّتين التي تقدَّم ذِكرُهما ، وفي هذا بيانُ أن هذا الكافرَ لَم يكن قاطعاً لنْفِي الْمَعَادِ ولكن كان شَاكّاً فيه ، والشاكُّ في الْمَعَادِ كافرٌ.

(٠/٠)

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } ؛ أي أجابَهُ صاحبه المسلمُ مُنكراً بما قالَ وهو يخاطبهُ : { أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ } ؛ أي بالذي خلقَ أصْلَكَ من ترابٍ ؛ { ثُمَّ } ؛ خَلَقَكَ ؛ { مِن نُّطْفَةٍ } ؛ أبيْكَ ؛ { ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً } ؛ أي أكْمَلكَ وجعلَكَ معتدلَ الخلقِ والقامَة ، وجعلكَ بشراً سويّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّاكِنَّاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي } ؛ معناهُ : أمَّا أنا فلا أكفرُ بربي ، لكن هو اللهُ ربي ؛ تقديرهُ : لَكِنْ أنَا هو اللهُ ربي ، وَقِيْلَ : فيه تقديمٌ وتأخير تقديرهُ : لكنَّ اللهَ هو ربي ؛ أعلَمَ بذلك أخاهُ الكافر بأنه مُوَحِّدٌ مسلمٌ.

ومن قرأ : (لَّكِنَّا) فالمعنى لكِنْ أنا ؛ إلاَّ أنهُ حُذفت الهمزةُ ، وأُبقيت حركتها على السَّاكن الذي قبلَها ، فالتقى نُونانِ فأُدغمت إحداهُما في الأُخرى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً } ؛ ظاهرُ المرادِ.

(٠/٠)

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ } ؛ معناه : أنَّ المسلمَ قال للكافرِ : هَلاَّ قُلْتَ حين دخلتَ ما شاءَ اللهُ! أي الأمرُ بمشيئة اللهِ ، وما شاءَ اللهُ كانَ يعني إنَّ شاءَ اللهُ خرابَ هذه الجنَّة وإهلاكَها كان ذلك بمشيئة الله ، { لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ } ؛ أي لا يَقْوَى أحدٌ على ما في يدهِ من مُلْكٍ ونعمة إلاّ باللهِ ، ولا يكون له ما شاءَ الله ، ولا قوةَ في بدنهِ ومُلْكِهِ إلاّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً } ؛ معناهُ : أن المسلمَ قال للكافرِ : إن كنتُ أنا أقلَّ منك مالاً وعشيرةً فأنا راضٍ بما قُسِمَ لِي ، قَوْلُهُ تَعَالَى : (أقَلَّ) منصوبٌ ؛ لأنه مفعولُ (تَرَنِي). وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (أنَا) عمادٌ ، ومَن قرأ (أقَلُّ) بالرفع فعلَى معنى (أنَا) مبتدأ و(أقَلُّ) خبرٌ في موضعِ المفعول.

(٠/٠)

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فعسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ } ؛ أي لعلَّ الله يؤتيَنِي في دار البقاء بُستاناً خيراً

من بستانِكَ في الدُّنيا ، { وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا } ؛ على بستانِكَ ؛ { حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ } ؛ أي ناراً مِن السَّماء فتُحرِقها ، وسُمِّي العذابُ حُسْبَاناً على معنى أنه يرسل عليها بحساب ما كسبت يدك.
وقال النضرُ بن شميل : (الْحُسْبَانُ الْمَرَامِي) أي يرسلُ عليها مَرَامِي عذابِهِ إما بردٌ ، وإما حجارةٌ وغيرهما بما شاء مِن أنواعِ العذاب ، { فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً } ؛ أي أرْضاً ملساءَ لا نباتَ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً } ؛ أي غَائِراً في الأرضِ يعني النهرَ الذي في خلالِها ، { فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً } ؛ أي لا يَبْقَى لهُ أثرٌ يطلبهُ بوجهٍ من الوجوه ، لا تنالهُ الأيدي ولا الأرشيةَ.

(٠/٠)

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } ؛ أي هَلَكَ مالهُ وبستانه ، يقالُ : أُحِيْطَ القومُ إذا هَلَكُوا ، { فَأَصْبَحَ } ؛ الكافرُ ، { يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ } ؛ أي يضربُ بإحْدَى يديهِ على الأخرى ، وتقليبُ الكفَّين يفعلهُ النادمُ كثيراً ، وصارَ عبارةً عن النَّدَمِ ، { عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا } ؛ أي في جنَّته ، { وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } ؛ أي ساقطةٌ على سقوفِها ؛ { وَيَقُولُ يالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } ؛ فَنَدِمَ حيث لا ينفعهُ الندم ، ولَم يكن تندُّمه على إشراكِهِ إيْماناً منهُ ؛ لأنه لَم يَقُلْهُ تحقيقاً للتَّوبة ، ولكن كان يتأسفُ على هلاكِ مالِهِ.

(٠/٠)

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي لَم تَنْصُرْهُ الفئةُ الذين افتخرَ بهم في قولهِ{ وَأَعَزُّ نَفَراً }[الكهف : ٣٤] { وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً } ؛ بأن استَرَدَّ بدلَ ما ذهبَ منه.

(٠/٠)

هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ } ؛ في ذلك الموطنِ عَلِمَ الكافرُ أن الوَلاَيَةَ بالنصرِ لله الحقِّ ، فهو الذي يَملكُ النصرَ ، هذا معنى قراءةِ (الولِاَيَةُ) بخفضِ الواو ، وأما (الْوَلاَيَةُ) بفتحِ الواو فهو نقيضُ العداوةِ ، وَقِيْلَ : إن معنى قراءةِ (الْوِلاَيَةُ) بالكسرِ : الإمارةُ والسُّلطانُ ، يعني في يومِ القيامة الولايةُ لله. ومن قرأ بفتحِها فهو مِن الْمُوَالاَةِ كقولهِ تعالى{ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ }[البقرة : ٢٥٧] يعني : إنَّهم يؤمنونَ بالله يومئذٍ ، ويتبرَّءُون مما كانوا يعبدونَ من دونِ الله. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (الْحَقِّ) مَن قرأ بالكسرِ فهو نعتٌ لله ، وَمن رفعَهُ فهو نعتٌ للولايةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً } ؛ أي خيرُ مَن أثابَ وجازى على العملِ ؛ { وَخَيْرٌ عُقْباً } ؛ أي خيرُ مَن أعقبَ عاقبةً ، وَقِيْلَ : عاقبةُ طاعتهِ خيرٌ من عاقبةِ غيره. قال ابنُ عبَّاس : (هَذانِ الرَّجُلاَنِ ذَكَرَهُمَا اللهُ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إن{ لِي قَرِينٌ }[الصافات : ٥١] إلَى قولهِ تعالَى{ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ }[الصافات : ٥٥].

(٠/٠)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ } ؛ أي اضربْ يا مُحَمَّدُ لِهؤلاء المتكبرين المترَفين مِن قومِكَ الذين سألوكَ طردَ فقراءِ المؤمنين صفةَ الحياة الدُّنيا في بقائها وفنائِها ؛ كَمَاءٍ أنزَلْنَاهُ { مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ } ؛ فَنَجَعَ في النَّباتِ حتى خالَطَهُ ، وأخذ النباتُ زُخْرُفَهُ فصار أجناساً مختلفةً بعضُها مخلَّطٌ ببعضٍ ؛ { فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ } ؛ متفتِّتاً ، والهشيمُ ما تَكَسَّرَ وَانْحَطَمَ ، ثم فرَّقتْهُ الرياحُ ، وطارت به كما يطيرُ بأشياءٍ خفيفة فلا يبقَى له أثرٌ ، كذلك الدُّنيا يفنى منها كلُّ شيء كما لا يبقَى من الهشيمِ شيءٌ ؛ { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً } ؛ أي لَم يزل قادراً على خَلْقِ الأشياء. قالتِ الحكماءُ : شبَّهَ اللهُ الدنيا بالماءِ ؛ لأن الماءَ لا يستقرُّ في موضعٍ ، كذلك الدُّنيا لا تُبقِي على أحدٍ.

(٠/٠)

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي مما ينتفعُ به في الدُّنيا لا في الآخرةِ ؛ { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } قِيْلَ : إنَّها الصلواتُ الخمسُ ، وَقِيْلَ : جميعُ الطاعاتِ. وسُمِّيت الباقياتُ لبقاء ثوابها للإنسانِ ، بخلاف الأموالِ والأولاد التي لا تبقَى.

وقال ابنُ عبَّاس وعكرمةُ ومجاهد : (هِيَ قَوْلُ الْعَبْدِ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ). يدلُ عليه ما رُوِيَ عن أبي الدَّرداءِ : " أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أخَذ غُصْناً فحرَّكَهُ حتى سقطَ ورَقهُ ، فقالَ : " إنَّ الْمُسْلِمَ إذا قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّ هَذا ، خُذْهُنَّ إلَيْكَ يَا أبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ ، فإنَّهنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ".

وعن أنسٍ رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " خُذُوا حَسْبَكُمْ مِنَ النَّارِ ، قُولُوا : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فَإنَّهُنَّ الْمُقَدِّمَاتُ ؛ وَهُنْ الْمُنْجِيَاتُ ؛ وَهُنَّ الْمُعَقِّبَاتُ ؛ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ". وقال عثمانُ بن عفَّان وابنُ عمرَ وسعيدُ بن المسيَّب : (هُنَّ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ).

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " " اسْتَكْثِرُواْ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ " قِيْلَ : مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " التَّكْبِيْرُ ؛ وَالتَّهْلِيْلُ ؛ وَالتَّسْبِيْحُ ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ ". وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إنْ عَجَزْتُمْ عَنِ اللَّيْلِ أنْ تُكَابِدُوهُ ، وَعَنِ الْعَدُوِّ أنْ تُجَاهِدُوهُ ، فَلاَ تَعْجَزُواْ عَنْ قَوْلِ : سُبْحَانَ اللهِ ؛ وَالْحَمْدُ للهِ ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ. فإنَّهَا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ".

وَقِيْلَ : هِيَ كلُّ عملٍ صالح يُثاب عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } أي أفضلُ ثواباً ، وأفضلُ أملاً من المالِ والبنين.

(٠/٠)

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً } ؛ أي واذكر يومَ نُسَيِّرُ الجبالَ ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى وخيرٌ أمَلاً يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ، وتَسَيُّرُ الجبالِ وتسييرُها : قلعُها ، فإنَّ الله تعالى يقلعها عن وجهِ الأرضِ يومئذٍ ، فيسيِّرُها في الهوَاء ، كما يسيِّرُ السحابَ في الدُّنيا ، ثم يَجْعلُها هباءً منثوراً فتهودُ في الأرضِ حتى لا يبقَى شيءٌ ، ولذلك قالَ تعالَى { وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً } أي ظاهرةً مستويةً لا يسترُ شيءٌ شيئاً ، ولو كان يبقَى شيءٌ من الجبالِ والأشجار والنبات لَم تكن الأرضُ بارزةً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَشَرْنَاهُمْ } ؛ يعني المؤمنينَ والكافرين ، أي بعثناهُم من قبورِهم ، { فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً } ؛ أي لَم نترُكْ منهم أحداً في قبرهِ نسياناً ولا غفلةً.

(٠/٠)

وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعُرِضُواْ عَلَى رَبِّكَ صَفّاً } ؛ أي معناهُ : ان الناسَ كلَّهم يعرضون على اللهِ تعالى مصفُوفِين ، كلُّ زُمرةٍ وأمَّة صَفٌّ ، فيكونون صَفّاً بعد صفٍّ كصفوفِ الصلاة إلاَ أنَّهم صفٌّ واحد.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ؛ أي أعدنَاكم كما خلقنَاكم أوَّلَ مرة. وقال ابنُ عبَّاس : معناه (حُفَاةٌ عُرَاةٌ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِمَّ اكْتَسَبُوهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا فِي أَوَّلِ الْخَلْقِ).
قال صلى الله عليه وسلم : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قُبُورِهِمْ حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلاً " فَقَالَتْ عَائِشَةُ : وَاسَوْأَتَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ! أمَا يَسْتَحْيِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ". قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً } ؛ أي بل زعمتُم في الدُّنيا أن لن نجعلَ لكُم أجَلاً للبعثِ ، وهذا خطابٌ لِمنكري البعثِ خاصَّة.

(٠/٠)

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } ؛ أي كتابُ كلِّ إنسانٍ في يده ، بعضُهم في اليمينِ وبعضُهم الشِّمالِ ،

{ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ } ؛ أي المذنبينَ وهم المشركونَ ؛ { مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } ؛ أي خائفينَ مما في الكتاب ، يَدْعُونَ على أنفسِهم بالويلِ والثُّبور ؛ { وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنَا مَالِ هَاذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (الصَّغِيْرَةُ التَّبَسُّمُ ، وَالْكَبِيْرَةُ الضَّحِكُ). وقال ابنُ جُبيرٍ : (الصَّغِيْرَةُ الْمَسِيْسُ وَالتَّقْبِيْلُ ، وَالْكَبِيْرَةُ الزِّنَا). والمعنى لا يتركُ صغيرةً ولا كبيرة من أعمالِنا إلاَّ أثبتَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً } ؛ أي وجدُوا جُزْءَ ما عملُوا مكتوباً مثبَّتاً في الكتاب ، { وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } ؛ أي لا ينقصُ من حسناتِ أحدٍ ، ولا يزيدُ في سيِّئات أحدٍ ، ولا يعاقبُ بغير جُرْمٍ. وروي أنَّ الفضيلَ بن عيَاضٍ كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال : (صَحَوا واللهِ مِنَ الصِّغَارِ قَبْلَ الْكِبَارِ).

(٠/٠)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ } ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَانَ مِنَ الْجِنِّ } ؛ تقدَّم أيضاً ، الخلافُ في أنه من الملائكةِ أم من الجنِّ ، بَنِي الجانِ ، والصحيحُ أنهُ من بَنِي الجانِّ جنسٌ غير جنسِ الملائكة ؛ لأنَّ الملائكةَ رُسُلُ اللهِ ، ولا يجوزُ على رسولِ مِن رُسُلِ اللهِ أن يكفرَ ، { فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } ؛ أي خرجَ عن طاعةِ ربهِ ، وَقِيْلَ : ردَّ أمرَ ربهِ ، { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي } ؛ هذا استفهامٌ بمعنى الإنكارِ ، يقولُ : كيفَ تطيعونَهُ وقد فَسَقَ ، { وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } ؛ وهو اليومُ عدوٌّ لكم ، { بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً } ؛ ما استبدلَ الظَّالِمون عن رب العزَّة إبليسَ لَعَنَهُ اللهُ حيث تركوا طاعةَ مَن خَلَقَهم ، وأنعمَ عليهم ، ويجازيهم جنةَ الْخُلْدِ ، وأطاعوا مَن يؤدِّيهم إلى العقاب الدائم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذُرِّيَّتَهُ }. قال قتادةُ والحسن : (يَعْنِي أَوْلاَدَ إِبْلِيْسَ ؛ وَهُمْ يَتَوَالَدُونَ ، كَمَا يَتَوَالَدُ بَنُو آدَمَ) ، قال مجاهدُ : (فَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْلِيْسَ وَلْهَانُ ؛ وَهُوَ صَاحِبُ الطَّهَارَةِ وَالصَّلاَةِ ، وَزَلْبِنُورُ صَاحِبُ رَايَةِ إِبْلِيْسَ لِكُلِّ سُوقٍ ، وَدِثِّيْرُ صَاحِبُ الْمَصَائِبِ يَأْمُرُ بِضَرْبِ الْوَجْهِ وَالدُّعَاءِ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَغَيْرِ ذلِكَ ، وَالأَعْوَرُ وَهُوَ صَاحِبُ أَبْوَابِ الزِّيَادَةِ ، وَمَنْيُوطُ وَهُوَ صَاحِبُ الأَخْبَارِ يَأْتِي بِهَا فَيُلْقِيهَا فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ فَلاَ يُوجَدُ لَهَا أَصْلٌ ، وَدَاسِمُ هُوَ الَّذِي إِذا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلَمْ يُسَلِّمْ وَلَمْ يَذْكِرِ اسْمَ اللهِ ضَرَّهُ فِي الْمَتَاعِ مَا لَمْ يُرْفَعْ وَلَمْ يُوضَعْ فِي مَوْضِعِهِ ، وَإِذا أَكَلَ وَلَمْ يَذْكِرِ اسْمَ اللهِ أَكَلَ مَعَهُ. وَمِنْ أَوْلاَدِ إِبْلِيْسَ الْهَفَّافُ وَمُرَّةُ ، وَبِهِ كَانَ يُكْنَى أَبَا مُرَّةَ). وقال ابنُ زيدٍ : (إِنَّ إِبْلِيْسَ أَبُو الْجِنِّ ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَبُو الإِنْسِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لإِبْلِيْسَ : إِنِّي لاَ أَخْلُقُ لآدَمَ ذُرِّيَّةً إِلاَّ جَعَلْتُ لَكَ مِثْلَهَا ، فَلَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَحَدٌ إِلاَّ بِشَيْطَانٍ قُرِنَ بِهِ).

(٠/٠)

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ } ؛ يعني إبليسَ وذريَّته ، والمعنى : ما اطْلَعْتُهُمْ على خلقِ السَّموات والأرضِ ، ولا أحضرتُهم ، ولَم يكونوا موجودينَ يوم خَلَقْتُ السَّمواتِ والأرض ، ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعضٍ ، ولا أعطيتُهم العلمَ وكيفيَّة خلقِ الأشياء ، ولو كنتُ مِمن يستعينُ بأحدٍ لما أستعنتُ بالمضِلِّين ، فكيفَ والاستعانةُ عليَّ مستحيلةٌ إذا أردتُ خلقَ شيء كانَ. والمعنى أنَّكم اتبعتُم الشيطانَ ، كاتِّباع مَن يكونُ عنده عِلمُ باطن الأشياءِ ، وأنا ما أشهدتُهم خلقَ السَّموات والأرضِ ولا خلقَ أنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً } ؛ أي ما كنتُ مُتَّخِذ الشياطينِ الذين يُضِلُّونَ الناسَ أعواناً يعضِدُونني. ومَن قرأ (وَمَا كُنْتَ) بالفتحِ ، فالمعنى : وما كنتَ يا مُحَمَّدُ لِتَتَّخِذ المضلِّين أنصاراً.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } ؛ معناهُ : يومَ القيامةِ يقولُ الله للمشركين : نَادُوا شُرَكَائِي الَذِينَ زَعَمْتُمْ أنَّهم شُركاؤهم للأصنامِ والشياطين وذريَّته ؛ ليدفعُوا عنكم العذابَ ، { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً } ؛ أي جعلنا بينَ العابدِ والمعبود من العذاب ما يُوبقُهُمْ ؛ أي ما يُهلِكُهم ، وَقِيْلَ : معناهُ : وجعلنا بينَهم وبين المؤمنين ؛ أي بين أهلِ الْهُوى وأهلِ الضَّلالة مَوْبقاً.

قال عبدُالله بنُ عمرَ : (هُوَ وَادٍ فِي جَنَهَّمَ مِنَ الصَّدِيْدِ وَالْقَيْحِ وَالدَّمِ ، يُفَرِّقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهِ وَمَنْ سِوَاهُمْ). وقال عكرمةُ : (هُوَ نَهْرٌ مِنَ النَّارِ يَسِيْلُ نَاراً ، عَلَى حَافَّتَيْهِ حَيَّاتٌ مِثْلَ الْبغَالِ). وقال الضحَّاكُ : (مَعْنَاهُ : وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَهْلِكاً) ، وقال الحسنُ : (عَدَاوَةً) ، ويقالُ : أوْبَقَهُ اللهُ ؛ أي أهْلَكَهُ ، وَوَبقَ أي هَلَكَ. قرأ حمزةُ (وَيَوْمَ نَقُولُ) بالنُّونِ.

(٠/٠)

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا } ؛ أي ورأى المشركونَ النارَ مسيرةَ أربعين سنةٍ ، وايقنُوا أنَّهم داخلُوها ، { وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً } ؛ مَعْدِلاً يعدلون إليه ، لأنَّها أحاطَتْ بهم من كلِّ جانب ، والمواقعةُ مُلاَمَسَةُ الشَّيءِ بشدَّةٍ ، ومنه وقائعُ الحروب.

(٠/٠)

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَاذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } ؛ أي بَيَّنَّا لَهم من كلِّ مثَلٍ يحتاجون إليه في أمرِ دينهم ، { وَكَانَ الإِنْسَانُ } ؛ أي الكافرُ ، { أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } ؛ في تكذيب الرُّسل ، وما جاءُوا به من الآياتِ. قِيْل : أرادَ بالإنسانِ النضرِ بنِ الحارثِ وجدالَهُ في القُرْآنِ. وقال الكلبِيُّ : (يَعْنِي أُبَي بْنَ خَلَفٍ) ويقالُ : معناه : ما ليسَ بشيءٍ مِن الملائكة والجنِّ والشياطينِ ، وسائرِ الأصناف أجدَلُ من الإنسانِ. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : " مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُواْ عَلَيْهِ إلاَّ أُعْطُواْ الْجَدَلَ ".

(٠/٠)

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً } ؛ أي ما منعَ أهلُ مكة أن يُمِنوا { إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى } يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم جاءَهم مِن اللهِ بالرَّشَادِ ، { وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ } أي يتوبُوا من الكفرِ ، ما منعَهم من ذلك إلاّ طلبُ أن يأتيَهم سُنَّةُ الأَوَّلِيْنَ ؛ وهو أنَّهم إذا لَم يؤمنوا جاءَهم العذابُ مِن حيث لا يشعرونَ ، أو مقابلةً

من حيث يَرَوْنَ. وهذه الآيةُ فِيمَنْ قُتِلَ من المشركين ببَدْرٍ وأُحُدٍ ؛ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً } أي عَيَاناً مقابلةً. وقرأ أهلُ الكوفة (قُبُلاً) بضمِّ القافِ والباء ، جمعُ قَبِيْلٍ ؛ أي صنوفٍ من العذاب ، وضُروبٍ منه مختلفةٍ.

(٠/٠)

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } ؛ ظاهرُ المعنى ، { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالْبَاطِلِ } ؛ أي يخاصِمُ الذين كفرُوا بالكتاب والرُّسل بالحجَّة الباطلةِ ، { لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ } ؛ أي لِيُبْطِلُوا بها الإسلامَ القُرْآنَ. قال ابنُ عبَّاس : (يَعْنِي الْمُسْتَهْزِئِيْنَ وَالْمُقْتَسِمِيْنَ وَأَتْبَاعَهُمْ) ، يقالُ : دُحِضَتْ حُجَّتُهُ إذا بَطَلَتْ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّخَذُواْ ءَايَاتِي وَمَآ أُنْذِرُواْ هُزُواً } ؛ أي اتَّخذُوا القُرْآنَ وما خوِّفوا به مِن النار يومَ القيامة هُزُواً.

(٠/٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ } ؛ أي ليسَ أحدٌ أظلمَ ممن وَعِظَ بالقُرْآنِ ، وما فيه مِن الوعيدِ ، { فَأَعْرَضَ عَنْهَا } ؛ أي تَهاون بها ولَم يتفكَّرْ فيها. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } ؛ أي ونَسِيَ ذِكْرَ ما عملت يداهُ وتغافلَ عن ذكرِهِ ، { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ } ؛ أي أغْطِيَةً ؛ لئلاَّ يفقَهُوا الْهُدَى ، وَجعلنا { وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً } ؛ لئلاَّ يستَمِعوا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذاً أَبَداً } ؛ أي إن تَدْعُهُمْ إلى الْقُرْآنِ وإلى الرحمةِ وإلى الإيْمَانِ فلن يهتدُوا ، أخبرَ اللهُ أن هؤلاءِ طَبَعَ اللهُ على قلوبهم.

(٠/٠)

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ } ؛ أي الغافرُ السَّاتِرُ على عبادِهِ ، والرحمةُ حين لا يُعَجِّلُهُمْ بالعقوبةِ ، { لَوْ يُؤَاخِذُهُم } بعقاب ، { بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ } ؛ في الحالِ ؛ { بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ } ؛ أي لعذابهم أجْلٌ ضَرَبَهُ اللهُ ، { لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً } ؛ أي مَلْجَأْ وَمَنْجاً.

(٠/٠)

وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ } ؛ أي القُرَى الماضية ، قُرى عَادٍ وثَمود لَمَّا أشركوا ، والمرادُ أهلُ القرى ، { وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً } ؛ أي لوقتِ إهلاكهم أجَلاً.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً } ؛ أي وَاذْكُرْ إذ قالَ موسى لفتاهُ يوشعَ بنَ نونٍ ، قال ابنُ عبَّاس : (وقصَّةُ ذلكَ : أن موسى عليه السلام قامَ خطيباً في بنِي إسرائيلَ ، فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلمُ ؟ فقال : أنَا فبعثَ اللهُ عليه فقالَ : إن لِي عبداً بمجمع البحرينِ هو أعلمُ منكَ ، قال موسى : يا رب كيفَ لِي بهِ ، يا رب دُلَّنِي عليه.
فقال : تأخذُ معكَ حُوتاً وتَمضي إلى شَاطِئِ البحرِ ، فحيث ما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ ، فأخذ حوتاً من السَّمكِ ، وجعلهُ في مكتلٍ وانطلقَ معه بفتاهُ يوشعَ بن نون إلى شاطئ البحرِ ، فأَوَيَا إلى صخرةٍ عندَها ماءً يسمى ماءُ عينِ الحياة ، فجلسَ يوشعُ يتوضَّأُ من تلكَ العينِ ، فانتضحَ من ذلك الماءِ على الحوتِ فحَيِيَ ، فوثبَ في الماءِ ، وَاتَّخَذ سَبيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ؛ أي اتخذ الحوتُ طريقاً في البحرِ مسْلَكاً

يَابساً).

وَقِيْلَ : معنى قولهِ (سَرَباً) أي ذاهِباً ، فقامَ يوشعُ حين رأى ذلك مِن الحوت ، وذهبَ إلى موسى ليخبرَهُ بذلكَ ، وذهبَا يومَهُما ذلكَ حتى صلَّيا الظهرَ مِن الغدِ ، فتَعِبَ موسى ، فقَالَ لِفَتَاهُ : آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذا نَصَباً ؛ أي تَعَباً.

ومعنى الآية : وإذ قالَ موسى لفتاهُ لا أزالُ أمضِي حتى أبلُغَ مجمع البحرين الموضعَ الذي يلتقِي فيه بحرُ فارسَ والرومِ أو أمضِيَ سنينَ كثيرة ، والْحُقَبُ جمعُ أحْقَابٍ ، والأحقابُ جمع الحِقْبِ ، والْحِقْبُ ثَمَانُونَ سنةً ، وَقِيْلَ : سبعونَ سنةً بلُغة قريشٍ ، وسُمي يوشعُ فَتَاهُ ؛ لأنه كان يخدمهُ ويلازمهُ في الْحَضَرِ والسَّفرِ للتعلُّم منه.

(٠/٠)

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا } أي الموضعَ الذي يجتمعُ فيه ماء البحرينِ نَسِيَ صاحبُ موسى أن يخبرَهُ بخبرِ الحوت. قال المفسِّرون : وكان حُوتاً في زَنْبِيْلٍ ، وكانا يأكُلانِ منه عندَ الغدَاءِ والعشاءِ ، فلما أتَيَا إلى الصخرةِ على ساحلِ البحر وضعَ فتاهُ الزنبيلَ فأصابَ الحوتَ من الماءِ الذي ذكرناهُ شيءٌ فتحرَّكَ في الزنبيلِ فانسربَ في البحرِ ، قد قيلَ لِموسى : تزوَّدْ معكَ حُوتاً مالِحاً فحيثُ تفقدُ الحوتَ فهناك تجدُ الرجلَ العالِمَ.

فلما انتهيَا إلى الصخرةِ ، قال موسَى لفتاهُ : امْكُثْ هنا ، وانطلقَ لحاجتهِ فحرى الحوتُ في البحرِ ، فقال فتاهُ : إذا جاء نبيُّ اللهِ أخبرتهُ بذلكَ ، فأنساهُ الشيطان ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَسِيَا حُوتَهُمَا } ؛ وإنَّما نَسِيَ يوشعُ أن يذكرَ قصَّتَهُ لِموسى ، وأضافَ النسيانَ إليهما توسُّعاً لأنَّهما تزوَّدا ، فصارَ كما يقالُ : نسيَ القومُ زادَهم ، وإنَّما نسيَهُ أحدُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً } ؛ أي جعلَ الحوتُ يضرِبُ بذنبهِ في البحرِ فلا يضربُ شيئاً وهو ذاهبٌ إلاّ يَبسَ موضعهُ كهيأة السَّرَب. قال قتادةُ : (جَعَلَ لاَ يَسْلِكُ فِيهِ طَرِيْقاً إلاَّ صَارَ الْمَاءُ جَامِداً) ، وقال الربيعُ : (انْجَابَ الْمَاءُ عَلَى مَسْلَكِ الْحُوتِ فِي الْمَاءِ فَصَارَ كُوَّةً لَمْ يَلْتَمَّ).

والسَّرْبُ في اللُّغة : الْمَحْفُورُ في الأرضِ ، وعن أُبَيِّ بنِ كعبٍ قالَ : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " انْجَابَ الْمَاءُ عَنْ مَسْلَكِ الْحُوتِ ، فَصَارَ كُوَّةً لَمْ يَلْتَمَّ ، فَدَخَلَ مُوسَى الْكُوَّةَ عَلَى إثرِ الْحُوتِ ، فَإذا بالْخَضِرِ ". وَقَالَ ابنُ عبَّاس : (جَعَلَ الْحُوتُ لاَ يَمَسُّ شَيْئاً مِنَ الْمَاءِ إلاَّ يَبسَ حَتَّى صَارَ صَخْرَةً).

(٠/٠)

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا } ؛ أي لَمَّا جاوزَ بين البحرينِ ، قال موسَى ليوشع : آتِنَا بما نتغدَّى بهِ ، { لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَاذَا نَصَباً } ؛ أي تَعَباً ومَشَقَّةً ، فلما قال لهُ موسى ذلكَ ؛ تَذكَّرَ قصَّة الحوتِ ؛ فـ { قَالَ } ؛ له : { أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ } ؛ عند رأسِ البحر ؛ { فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ } ؛ ما رأيتُ هناكَ من أمرِ الحوت أنْ أذكرَهُ لك يا نبيَّ اللهِ { وَمَآ أَنْسَانِيهُ } ؛ أي وما شَغَلَنِي عن ذكرِهِ لكَ ، { إِلاَّ } ، وَسْوَسَةُ ، { الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ } ، الحوتُ ، { وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً } ؛ أي شيئاً عَجَباً وهو أن الماءَ إنْجَابَ عنهُ ، وبقيَ كالكوَّةِ لَم يَلْتَمَّ.

(٠/٠)

قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } ؛ أي قال موسَى : ذلكَ الذي كُنَّا نطلبُ دلالةً لنا مِن اللهِ تعالى على موضعِ الْخَضِرِ ومرتدَّة من العلامةِ ، { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً } ؛ أي رَجَعَا وعادَا في الطريقِ الذي جاءَ منه يقُصَّانِ آثارَهما قَصَصاً ، والقَصُّ اتِّباعُ الأثرِ ، ومنهُ قوله{ قُصِّيهِ }[القصص : ١١].

(٠/٠)

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ } ؛ وهو الْخَضِرُ. قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أَنَّهُمَا لَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ جَعَلَ يُوشُعُ يُرِي مُوسَى مَكَانَ الْحُوتِ وَأَثَرَهُ فِي الْمَاءِ ، وَكَانَ مُوسَى يَتَعَجَّبُ مِنْ ذلِكَ إذ وَقَعَ

مُوسَى عَلَى رَجُلٍ قَائِمٍ يُصَلِّي ، فَانْتَظَرَ حَتَّى فَرَغَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ).
وإنَّما سُمي الْخَضِرُ ؛ لأنَّهُ إذا صلَّى في مكانٍ أخْضَرَّ ما حولهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا } ؛ أي أكرَمْناه بالنبوَّةِ ، { وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً } ببواطنِ الأمُور. قال ابنُ عبَّاس : (أعْطَاهُ عِلْماً مِنْ عِلْمِ الْغَيْب).

(٠/٠)

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً } ؛ أي مِمَّا يهديني إلى الصواب ، ويجوزُ أن يكونَ معنى رشداً يُرْشِدُنِي به ، والرُّشْدُ والرَّشَدُ لُغتان. قال قتادةُ : (لَوْ كَانَ أحَدٌ مُكْتَفِياً عَنِ الْعِلْمِ لاكْتَفَى نَبيُّ اللهِ مُوسَى عليه السلام ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : هَلْ أتَّبِعُكَ عَلَى أنْ تُعَلِّمَنِي). قال الزجَّاجُ : (فِي فِعْلِ مُوسَى عليه السلام – وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الأَنْبِيَاءِ – مِنْ طَلَب الْعِلْمِ وَالرِّحْلَةِ دَلِيْلٌ عَلَى أنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَتْرُكَ طَلَبَ الْعِلْمِ ، وَإنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ نِهَايَتَهُ ، وَأنْ يَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْهُ).

(٠/٠)

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } ؛ أي قال الْخَضِرُ لِموسى : إنَّكَ ترى منِّي شيئاً لا تصبرُ عليه ، { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } ؛ ظاهرهُ مُنْكَراً ، والأنبياءُ والصالحون لا يصبرونَ على ما يرونَهُ منكراً ، { قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً } ؛ على ما أراهُ منكَ ، { وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً } ؛ تأمُرني بهِ.

(٠/٠)

قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } ؛ أي قال الخضرُ لِموسى فإنْ اتَّبعتَنِي فلا تسألنَّ عن شيءٍ أنكرتَ فعلَهُ ، ولا تعجَلْ في المسألةِ عنهُ حتى أُبَيِّنَ لك الوجهَ فيه وأفسرَهُ لك ، لأنه قد غابَ علمهُ عنكَ.

(٠/٠)

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا } ؛ أي فمَضَيا حتى إذا رَكِبَا في السفينةِ خَرَقَهَا الخضرُ ، وذلك أنَّهما لَمَّا مشَيَا على الساحلِ مرَّت بهما سفينةٌ ، فكلَّمُوهم أن يحملوهما بغيرِ أُجرة.
قال ابنُ عبَّاس : (فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِيْنَةِ أخذ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأْساً ، أوْ مِنْقَاراً وَأكَبَّ عَلَى السَّفِيْنَةِ يَخْرِقُهَا ، فَقَالَ لَهُ أهْلُ السَّفِيْنَةِ : نَنْشُدُكَ اللهَ أنْ لاَ تَخْرِقَهَا ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْداللهِ لاَ يَحِلُّ لَكَ هَذا ، فَإنَّكَ تُغْرِقُهُمْ ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ الْخَضِرُ حَتَّى خَرَقَ السَّفِيْنَةَ).
قِيْلَ : إنهُ قَلَعَ لوحين مما يلِي الماءَ ، فحشَاهما موسى بثوبِهِ و { قَالَ } ؛ منكراً عليهِ : { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } ؛ أي مُنْكَراً ، ثم تَنَحَّى موسى فجلسَ ، وقالَ : ما أصنعُ في اتِّباع هذا الرجلِ الذي يظلمُ الناسَ؟! كنتُ في بني اسرائيلَ أقرأُ عليهم التوراةَ بُكْرَةً وعشيَّة ويقبَلُون منِّي ، فتركتُ ذلكَ وصَحِبْتُ هذا الظالِمَ...
فقال له الخضرُ بعد ما أخرجَ أهلُ السفينةِ متاعهم إلى الساحل : أتدري ما تحدث به نفسك ؟ قال : ما هو ؟ فأخبره بما حدَّث به نفسه ، ثُم { قَالَ } ؛ له الخضرُ : { أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً } ؛ أي لِمَا تركتُ من عهدِك ووصيَّتِك ، وَقِيْلَ : أرادَ به النسيانَ الذي هو ضدُّ الذِّكر.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً } أي لا تُكلِّفْني مشقَّةً ، وعامِلني باليُسْرِ لا بالعسرِ ، ولا تضيِّقْ عليَّ في صُحبتِي إياكَ. وأصلُ الرَّهَقِ : الْغَشَيَانُ ، يقالُ : رَهَقَ الفارسُ فلاناً إذا غَشِيَهُ فأدركَهُ.

(٠/٠)

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ } ؛ قال سعيدُ بن جبير : (وَجَدَ الْخَضِرُ غُلْمَاناً ، فَأَخَذ غُلاَماً وَضِيْءَ الْوَجْهِ). قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ مِنْ أحْسَنِهِمْ وَأصْبَحِهِمْ ، فَأَخَذهُ مِنْ بَيْنَهِمْ فَأَضْرَعَهُ وَأضْجَعَهُ ، ثُمَّ ذبَحَهُ بالسِّكِّيْنِ ، وَكَانَ غُلاَماً لَمْ يَبْلُغِ الْحِنْثَ).

وَقِيْلَ : إنهُ اجتذبَ رأسَهُ فقلعَهُ ، وَقِيْلَ : نزعَ رأسَهُ من جسدهِ ، وَقِيْلَ : رفصَهُ برجلهِ فقتلَهُ ، وَقِيْلَ : ضربَ رأسَهُ فقتلَهُ ، وكان اسمُ الغلامِ خشيود ، وَقِيْلَ : جيشور. و { قَالَ } لهُ موسى حين رأى ذلكَ منهُ : { أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ } ؛ أي أقَتَلْتَ نفساً بريئةً من الذُّنوب ، لَم تجب ما يوجبُ قتلَها.

ومن قرأ (زَاكِيَةً) فمعناهُ : طاهرةً من الذُّنوب لَم تبلغِ الْحُلُمَ ، { لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً } ؛ أي قَطِيعاً مُنْكَراً لا يعرفُ في شَرْعٍ.

وقد اختلفُوا في هذا الغلامِ أنَّهُ كان بالِغاً أم لَم يكن بالغاً ، إلاّ أن قولَهُ (بغيرِ نفسٍ) فيه دليلٌ على أنه بالغاً ، لأن غيرَ البالغِ لا يُقْتَلُ ، وإن قَتَلَ غيرَهُ ، وكان هذا الغلامُ يقطعُ الطريقَ ، ويلجأُ إلى أبويهِ فيحلفان دونَهُ ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً ".

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً } أي مُنْكَراً عظيماً. قال القتيبي : (النُّكُرُ أبْلَغُ مِنَ الإمْرِ فِي الإنْكَارِ ؛ لأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ أشَدُّ مِنْ خَرْقِ السَّفِيْنَةِ) ، وقالَ الزجَّاجُ : (الإمْرُ أبْلَغُ فِي الإنْكَارِ ؛ لأَنَّ خَرْقَ السَّفِيْنَةِ يُوجِبُ غَرْقَ أهْلِهَا ، وَذلِكَ أعْظَمُ مِنْ قَتْلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا } ؛ أي بعدَ هذه الكرَّةِ ، { فَلاَ تُصَاحِبْنِي } ؛ إنْ طلبتُ صحبتَكَ ، { قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً } ؛ أي بَلغْتَ من عندي إلى وقتِ العُذْرِ. رويَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " رَحِمَ اللهُ أخِي مُوسَى اسْتَحْيَا ، فَقَالَ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ

تُصَاحِبْنِي ، وَلَوْ ثَبَتَ مَعَ صَاحِبه لأَبْصَرَ الأَعَاجِيْبَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن لَّدُنِّي } قرأ العامَّةُ بتشديدِ النونِ وهو الأجودُ ؛ لأنَّ أصلَ (لَدُنْ) الإسكانُ ، فإذا أضفتَها إلى نفسِكَ رُدَّتْ نوناً ليسلمَ سكونُ النون الأُولَى ، كما يقولُ عن زيدٍ وَعَنِّي. ومَن قرأ بتخفيفِها قال (لَدُنِ) اسمٌ غير متمكّن ، فيجوزُ حذفُ النونِ منه.

(٠/٠)

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا } ؛ قيل هي قريةُ أنطاكيَّة ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا } أي سَأَلاَ لَهم الطعامَ ، { فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا } ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " وَكَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَاماً ".

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ } ؛ أي جِدَاراً مَائِلاً مُشْرِفاً على الانْهِدامِ يكادُ يسقطُ بسرعةٍ. قال وهبُ : (كان جِداراً طولهُ في السَّماءِ مائةُ ذراعٍ) وأمَّا قولهُ { يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ } هذا من مَجَازِ كلام العرب ؛ لأن الجدارَ لا إرادةَ لهُ ، وإنَّما معناه : قَرُبَ وَدَنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَقَامَهُ }. قال ابنُ عبَّاس : (هَدَمَهُ ثُمَّ أعَادَ بنَاءَهُ). وقال ابنُ جبير : (مَسَحَ الْجِدَارَ وَرَفَعَهُ بيَدِهِ فَاسْتَقَامَ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا } قرأ أبو رجاءٍ (يُضِيْفُوهُمَا) مخفَّفة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَاماً " ، وقال قتادةُ في هذه الآية : (شَرُّ الْقُرَى الَّتِي لا تُضَيِّفُ الضَّيْفَ ، وَلاَ تَعْرِفُ لابْنِ السَّبِيْلِ حَقَّهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً } ؛ أي قالَ لهُ موسى : لاتَّخذتَ على إقامتِكَ للجدار جُعلاً. وقُرِئَ (لتَخِذْتَ) ومعناهُ معنى الأول.

(٠/٠)

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ هَاذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ } ؛ أي هذا الكلامُ والإنكارُ على تركِ الأجر هو الْمُفَرِّقُ

بينَنا ، لأنَّكَ قد حكمتَ على نفسكَ ، وَقِيْلَ : معناهُ هذا فراقٌ بينَنا ؛ أي فراقُ إيصالنا ، والبَيْنُ مِن الأضدادِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً } ؛ أي سأخبرُكَ بتأويلِ الأشياء التي رأيتَها منِّي فلم تصبرُ علَيْها.

(٠/٠)

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ } ؛ يعني السفينةَ التي كانت لفقراءٍ يعملونَ في البحرِ لَم يكن لَهم مالٌ غيرُها ، وكانوا يعملونَ عليها ، ويأخذونَ إجرَتَها ، { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا } ؛ بالخرقِ ، { وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ } ؛ يقال له جَلَنْدُ ، { يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ } ؛ صحيحةٍ ، { غَصْباً } ؛ وقد يذكرُ (وَرَاءَ) بمعنى أمامَ ، وفيه دليلٌ أن للوصيِّ أنّ يعيبَ مالَ اليتيمِ إذا رأى فيه مصلحةً.

(٠/٠)

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى { وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ } ؛ أي الغلامُ الذي قَتَلَهُ كان كافراً ، وكان أبواهُ مؤمنين ، { فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً } ؛ فلذلكَ قَتَلَهُ ، وكان قد أعلمَهُ اللهُ بذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً ، وَلَوْ عَاشَ لأَرْهَقَ أبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً ".

(٠/٠)

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً } ؛ أي فأرادَ اللهُ أن يبدلَهما ولَداً

خيراً منهُ صلاحاً وطهارةً ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَقْرَبَ رُحْماً } أي وأوْصَلَ للرَّحمِ وأبرَّ بوالديهِ. قال ابنُ عبَّاس : (أبدَلَهُمَا اللهُ بهِ جَارِيَةً تَزَوَّجَهَا نَبيٌّ مِنَ الأَنْبيَاءِ فَوَلَدَتْ سَبْعِيْنَ نَبيّاً).

(٠/٠)

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ } ؛ أي في القريةِ المذكورة ، وكان اسمُ اليتيمين : أصْرَماً وَصَرِيْماً ، { وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا } ؛ قِيْلَ : إنه كان مَالاً ، وَقِيْلَ : كان عِلماً.

وعن ابنِ عبَّاس : (أنه كانَ لَوحاً من ذهبٍ وفيه : بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ ؛ لاَ إلَهَ إلاّ اللهُ ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، عَجِبْتُ لِمن أيقنَ بالموتِ كيف يفرحُ ، ولِمن أيقنَ بالنارِ كيف يضحكُ ، وعجبْتُ لِمن أيقنَ بالقَدَر كيف يحزنُ ، وعجبتُ لِمن يرى الدُّنيا وتقلُّبَها بأهلِها كيف يطمئنُّ إليها). وَقِيْلَ : كان ذهباً وفضَّةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً } ؛ أي كان ذا أمانةٍ ، كان يقالُ له : كاشح ، وَقِيْلَ : إنه مِن الأنبياءِ. قال سعيدُ بن جُبير عن ابنِ عبَّاس : (حُفِظا بصَلاَحِ أبيهِمَا وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمَا صَلاَحاً). قال جعفرُ بن محمَّد : (كَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الأَب الصَّالِحِ سَبْعَةُ آبَاءٍ).

وعن محمَّد بنِ المنكدرِ قال : (إنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْفَظُ بالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ ، وَأَهْلَ دُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ وَأُسْرَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيْهَا ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ فِيْهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا } ؛ أي فأرادَ ربُّكَ بالأمرِ تسويةِ الجدار إلى أن يَكْبُرَا ويعقلاَ ، { وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً } ؛ أي نعمةً ؛ { مِّن رَّبِّكَ } ؛ وهذا نُصِبَ على المصدريَّة ؛ أي رَحِمَهما اللهُ بذلك رحمةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } ؛ وإنَّما فعلتهُ بأمرِ الله تعالى ، { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً } ؛ وأصلهُ تَسْتَطِعْ ؛ إلاّ أن الطاءَ والتاء من مخرجٍ واحد ، فحذفَ التاء لَمَّا اجتمعا لتخفيفِ اللفظ.

وروَي أن الخضرَ لَمَّا أرادَ أن يُفارقَ موسى أوصاهُ ، قال يا موسَى : أفْرِغ عن اللَّجَاجَةِ ولا تَمشِ في غيرِ حاجة ، ولا تضحَكْ من غير عجبٍ ، ولا تعيِّرِ المذنبين بخطاياهم ، وابْكِ على خطيئتك يا ابنَ عمرانَ.

(٠/٠)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً } ؛ يعني يسألُكَ اليهودُ يا مُحَمَّدُ عن خبرِ ذي القَرنَين { قُلْ سَأَتْلُواْ } سأقرأ عليكم خبرَهُ. قال مجاهدُ : (مَلَكَ الأَرْضَ أَرْبَعَةٌ : مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ ، فَالْمُؤْمِنَانِ سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ ، وَالْكَافِرَانِ النَّمْرُودُ وَبَخْتَنَصِّرُ).
واختلفُوا في تسميتهِ بذِي القرنَين ، فقال بعضُهم : أنه مَلَكَ فارسَ والرُّوم ، وَقِيْلَ : لأنه دَعَا قومَهُ إلى التوحيدِ ، فضربوهُ على قرنهِ الأيسر ، وَقِيْلَ : على قَرْنَيْهِ ، وَقِيْلَ : لنه دخلَ النورَ والظلمة ، وَقِيْلَ : لأنه بَلَغَ قُطْرَي الأرضِ ، وكان اسمهُ اسْكَنْدَرُ.

(٠/٠)

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ } ؛ أي مَكَّنَّاهُ في الأرضِ ، { وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } ؛ أي من كلِّ شيء تستعينُ به الملوكُ على فتحِ المدائن ومحاربةِ الأعداء ، (سَبَباً) أي بلاداً إلى حيث أرادَ ، وَقِيْلَ : قَرَّبْنَا له أقطاراَ الأرضِ ، كما سَخَّرْنَا الريحَ لسليمان. وقال عليٌّ رضي الله عنه : (سَخَرَ اللهُ لِهُ السَّحَابَ فَحَمَلَهُ عَلَيْهَا وَمَدَّ لَهُ فِي الأَسْبَاب ، وَبَسَطَ لَهُ النُّورَ ، وَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِ سَوَاءٌ) وهذا معنى تَمَكُّنِهِ في الأرضِ ، وهو أنه سَهَّلَ عليه المسيرَ فيها ، وذلَّلَ له طُرُقَها.

(٠/٠)

فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَتْبَعَ سَبَباً } ؛ أي طريقاً تؤدِّيه إلى مغرب الشَّمس. قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ } ؛ أي إلَى قومٍ لَم يكن بينَهم وبين مغرب الشَّمس أحدٌ ؛ لأنه لا يُمكنه أن يبلُغَ موضعَ غروب

الشَّمس. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ } ؛ أي رآها تغربُ في الماءِ ، وَقِيْلَ : في عينٍ ذات حَمَأَةٍ وهي الطينُ الأسودُ الْمُنْتَنُ.

وتقرأ (حَامِيَةٍ) أي حارَّةٍ ، وهي قراءةُ العبادلةِ الثلاثةِ – عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ – وابنُ عامرٍ وأهلُ الكوفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً } ؛ أي عند العينِ ، { قُلْنَا ياذَا الْقَرْنَيْنِ } ؛ قِيْلَ : في هذا دليلٌ أن ذا القرنين كان نبيّاً ؛ لأن الانسانَ لا يعلمُ أمرَ الله إلاّ بالوحي ، ولا يجوزُ الوحيُ إلاّ إلى الأنبياءِ ، وَقِيْلَ : كان معه نبيٌّ ، فأوحَى اللهُ إلى ذلك النبيِّ ، وفي الجملةِ لا يُمكن إثباتُ النبوَّة إلاّ بدليلٍ مقطوعٍ به.

وروِيَ " عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه سُئِلَ عن ذي القرنين قال : " هُوَ مَلِكٌ يَسِيْحُ فِي الأَرْضِ ".

قال ابنُ الأنباريِّ : (إنَّهُ كَانَ نَبيّاً ، فَإنَّ اللهَ قَالَ لَهُ كَمَا قَالَ لِلأنْبيَاءِ ، إمَّا بتَكْلِيْمٍ أوْ بوَحْيٍ ، وَمَنْ قَالَ لَمْ يَكُنْ نَبيّاً ، قَالَ مَعْنَى قَوْلِهِ أَلْهَمْنَا كقولهِ{ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى }[القصص : ٧] أي أَلْهَمْنَاها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً } ؛ أي قُلنا له إما أن تَقْتُلَهُمْ على الكفرِ إن أبَوا الإسلامَ ، وإما أن تأسِرَهم فتعلِّمَهم الهدى وتبصِّرَهم الرشادَ.

(٠/٠)

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ } ؛ أي من أسرفَ ، { فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ } ؛ أي نقتلهُ ، وكلُّ مَن أشركَ فقد ظلمَ نفسه ، { ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ } ؛ في الآخرةِ بعد قتلي إيَّاهُ ، { فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً } ؛ يعني في النارِ أنكَى من القتلِ وأعظم.

(٠/٠)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَى } ؛ أي فلَهُ في الآخرة جزاءَ الْحُسنَى أي الجنةَ بالطاعةِ التي عمِلَها في الدنيا. وقرأ أهلُ الكوفةِ (جَزَاءً) نصباً وهو مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ ؛ أي

فلهُ الْحُسْنَى مَجْزِيّاً بها. قال ابنُ الأنباريِّ : (جَزَاءً نصباً على المصدر ؛ أي فيُجْزَى الْحُسْنَى جَزَاءً). قولهُ : { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } ؛ أي سنأمرهُ في الدُّنيا بما نُيَسِّرُ عليهِ.

(٠/٠)

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً } ؛ أي سَلَكَ طريقاً آخرَ نحو المشرقِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً } ؛ أي حتى إذا انتهىَ إلى آخرِ العمارة من جهةِ المشرق وجدَ عند الشمسِ قوماً لَم يكن لَهم جبلٌ ولا شجرٌ ولا شيء يسترُهم عن الشمسِ. قال لكلبيُّ : (مَعْنَاهُ حُفَاةً عُرَاةً يَفْتَرِشُ أحَدُهُمْ أُذُنَهُ وَيَلْبَسُ الأُخْرَى).

(٠/٠)

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } ؛ أي وجدَ قوماً كذلك. الذين كانوا عند مغرب الشَّمسِ ، وَقِيْلَ معناهُ : كما بَلَغَ مغربَ الشمسِ وكذلك بَلَغَ مطلعَها ، ثم استأنفَ وقال { وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } ؛ أي عِلْماً.

(٠/٠)

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ } ؛ أي ثُم أتبعَ سبباً ثالثاً مما يبلغهُ قطراً من أقطارِ الأرض ، وَقِيْلَ : أَتْبَعَ سَبَباً : حتى إذا بلغَ طريقاً من المشرقِ نحو الرُّومِ ، وحتى إذا بلغَ بين

الجبلين الذين جعلوا الرَّدْمَ بينهما ، وهما السدَّانِ.
قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو : (السَّدَّيْنِ) بفتحِ السِّين ، وقرأ الباقون بضمِّها ، وهما لُغتان ، { وَجَدَ مِن دُونِهِمَا } ؛ الجبلينِ ، { قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً } ؛ أي لا يكادون يفقهونَ قولَ غيرِهم ، ولا يعرفون لُغة غيرهم.
قرأ حمزةُ والكسائيُ وخلف (يُفْقَهُونَ) بضمِّ الياء وكسر القاف ، ومعناهُ : لا يكادون يفقهونَ أحداً قولاً.
قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (لاَ يَفْقَهُونَ كَلاَمَ أحَدٍ ، وَلاَ أحَدٌ يَفْهَمُ كَلاَمَهُمْ).

(٠/٠)

قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ } ؛ أي قالوا بإشارةٍ أو ترجُمانٍ ؛ لأنه قد تقدَّم أنَّهم لا يفقهونَ قولاً ، إن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وهما قبيلتان من أولادِ يافث بنِ نوحٍ مُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ ؛ أي يفسدونَ أموالَ الناسِ ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ بغيٍ وظُلْمٍ. قال الكلبيُّ : (كَانُواْ يَخْرُجُونَ إِلَى أَرْضِ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ شَكَوهُمْ إِلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ أيَّامَ الرَّبِيْعِ فَلاَ يَدَعُونَ فِيْهَا شَيْئاً أخْضَرَ إلاّ أكَلُوهُ ، وَلاَ يَابساً إلاَّ احْتَمَلُوهُ).
" وعن عبدِالله قالَ : سَأَلْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، قَالَ : " يَأْجُوجُ أُمَّةٌ وَمَأْجُوجُ أُمَّةٌ ، كُلُّ أُمَّةٍ أرْبَعُمِائَةِ ألْفٍ ، لاَ يَمُوتُ أحَدُهُمْ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى ألْفِ ذكَرٍ مِنْ صُلْبِهِ كُلُّهُمْ قَدْ حَمَلَ السِّلاَحَ " قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُمْ لَنَا ؟ قَالَ : " هُمْ ثَلاَثَةُ أصْنَافٍ : صِنْفٌ مِنْهُمْ طُولُ الرَّجُلِ مِنْهُمْ مِائَةٌ وَعُشْرُونَ ذِرَاعاً ، وَصِنْفٌ طُولُهُ وَعِرْضُهُ سَوَاءٌ عُشْرُونَ وَمِائَةُ ذِرَاعٍ أيْضاً ، وَهُمُ الَّذِيْنَ لاَ يَقُومُ لَهُمْ جَبَلٌ وَلاَ يَمُرُّونَ بِفِيْلٍ وَلاَ جَمَلٍ وَلاَ وَحْشٍ وَلاَ خِنْزِيْرٍ إلاَّ أكْلُوهُ ، لَهُمْ مَخَالِبُ فِي أيْدِيْهِمْ وَأضْرَاسٌ كَأَضْرَاسِ السِّبَاعِ ، وَأنْيَابٌ يُسْمَعُ لَهَا حَرَكَةٌ كَحَرَكَةِ الْجَرَسِ فِي حُلُوقِ الإبِلِ ، وَلَهُمْ مِنَ الشَّعْرِ فِي أجْسَادِهِمْ مَا يُوَارِيْهِمْ ، وَمَا يُتَّقَى مِنْهُ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ ، يَعْوُونَ عَوِيَّ الذِّئَاب ، وَيَتَسَافَدُونَ كَتَسَافُدِ الْبَهَائِمِ إذا الْتَقَوْا ".
قال وهبُ : (يَشْرَبُونَ مَاءَ الْبَحْرِ وَيَأْكُلُونَ دَوَابَّهَا ، وَيَأْكُلُونَ الْخَشَبَ وَالشَّجَرَ ، وَمَنْ ظَفَرُواْ بِهِ مِنَ النَّاسِ أكَلُوهُ). وقال كعبٌ : (هُمْ زِيَادَةٌ فِي وَلِدِ آدَمَ ، وَذلِكَ أنَّ آدَمَ احْتَلَمَ ذاتَ يَوْمٍ فَامْتَزَجَتْ نُطْفَتُهُ فِي التُّرَاب ، فَخَلَقَ اللهُ مِنْ ذلِكَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، فَهُمْ مُتَّصِلُونَ بنَا مِنْ جِهَةِ الأَب دُونَ الأُمِّ).
وقال ابنُ عبَّاس : (هُمْ عَشْرَةُ أجْزَاءٍ وَوَلَدُ آدَمَ كُلُّهُمْ جُزْءٌ). وَقِيْلَ : إن التُّرْكَ منهم إلاّ أن أولئكَ أشدُّ

فساداً من التُّركِ ، فتباعدُوا عن الناسِ ، كما ينعزلُ اللُّصوصُ. ويأجوجُ ومأجوج اسْمانِ أعجميَّان لا ينصرفان ؛ لأنَّهما معرفةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً } ؛ أي قالوا هل نجعلُ لك بعضاً من أموالِنا ضربتهُ في كلِّ سنةٍ على أن تجعلَ بيننا وبينهم حاجزاً وسدّاً. والرَّدْمُ هو السدُّ. وردمْتُ البابَ ؛ أي سَدَدْتُهُ ، والْخَرْجُ والخراجُ واحدٌ.

(٠/٠)

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ } ؛ أي قال لَهم ذو القَرنين : مَا مَكَّنْي اللهُ مِن الإتساعِ في الدُّنيا خيرٌ من خَراجِكم الذي تبذلونه لِي ، يريدُ ما أعطانِي اللهُ وملَّكَني أفضلُ من عطيَّتِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ } ؛ أي الرِّجالِ والآلاتِ ، { أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً } ؛ الرَّدْمُ أشدُّ الحجاب ، وهو أكبرُ من السدِّ.

(٠/٠)

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ } ؛ والزُّبَرَةُ القطعةُ العظيمة ، فأتَوهُ بها فبناهُ ، { حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ } ؛ أي حتى إذا مَلأَ ما بين الجبلين ، وسَمَّاهُما صَدَفَيْنِ ؛ لأنَّهما يتصادفان ، أي يتقابَلان ، فلما وضعَ بينهما الحديدَ وجعلَ " بين "كلَّ قطعتَي حديدٍ حطباً حتى ملأَ ما بين الجبلين ، فأمرَ بالنارِ فأُرسِلت فيه ، و { قَالَ } ؛ للحدَّادين : { انفُخُواْ } ؛ بالمنافيخ ، { حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً } ؛ حتى إذا صارَ الحديدُ كالنارِ ، { قَالَ آتُونِي } ؛ أي أعطونِي قِطْراً ، { أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً } ؛ وهو النحاسُ الذائب أصبُّهُ على الحديدِ والحطب فيتقطَّرُ كما يتقطرُ الماء ، ففعلَ حتى إذا جعلَ بعضه في بعضٍ ، فصارَ الجميعُ شيئاً واحداً جبلاً صَلْداً من حديدٍ ونُحاس. قيل إنه حفر له الأساس حتى بلغ الماء ، ثم جعل عرضه خمسين فرسخًا ثم ملأه وشرفه.

(٠/٠)

فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)

قولهُ تعالى : { فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً } ؛ أي ما قدَرُوا أن يَعْلُوهُ لارتفاعهِ ومَلاسَتِهِ ، وما قدَرُوا أن ينقِبُوهُ من أصلهِ ؛ لشدَّتهِ وصلابتهِ.
وعن أبي هريرةَ : " أنّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفُرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : نَرْجِعُ إِلَى غَدٍ وَنجِيْءُ أَيْضاً نَحْفِرُهُ ، فَيَأْتُونَهُ غَداً وَقَدْ أَعَادَهُ اللهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَحْفِرُوهُ "

(٠/٠)

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ هَاذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي } ؛ أي قال لَهم ذُو القرنينِ لَمَّا فَرَغَ من بنائهِ ، هذا التمكينُ الذي أدركتُ به السدَّ رحمةٌ مِن ربي من حيثُ ألْهَمني وقوَّانِي ، ونعمةٌ مِن ربي عليكم ، { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ } ؛ أي وقتُ اشتراطِ السَّاعة جعلَ السدَّ كَسْراً. ومن قرأ (دَكّاً) فمعناهُ أرْضاً منبسطةً ، يقالُ : نَاقَةٌ دَكَّاءٌ إذا لَم يكن لَها سِنَامٌ ، { وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً } ؛ أي كان تقديرهُ لِخروجهم صِدْقاً كائناً.

(٠/٠)

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ } ؛ أي تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ انقضاءِ أمر السدِّ يَموجُونَ في الدُّنيا مختلطين لكثرَتِهم ، يقالُ : مَاجَ الناسُ إذا دخلَ بعضُهم في بعضٍ حيَارَى كمَوْجِ الماءِ ، فيخرجون على الناسِ فيشرَبُون الماءَ ، يأكلونَ الدوابَّ ، ومَن ظَفَرُوا به من الناسِ أكلوهُ ، فاذا كَثُرَ

فسادُهم في الأرضِ بعثَ اللهُ عليهم بعثاً فيقتلهم فيموتون كموتِ الجرادِ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً } ؛ يعني النفخةَ الثانيةَ التي تكون للحَشْرِ يُحْشَرُ بها الناسُ من قبورِهم ، ويُجمَعُون جَمعاً في الموقفِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً } ؛ أي وأظْهَرْنَا جهنَّمَ يومَ القيامةِ للكافرينَ حتى يَرَوا فيها جزاءَ أعمالِهم مُعَايَنَةً.

(٠/٠)

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي } ؛ أي أظْهَرْنَا جهنَّمَ حتى شاهَدَها الناسُ الذين كانت أعينُ قلوبهم فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي لِما تراءى لها من الزَّين والغشاوةِ ، { وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } ؛ أي كان يثقلُ عليهم ذِكْرُ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَآءَ } ؛ أي أيَحْسَبُ الكفارُ أن ينفعَهم اتِّخاذُهم عبادي مثلَ المسيحِ والملائكة الذين عبدُوهم مشن دونِي أرْبَاباً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } ؛ أي جعلناها مَنْزِلاً ومَأْوىً لَهم ، ومعدَّةً عندنا ، كما يُهَيَّأُ المنْزِل للضَّيف.

(٠/٠)

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ : هل نُخبرُكم بالآخْسَرِيْنَ أعْمَالاً في الآخرةِ يعني كفار أهل الكتاب واليهودَ والنصارى ؟ وقال عليٌّ رضي الله عنه : (هُمُ الرُّهْبَانُ وَالْقِسِّيْسُونَ حَبَسُواْ أنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ) وَقِيْلَ : هم جميعُ اليهودِ والنَّصارى ، { الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ؛ أي بَطَلَ عملُهم واجتهادُهم في الدِّين ، { وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } ؛ أي وهم يظنُّونَ أنَّهم يعملون صالِحاً.

ثُم بَيَّنَ مَن هم فقال : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ } ؛ أي جَحَدُوا دلائلَ توحيدِهِ ، وأنكَرُوا البعثَ بعد الموتِ ، { فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } ؛ أي بَطَلَتْ حسناتُهم التي عَمِلُوها مثل صِلَةِ الرَّحِمِ ، والإحسانِ إلى الناس ، فلا يَرَوْنَ سعيَهم مع الكفرِ شيئاً ، { فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ } ؛ ولا يكون لَهم عند اللهِ ، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً } ؛ قَدْراً ولا مَنْزِلَةً.

(٠/٠)

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ } ؛ أي ذلك الإحباطُ جزاؤهم ، { وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } ؛ أي واتِّخاذهم القُرْآنَ ونبوَّة أنبيائي هُزُواً ؛ يستهزؤن بها.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً } ؛ الْفِرْدَوْسُ في اللُّغة : جَنَّةٌ ذاتُ كُرُومٍ. قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، الْفِرْدَوْسُ أعْلاَهَا ، مِنْهَا تَتَفَجَّرُ الأَنْهَارُ الأَرْبَعَةُ ، فَإذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ " وقال صلى الله عليه وسلم : " جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ أرْبَعٌ : جَنَّتَان مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيْهِمَا مِنْ فِضَّةٍ ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيْهِمَا مِنْ ذهَبٍ ".

وَقِيْلَ : خلقَ اللهُ الفردوسَ بيدِهِ يفتحُها كلَّ يومٍ خمسَ مرَّات ، فيقولُ : ازْدَادِيَ حُسْناً وَطِيْباً لأَوْلِيَائِي.

وقال قتادةُ : (الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَفْضَلُهَا وَأَرْفَعُهَا) وقال أبو أُسَامَةَ : (الْفِرْدَوْسُ سُرَّةُ الْجَنَّةِ). وقال كعبٌ : (لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ جَنَّةٌ أَرْفَعُ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ، فِيْهَا الآمِرُونَ بالْمَعْرُوفِ ، والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ).

(٠/٠)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً } أي مُقيمين فيها لا يطلبونَ عنها تِحويلاً. قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الْفِرْدَوْسَ أرْفَعُ مَوْضِعٍ فِي الْجَنَّةِ وَأحْسَنُهُ ".

(٠/٠)

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي } ؛ الآيةُ ، وذلكَ أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }[الاسراء : ٨٥] وقالَتِ اليهودُ والنصارى : أوْتِيْنَا عِلماً كثيراً ، أوْتِيْنَا التوراةَ فيها عِلْمُ كلِّ شيء ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ؛ أي لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِعِلْمِ ربي وحكمتهِ ، فيكتبُ من البحرِ كما يكتبُ من المدادِ ، { لَنَفِدَ الْبَحْرُ } ؛ وتكسَّرَتِ الأقلامُ ، { قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ } ؛ أي بمثل البحر ، { مَدَداً } ؛ لِهذا البحرِ. ويقالُ أرادَ بـ (كَلِمَاتِ رَبي) معانِيَ القُرْآنِ والأحكامِ المستنبطةِ منه ، والْمَدَدُ شيءٌ بعدَ شيءٍ.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ : إنَّمَا أنَا بَشَرٌ آدَمِيٌّ مثلُكم. قال ابنُ

عبَّاس : (عَلَّمَ اللهُ نَبيَّهُ التَّوَاضُعَ لِئَلاَّ يَتَبَاهَى عَلَى خَلْقِهِ ، فَأَمَرَهُ اللهُ أنْ يُقِرَّ عَلَى نَفسِهِ بِأَنَّهُ آدَمِيٌّ كَغَيْرِهِ إلاَّ أنَّهُ أكْرِمَ بالْوَحْيِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَاهُكُمْ إِلَاهٌ وَاحِدٌ } ؛ لا شريك له ، { فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ } ؛ أي يَخْشَى لقاءَ ربه ويخافُ البعثَ في المصيرِ إليه ، { فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً } ؛ أي خالِصاً لا يرَى في عبادةِ الله أحداً ، { وَلاَ يُشْرِكْ } ؛ مع اللهِ غيرَهُ في العبادةِ.

وقال سعيدُ بن جبير : معناه (وَلاَ يَرَى) { بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } ؛ وعن عطاء عن ابن عباس قال : (قال : وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِهِ أحَداً ، ولَم يقُلْ : ولا يشركْ بهِ ؛ لأنه أرادَ العملَ الذي يعملهُ للهِ ، ويحبُّ أن يُحمدَ عليهِ). قال الحسنُ : (هَذا فِي مَنْ أشْرَكَ بعَمَلِهِ يُرِيْدُ اللهَ بِهِ وَالنَّاسَ).

وعن عُبادة بن الصامتِ : قال سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مَنْ صَلَّى صَلاَةً يُرَائِي بِهَا فَقَدْ أشْرَكَ ، وَمَنْ صَامَ صَوْماً يُرَائِي بِهِ فَقَدْ أشْرَكَ " وقرأ هذه الآية { فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } "

وعَن أبي هريرةَ وأُبَيِّ بنِ كعب عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الكَهْفِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إلَى ثَمَانِيَةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ يَكُونُ فِيْهَا ، وَمَنْ قَرَأ الآيَةَ الَّتِي فِي آخِرِهَا حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ إلَى مَكَّةَ ، حِشْوُ ذلِكَ النُّورِ مَلاَئِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ مِنْ مَضْجَعِهِ. وَإنْ كَانَ مَضْجُعُهُ بمَكَّةَ فَتَلاَهَا كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ مِنْ مَضْجَعِهِ إلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، حِشْوُ ذلِكَ النُّورِ مَلاَئِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " وَمَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ ثُمَّ أدْرَكَ الدَّجَّالَ لَمْ يَضُرَّهُ ". وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إلَى سِتَّةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ ، فَإنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ ".

(٠/٠)

كهيعص (١)

{ كهيعص } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (أوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ ثَنَاءٌ أثْنَى بِهِ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْكَافُ مِنَ كَافٍ ، وَالْهَاءُ مِنْ هَادٍ ، وَالْيَاءُ مِنْ حَكِيْمٍ ، وَالْعَيْنُ مِنْ عَلِيْمٍ ، وَالصَّادُ مِنْ صَادِقٍ وَصَمَدٍ). وَقِيْلَ : معناهُ : كافٍ لخلقهِ هادٍ لعبادهِ ، يده فوقَ أيديهم ، عالِمٍ ببَريَّتِهِ ، صادقٍ في وعدهِ.

(٠/٠)

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ } ؛ أي بهذا اذكر رحمةَ ربك على زكرَّيا ، أو ما يُتْلَى عليكم ذكرُ رحمةِ ربكَ ، و(عَبْدَهُ) منصوبٌ بالرحمة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً } ؛ أي إذ دعَا ربَّهُ سِرّاً في جوفِ اللَّيلِ مُخلصاً لَم يطَّلِعْ عليه إلاَّ اللهُ ، { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي } ؛ أي ضَعُفَ منِّي.

قال قتادةُ : (شَكَا ذهَابَ أضْرَاسِهِ) ، والوَهَنُ في اللغة : نُقْصَانُ الْقُوَّةِ ، { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً } ؛ يقولُ : شِخْتُ وَضَعُفْتُ ، ومن الموتِ قَرُبْتُ. والاشتعالُ : انتشارُ شُعَاعِ النَّارِ ، واشتعالهُ في الشَّيْب من أحسنِ الاستعارةِ ؛ لأنه ينتشرُ في الرأسِ ، كما ينتشرُ شُعاع النارِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { شَيْبًا) نُصِبَ على المصدرِ ، وهذا يدلُّ على أن أفضلَ الدُّعاء دعاءُ السرِّ ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الدُّعَاءِ الْخَفِيُّ ، وَأَفْضَلُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً } ؛ أي كنتَ تُجيبُنِي إذا دعوتُكَ ، وقد عوَّدْتَني الإجابةَ في ما مضى فلِمَ لا تُجيبُنِي.

(٠/٠)

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِى } ؛ أي خِفْتُ العصبةَ وبَنِي العمِّ أن يرِثُوا عِلمي دون مَن كان مِن نَسْلِي ، ويقالُ : خِفْتُهُمْ على الدِّين من ورائي ؛ لأنَّهم كانوا من أشرار بني إسرائيل. قرأ يحيى بن يعمر : (خَفَّتِ) بفتحِ الخاء وتشديدِ الفاء ، و(الْمَوَالِيْ) بسكون الياء ، يعني ذهَبَتِ الموالِي.

وقلتُ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مِن وَرَآءِى } أي بعدَ موتِي. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً } ؛ أي عَقِيماً من الولدِ ، والرجلُ العَاقِرُ : الذي لا يولَدُ لهُ. وامرأتهُ هي أختُ أُمِّ مرَيم بنت عمرانَ بن ماثان.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً } ؛ أي أعطِني مِن عندك ولداً ، { يَرِثُنِي } ؛ يَرِثُ نبوَّتِي ومكاني { وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } ؛ العلمَ والنبوَّةَ ، أرادَ بذلك يعقوبَ بنِ ماثان وهم أخوالُ يَحيى ، وبنو ماثان كانوا رؤساءَ بني إسرائيل ، وليسَ يعقوبُ هذا أبو يوسفَ. قرأ أبو عمرو والكسائي : (يَرِثُنِي

وَيَرِثْ) بالجزمِ فيهما على جواب الدُّعاء ، وقرأ الباقون برفعهما على الحالِ والصِّفة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيّاً } أي وَالِياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً } ؛ أي وَفِّقْهُ للعملِ حتى يصيرَ مِمَّن ترضاهُ. وقال أبو صالِح : (مَعْنَاهُ : وَاجْعَلْهُ رَب نَبيّاً كَمَا جَعَلْتَ أبَاهُ). وَقِيْلَ : إجْعَلْهُ صالِحاً تقيّاً بَرّاً مرْضِيّاً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين أنَّ معنى قَوْلُهُ تَعَالَى { يَرِثُنِي } أي يرِثُ مالِي ، إلاّ أنَّ حملَ الآية على ميراثِ العلم أولَى ؛ لأن الأنبياءَ كانوا لا يَشُحُّونَ بالمالِ ، ولا يتنافسونَ على مصيرِ المال بعد موتِهم إلى مستحقِّهِ ؛ ولأنه قال (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ولَم يُرِدْ بذلكَ المالَ ، ولأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : " إنَّا – مَعْشَرَ الأنْبيَاءِ – لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةً " وإنَّما دعاءُ زكريا بالولدِ لِيَلِيَ أمورَ الدِّين بعدَهُ ؛ لخوفِهِ من بَنِي أعمامِهِ أن يبدِّلوا دِيْنَهُ بعدَ وفاته ، وخافَ أن يستولُوا على علومِهِ وكُتُبِهِ فيحرِّفُونَها ، ويواكلونَ الناس بها ، ويفسدون دِيْنَهُ ، ويصدُّون الناسَ عنه.

(٠/٠)

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يازَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى } ؛ معناهُ : إنَّ الله استجابَ لهُ فأوحى إليه : { يازَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ } أي نُفَرِّحُكَ { بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى } ؛ لأنَّ الله أحيَا به الإيْمانَ والحكمةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً } قال الكلبيُّ وقتادةُ : (مَعْنَاهُ : لَمْ نُسَمِّ أحَداً قَبْلَهُ يَحْيَى) ، قال ابنُ جبير وعطاء : (لَمْ نَجْعَلُ لَهُ شَبِيْهاً وَلاَ مِثْلاً ؛ لأنَّهُ لَمْ يَعْصِ وَلاَ يَهِمُّ بمَعْصِيَةٍ). وَقِيْلَ : لَم تلِدِ العواقرُ مِثْلَهُ.

وإنَّما قالَ { مِن قَبْلُ } لأنهُ تعالى أرادَ أن يخلُقَ بَعْدَهُ أفضلَ منه وهو مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، وَقِيْلَ : إن اللهَ تعالى لَم يُرِدْ بهذا القول جمعَ الفضائلِ كلِّها ليحيَى ، وإنَّما أرادَ في بعضِها ؛ لأن الخليلَ والكليمَ كانا قبلَهُ ، وكانا أفضلَ منهُ.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ } ؛ أي قال زكريَّا لجبريلَ : يا سيِّدي مِن أين يكونُ لِي ولدٌ ، { وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً } ؛ مِن الولد ، { وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً } ؛ أي حالَ اليأسِ والجفف. روي أنهُ كانَ له يومئذ بضعٌ وستُّون سنةً ، والعِتِيُّ هو الذي غَيَّرَهُ طولُ الزمانِ إلى اليأسِ. قال قتادةُ : (وإنَّمَا قَالَ ذلِكَ لِنُحُولِ عَظْمِهِ) يقالُ : رجلٌ عَاتٍ إذا كان قاسيَ القلب غيرَ ليِّن. وقرأ حمزةُ والكسائي : (عِتِيّاً) بكسرِ العين وهُما لُغتان ، وقد تقدَّم أن هذا القولَ من زكريا لَم يكن على جهةِ الإنكار ، ولكن أحبَّ مِن أيِّ وجهٍ يكونُ أبرَدِّهِمَا إلى الشَّباب ، أو يرزقهُما الولدَ وهما على هذه الصفةِ.

(٠/٠)

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ كَذالِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } ؛ أي قال لهُ جبريل : هكذا قَالَ رَبُّكَ ، كما قلتُ لكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، { وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ } ؛ أي من قبل يحيى ، { وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } ؛ وكنتَ معدوماً. قرأ حمزةُ والكسائيُّ : (وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ) بالنون والألف.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً } ؛ أي قالَ زكريا : يا رب اجعل لِي علامةً أعلمُ بها وقوعَ ما بُشِّرْتُ بهِ ؛ لأتعجَّلَ الْمَسَرَّةَ ، { قَالَ آيَتُكَ } ؛ علامتُكَ ، { أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً } ؛ أي لا تقدر أن تكلم الناسَ ، وأنت سَوِيٌّ لا خَرَسَ بلسانِكَ ولا آفةَ ، فإنه كان يقرأ الزَّبُورَ ويدعو اللهَ ويُسَبِّحُهُ ، ولكنه اعتقلَ كلامَهُ عن كلامِ الناس. وقوله { سَوِيًّا } أي صَحيحاً سالِماً من غيرِ بأسٍ ولا خَرَسٍ ، و(سَوِيّاً) منصوبٌ على الحال.

(٠/٠)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ } ؛ أي خَرَجَ عليهم من مُصَلاَّهُ مُتَغَيِّرَ اللونِ ، وهم ينتظرونه فأنكروهُ وقالوا : ما لكَ يا زكريا ؟ { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } ؛ أي أشارَ إليهم وأوْمَأَ ، ويقالُ : كتبَ بيدهِ { أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً } ؛ أي صَلُّوا لله غَدْوَةً وَعَشِيَّةً ، والسُّبْحَةُ الصلاةُ ، فلما كان وقتُ حملِ امرأتهِ ومنع من الكلامِ ، خرج إليهم يأمرهم بالصلاة إشارةً ، ثم تكلم بعد ثلاث ، وأتى امرأته على طُهْرٍ ، فحملت بيَحْيَى.

(٠/٠)

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } ؛ أي قال اللهُ ليَحْيَى بعدَ ما بَلَغَ البلغ الذي يجوزُ أن يخاطَبَ : { خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } أي اعمل بما في التَّوراةِ بجِدٍّ ومواظبةٍ وعزيْمَةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } ؛ أي أعطيناهُ الحكمةَ ، وهي الفَهْمُ لكتاب الله صَبيّاً ، وكان يحيى عليه السلام على هَيْأَةِ الصبيان ، ولهُ عقلُ البالغينَ. وقال ابنُ عبَّاس : (وَآتَيْنَاهُ النُّبُوَّةَ فِي صِبَاهُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثِ سِنِيْنَ. وروي أنهُ مَرَّ بالصِّبيانِ وهو صغيرٌ ، فقالوا : تَعَالَ نلعبُ ، فقال : مَا لِلَّعِب خُلِقْنَا.

(٠/٠)

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً } ؛ أي وآتَيْنَاهُ تَحَنُّناً على قومهِ ، وَرِقَّةَ قلبٍ عليهم ؛ ليدعوَهُم إلى طاعة ربهم ، وقولهُ { وَزَكَاةً } أي عَمَلاً صالحاً وإخلاصاً ، وَقِيْلَ : معناهُ : جعلناهُ طاهراً من الذُّنوب. وَقِيْلَ : معناه : { وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا } أي جعلناهُ رحمةً من عندنا لأبويهِ { وَزَكَاةً } أي صدقةً عليهما. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ تَقِيّاً } ؛ أي مُطِيعاً مُخلصاً بجميعِ كل ما يرضاهُ الله مِن عبادهِ. قال المفسِّرون : وكانَ من تقواهُ أنه لَم يعمل خطيئةً ولا هَمَّ بها.

(٠/٠)

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ } ؛ أي لطيفاً بوالديه ، مُحسناً إليهما ، { وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً } ؛ أي لَم يكن مُتَكبراً على مَن في دِينه ، ولا عاصياً لربهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ } ؛ أي سلامةٌ وسعادة مِنَّا عليه حين وُلِدَ وحين يَموتُ ، { وَيَوْمَ } ، وحين ، { يُبْعَثُ حَياً } ؛ من القبرِ. قال عطاءُ : (يُرِيْدُ سَلاَمَةً لَهُ مِنَّا).

قال سفيان بن عُيينة : (أوْحَشُ مَا يَكُونَ الْخَلْقُ فِي ثَلاَثَةِ مَوَاطِن : يَوْمَ وُلِدَ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارجاً مِمَّا كَانَ فِيْهِ ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْماً مَا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ ، وَأحْكَاماً لَمْ يَعْهَدْهَا ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ لَمْ يَرَهُ ، فَخَصَّهُ اللهُ بالْكَرَامَةِ وَالسَّلاَمَةِ وَالسَّلاَمِ فِي الْمَوَاطِنِ الثَّلاَثَةِ).

وعن الحسن : (أنَّ يَحْيَى وَعِيْسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ الْتَقَيَا ، فَقَالَ لَهُ عِيْسَى : اسْتَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، وَقَالَ يَحْيَى : اسْتَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، فَقَالَ عِيْسَى : بَلْ أنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، أنَا سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَأنْتَ سَلَّمَ اللهُ عَلَيْكَ).

(٠/٠)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً } ؛ أي اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ في القُرْآنِ خَبَرَ مريَمَ ؛ لتعتبرَ الناسُ بدِينها وصلاحِها ، والمعنى اذْكُرْ خبَرَها لأهلِ مكَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذِ انتَبَذَتْ } أي تَنَحَّتْ من أهلِها ، وتفرَّدت مِمَّن كانوا معَها في الدارِ إلى مكانٍ في جانب الشَّرق ، جلست فيهِ ؛ لأنَّها كانت في الشتَّاء ، فجلست في مَشْرَقَةِ الشمسِ.

وقال عكرمةُ : (أرَادَتِ الْغُسْلَ مِنَ الْحَيْضِ ، فَتَحَوَّلَتْ إلَى مَشْرَقَةِ دَارِهِمْ لِلْغُسْلِ) { فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً } ؛ أي مِن دون أهلِها سِتْراً لئلاَّ يرَوها ، فَ ؛ بينما هي في مشرقة الدار تغتسلُ من الحيضِ ، { فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا } ، أي دخلَ عليها جبريل عليه السلام بعد ما فرغت من الاغتسالِ في صورة شابٍّ

أمردَ حسنِ الوجه جَعْدَ الشعرِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً } ؛ وإنَّما أرسلَ اللهُ جبريلَ في صورة البشرِ ؛ لتثبت مريَمَ وتقدرَ على استماعِ كلامه.
قال ابنُ عبَّاس : (فَلَمَّا رَأتْ مَرْيَمُ جِبْرِيلَ تَقَصَّدَ نَحْوَهَا نَادَتْهُ مِنْ بَعِيْدٍ) ، { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً } ؛ أي إنْ كنتَ تقيّاً مُخلصاً مطيعاً ، فستنتهي لتعوذِي بالله منكَ ، وَقِيْلَ : إنَّ تقيّاً كان رجُلاً من أمثلِ الناسِ في ذلك الزمان ، فقالت : إن كنتَ في الصلاحِ مثل التقيِّ ، فإنِّي أعوذُ بالرَّحمنِ منكَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا } أي جبريلَ عليه السلام ، خُصَّ بالإضافةِ إلى اللهِ تعالى تشريفاً له ، وسُمِّي روحاً ؛ لأن الناسَ يَحْيَوْنَ بما جاء في أديانِهم ، كما يحيون بأرواحِ أبدانِهم.

(٠/٠)

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً } ؛ أي لأهبَ لك بأمرِ الله ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب. ومن قرأ : (لِيَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً) فالمعنى لِيَهَبَ اللهُ لكِ.

(٠/٠)

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ } ؛ أي مِن أينَ يكون لِي ولدٌ ، { وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } ؛ ولَم يقربني زوجٌ ، { وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً } ؛ أي ولَم أكن فاجرةً زانية ، والباغيةُ هي الطالبةُ للزِّنَى. قال ابنُ عبَّاس : (قَالَتْ مَرْيَمُ لَيْسَ لِي زَوْجٌ ، وَلَسْتُ بزَانِيَةٍ ، وَلاَ يَكُونُ الْوَلَدُ إلاَّ مِنَ الزَّوْجِ أو الزِّنَى).

(٠/٠)

قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ كَذالِكَ قَالَ رَبُّكِ } ؛ أي قالَ لَها جبريلُ ، كما قلتُ لكِ قالَ ربُّك : { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } ؛ أي خَلْقُهُ عليَّ هيِّنٌ من غيرِ هاتين الجهتين ، كخلقِ آدمَ ، لا أبَ ولا أُمَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا } ؛ أي لنجعلَهُ دلالةً على قدرتِنا ورحمةً للخلقِ ، وَقِيْلَ : ورحمةً لِمن اتَّبعَهُ على دِينه وصِدقه وكان خلقهُ ، { وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً } ؛ أي مَحكوماً به مَفروغاً منه ، سابقاً في علمِ الله أن يقعَ.

(٠/٠)

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً } ؛ وذلك أنَّها لَمَّا سَمعت كلامَ جبريل اطمأنَّتْ إلى قولهِ ، فدَنَا منها ونفخَ في جيبها ، فوصلت تلك النفخةُ إلى بطنِها فحملت بعيسَى عليه السلام. وَقِيْلَ : نفخَ جبريلُ بها من بعيدٍ فوصلت النفخةُ إليها فحملَتْ. فلما ظهرَ حملُها انْتَبَذتْ أي خرجت وانفردَتْ ، وتَنَحَّتْ بولادتِها إلى مكانٍ بعيد من الناسِ. والانْتِبَاذُ : مأخوذٌ من نَبَذْتُ الشيءَ إذا رميتُ بهِ ، وجلسَ نُبْذةً أي ناحيةً ، والقاصِي والقصِيُّ خلافُ الدَّانِي.

واختلفوا في مُدَّةِ حَملِها ، فقال بعضُهم : تسعةُ أشهرٍ كحمل سائرِ النِّساء على ما جرت به العادةُ ، وقال : بعضُهم ثَمانية أشهرٍ ، وكان ذلك آيةً أُخرى ؛ لأنه لَم يعِشْ مولودٌ وُضِعَ لثمانيةِ أشهر غيرُ عيسى عليه السلام ، وقال بعضُهم : ستةُ أشهر ، وَقِيْلَ : ثلاث ساعات ، وَقِيْلَ : ساعةٌ واحدة.

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (مَا هُوَ إلاَّ أنْ حَمَلَتْ فَوَضَعَتْ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَمْلِ وَالإنْبَاذِ إلاَّ سَاعَةٌ ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ بَيْنَهُمَا فَصْلاً). وقال مقاتلُ : (حَمَلَتْهُ فِي سَاعَةٍ وَصُوِّرَ فِي سَاعَةٍ ، وَوَضَعَتْهُ فِي سَاعَةٍ حِيْنَ زَالَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِهَا وَهِيَ بِنْتُ عَشْرِ سِنِيْنَ ، وَقَدْ حَاضَتْ حَيْضَتَيْنِ قَبْلَ أنْ تَحْمِلَ بِعِيْسَى عليه السلام). قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَكَاناً قَصِيّاً } أي مَكاناً بعيداً. قال ابنُ عبَّاس : (أقْصَى الْوَادِي فِرَاراً مِنْ قَوْمِهَا أنْ يُعَيِّرُوهَا بِولاَدَتِهَا مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ).

(٠/٠)

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ } ؛ أي ألْجَأَهَا ، ويقالُ : جاءَ بها وأجَاءَها بمعنى واحدٍ ، كما يقالُ ذهبَ بهِ وأذهبَهُ. والْمَخَاضُ : وَجَعُ الولادةِ ، وَقِيْلَ : تَحَرُّكُ الولدِ للولادة ، وَقِيْلَ : الحملُ. وقرأ عبدُالله : (فَآوَاهَا الْمَخَاضُ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ } ؛ وكانت نخلةً يابسة في الصحراءِ ولَم يكن لَها سَعَفٌ أي لا رأسَ لَها ، وَقِيْلَ : كان جِذْعاً مِيتاً قد أُتِي به لبناء بيتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَتْ يالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَاذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً } أي لَم أُخْلَقْ ، وَقِيْلَ : شيئاً متروكاً لا يُذكر ، والنَّسْيُ في كلام العرب : الشيءُ الحقير الذي إذا أُلْقِيَ نُسِيَ ، ولَم يُلْتَفَتْ إليه. قال السديُّ : (إنَّما تَمَنَّتْ مَرْيَمُ الْمَوْتَ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ ، خَافَتِ الْفَضِيْحَةَ).

وَقِيْلَ : للحالِ الذي دُفِعَتْ إليها من الولادةِ ، والصحيحُ : أنَّها إنَّمَا تَمَنَّتْ لعلمِها بأنَّ الناسَ سيرمُونَها بالفاحشةِ فيأثَمون بسببِها ، فَتَمَنَّتْ أن تكون ماتت قبلَ أن تقولَ الناسُ بسببها قولاً يُسْخِطُ اللهَ تعالى.

قرأ حمزةُ وحفص (نَسْياً) بفتح النون وهما لُغتان.

(٠/٠)

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِي } ؛ قال ابنُ عبَّاس والسديُّ والضحَّاك وقتادةُ : (إنَّ الْمُنَادِي مِنْ تَحْتِهَا هُوَ جِبْرِيْلُ عليه السلام ، كَأَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْ مَكَانِهَا ، فَنَادَاهَا أَلاَّ تَحْزَنِي يَا مَرْيَمُ عَلَى ولاَدَةِ عِيْسَى ، فَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَكِ الاخْتِيَارَ ، وَجَعَلَ تَحْتَكِ سَرِيّاً). قَالَ السديُّ : (هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيْرُ ، سُمِّيَ سَرِيّاً ؛ لأَنَّهُ يَسْرِي لِجَرَيَانِهِ).

وقال الحسنُ : (هُوَ عِيْسَى ، وَهُوَ وَاللهِ السَّرِيُّ مِنَ الرِّجَالِ). وهذا التأويلُ على قراءةِ مَن قرأ (مِنْ تَحْتِهَا) بكسر الميم والتَّاء ، وهي قراءةُ نافع وحمزة والكسائي وحفص ، وقرأ الباقون بالفتحِ وهو عيسَى عليه السلام لَمَّا خرجَ من بطنِ أُمِّهِ نادَاها ألاَّ تَحْزَنِي ، { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً } ؛ أي نَهراً صغيراً.

(٠/٠)

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (ضَرَبَ جِبْرِيْلُ ، وَقِيْلَ : عِيْسَى عليه السلام برِجْلِهِ الأَرْضَ فَظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ ، وَجَرَى تَحْتَ النَّخْلَةِ ، فَحَيَتْ بَعْدَ يُبْسِهَا فَأَوْرَقَتْ وَأَثْمَرَتْ وَرَطِبَتْ). ومعنى الآية : حَرِّكِي وخُذِي إليكِ جذعَ النخلةِ. والباءُ فيه زائدةٌ ، تقولُ العرب : هَزَّهُ وهَزَّ بهِ ، وخُذْ بالخطامِ وخُذِ الْخِطَامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً } ؛ قرأ يعقوبُ (يُسَاقِطْ) بالياء ، يعني الجذعَ ، وقرأ حفصٌ بالتاء وضمِّها وتخفيف السِّين وكسرِ القاف. وقرأ حمزةُ (تَسَاقَطْ) بفتح التاء والقافِ مخفَّفاً ، وقرأ الباقونَ بفتحِ التاء وتشديد السين ؛ أي يَتَسَاقَطُ ، فأُدغمت الياءُ في السين. معناهُ : يُسْقِطُ عليكِ النخلةُ ، والرطبُ الْجَنِيُّ : هو الْجَنِيُّ من الثمرةِ الرطبة الطريَّة. ونُصب (رُطَباً) على التفسيرِ. ومن قرأ (تُسَاقِطْ) بالضم انتصبَ على المفعول.

(٠/٠)

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً } ؛ أي فكُلِي من الرُّطب ، واشرَبي من النهرِ ، وقَرِّي عَيْناً بولدِكِ عيسى ، وطيبي نفساً ؛ أي يقالُ : قَرَّتْ عَيْنُهُ ؛ أي بَرَدَتْ بردَ السرورِ بما ترى ، ويقالُ : سَكَنَتْ سكونَ السُّرور برؤيةِ ما تحبُّ ، فالأولُ مِن القَرِّ ؛ والثاني من القَرَارِ. وانتصبَ (عَيْناً) على التفسير الْمُحول ، كما يقالُ : طِيْبي نَفْساً ؛ أي طابَتْ نفسُكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً } ؛ أي فإما تَرَيِنَّ من الآدميِّين أحداً ، فسألَكِ عن الولدِ أو لاَمَكِ عليه ، { فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْماً } ؛ أي صَمْتاً ، وكذلكَ كان يقرؤُها ابنُ مسعود وأنسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (صَمْتاً ؛ أيْ أوْجَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا أنْ لاَ تَتَكَلَّمَ). وقال قتادةُ : (صَامَتْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكَلاَمِ) ولِهذا قالَتْ : { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً } ؛ أي آدَمِيّاً ، وكان قد أُذِنَ لَها أن تتكلمَ بهذا القدر ثم سكتت. قال ابنُ مسعود رضي الله عنه : (أُمِرَتْ بالصَّمْتِ ؛ لأَنَّهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا حُجَّةٌ عِنَدْ النَّاسِ فِي شَأْنِ وَلَدِهَا ، فَأُمِرَتْ بالْكَفِّ عَنِ الْكَلاَمِ يَكْفِيْهَا وَلَدُهَا الْكَلاَمَ بمَا يُبْرِئُ سَاحَتَهَا). وفي الآيةِ دلالةً أنَّ الصمتَ كان قُرْبَةً في زمانِهم ، ولولا ذلكَ لَمَا نذرتْهُ مريَمُ ، ثم نُسِخَ ذلكَ بنهي النبيِّ صلى الله عليه وسلم عن صومِ الصَّمت. ويروى " أنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صَمْتِ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ ".

(٠/٠)

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً } ؛ روي أنَّها أتَتْ بعيسى تحملهُ إلى قومِها بعد أن طَهُرَتْ من نِفَاسِهَا ؛ أي بعد أربعينَ يوماً ، فتكلَّمَ عيسى في الطريقِ وهو ابنُ أربعينَ يوماً ، فقالَ : يا أُمَّاهُ أبْشِرِي فإنِّي عبدُ اللهِ ومسيحُهُ ، فلما دخلت على قومِها بَكَوا وحزِنُوا ، وكانوا أهلَ بيتٍ صالح ، و { قَالُواْ يامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً } أي مُنْكَراً عظيماً لا يُعْرَفُ منكِ ، ولا من أهلِ بيتكِ.

(٠/٠)

يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (هَارُونَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ نُسِبَتْ إِلَيْهِ) والمعنَى : يا شَبِيْهَةَ هارون في العبادةِ. " رويَ أن أهلَ الكتاب قالوا : كيفَ يقولون إنَّ مريم أختَ هارون وبينهُما ستُّمائة سنةٍ ، فذُكِرَ ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّونَ باسْمِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ ".

فعلى هذا يجوزُ أنَّ أخا مريَم كان يسمَّى هارون. وقال السديُّ : (هُوَ هَارُونُ أَخُو مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، نُسِبَتْ إِلَيْهِ ؛ لأَنَّهَا مِنْ وَلَدِهِ كَمَا يُقَالُ يَا أَخَا بَنِي فُلاَنٍ). وَقِيْلَ : كان رجُلاً فاسقاً معروفاً بالفِسْقِ فنُسبت إليه : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ } قال ابنُ عبَّاس : (يُرِيْدُ زَانِياً) ، { وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ } ؛ حِنَّةُ ؛ { بَغِيّاً } ؛ أي ما كانت بغيًّا ، فمِن أينَ لكِ هذا الولد.

(٠/٠)

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ } ؛ أي أشارَتْ إلى عيسَى عليه السلام وهو يرضعُ بأن كَلِّمُوهُ ، فَعَجِبُوا مِن ذلك و { قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً } ؛ أي في الْحِجْرِ رضيعاً ، والْمَهْدُ هَهُنَا حِجْرُ أُمِّهِ ، وَقِيْلَ : هو الْمَهْدُ بعينهِ. قال أبو عبيدةَ : (كَانَ هَهُنَا زَائِدَةٌ لاَ مَعْنَى لَهَا). والمعنى كيفَ نُكَلِّمُ صبياً في المهدِ ، ويجوزُ أن تكون (مَنْ) في موضعِ الشَّرط والجزاء ، والمعنى مَن يكن في المهدِ صبيّاً فكيفَ نُكَلِّمُهُ ، والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء ، ويجوزُ أن يكون (صَبِيّاً) نُصِبَ على الحالِ ؛ أي كيفَ نُكَلِّمُ مَن في المهدِ صبياً ؛ أي في هذه الحالةِ.

قال السديُّ : (فَلَمَّا أشَارَتْ إلَى عِيْسَى عليه السلام غَضِبُوا وَقَالُواْ : لَسُخْرِيَتُهَا بنَا أشَدُّ مِنْ زنَاهَا. فَلَمَّا سَمِعَ عِيْسَى كَلاَمَهُمْ ، تَرَكَ الرِّضَاعَ وَأقْبَلَ بوَجْهِهِ عَلَيْهِمْ وَ { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ } ؛ يعني علَّمَني التوراةَ والزبورَ. وقال مقاتلُ : (عَلَّمَهُ اللهُ الإنْجِيْلَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ) { وَجَعَلَنِي نَبِيّاً } ؛ أي حَكَمَ لِي بالنبوَّةِ في ما مضَى.

(٠/٠)

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً } ؛ أي مُعَلِّماً للخيرِ ، نَفَّاعاً { أَيْنَ مَا كُنتُ } ؛ حيثُما كنتُ أدعُوا إلى اللهِ تعالى ، وإلى توحيدهِ وعبادته ، { وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ } ؛ أي أمَرَنِي بإقامةِ الصَّلاة وإيتاءِ الزكاة ، { مَا دُمْتُ حَيّاً }.

(٠/٠)

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَرّاً بِوَالِدَتِي } ؛ أي وجعلَنِي بَرّاً لوالدتي. قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا قَالَ عِيْسَى عليه السلام : بوَالِدَتِي ، عَلِمُواْ أنَّهُ شَيْءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً } ؛ أي متعَظِّماً ، أقْتُلُ وأضربُ على الغضب ، ولا شقيّاً عاصياً لربهِ.

(٠/٠)

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } ؛ معناهُ : والسلامُ عَلَيَّ يومَ وُلدْتُ حتى لَم يضرَّني شيطانٌ ، وَيَوْمَ أمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً من القبرِ.
وفي هذا دليلٌ على أنَّ للإنسانِ أن يصفَ نفسَهُ بصفاءِ الخيرِ إذا أرادَ تعريفَها إلى غيرِهِ ، ولَمْ يُرِدِ الافتخارَ ، وهو مثلُ قولِ يوسفَ عليه السلام للملكِ{ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }[يوسف : ٥٥]. قال ابنُ عبَّاس : (إنَّمَا كَلَّمَهُمْ عِيْسَى عليه السلام بهَذا الْكَلاَمِ لاَ غَيْرِهِ ، ثُمَّ سَكَتَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى بَلَغَ مِقْدَارَ مُدَّةِ مَا يَتَكَلَّمُ الصِّبْيَانُ).

(٠/٠)

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ } ؛ أي ذلكَ الذي قالَ إنِّي عبدُ اللهِ عيسَى بنُ مريَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ، مَن قرأ بنصب (قَوْلَ) فالمعنى : قولَ الحقُ ، ومَن رفعهُ فالمعنى : هو قولُ الحقِّ ، أو كلمةُ الحقِّ ، والحقُّ هو الحقُّ تعالى. ومعنى قراءةِ النصب أقولُ قولَ الحقِّ ، { الَّذِي فِيهِ يَمْتُرُونَ } ؛ أي يَشُكُّونَ فيختلفون ، فإنَّهم اختلفوا – يعنى النصَارَى – فقائلٌ منهم يقولُ : هو اللهُ ، وقائلٌ يقولُ : هو ابنُ الله ، واليهودُ تقول : وُلِدَ لغيرِ رشدةٍ.

(٠/٠)

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ } ؛ أي ما ينبغي للهِ أن يتخذ ولداً وليس ذلك مِن صفاتِهِ ،

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سُبْحَانَهُ } ؛ أي تنْزيهاً له عن الولدِ والشريك. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ؛ أي كيفَ يَتَّخِذُ ولداً مَنِ إذا شاءَ أمراً كان كما خلقَ عيسى بلا أبٍ.

(٠/٠)

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَاذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } ؛ هذا إخبارٌ عن عيسى أنهُ قال ذلك. من قرأ بفتحِ الهمزة فالمعنَى : وأوصاني أنَّ اللهَ ربي وربُّكم ، أو قضَى أنَّ اللهَ ربي وربُّكم ، ومَن كسرَها فعلى الاستئنافِ ، ويجوزُ أن يكون عطفاً على (إنِّي عَبْدُ اللهِ). والصراطُ المستقيمُ هو الدِّين المستمرُّ في جهةٍ واحدة ، وَقِيْلَ : معناهُ : هذا الذي أخبَرَكم أنَّ اللهَ أمرَني به هو الطريقُ المستقيم الذي يؤدِّي إلى الجنَّة.

(٠/٠)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ } ؛ ويعني بالأحزاب : النصارَى ، كانوا أحزَاباً متفرِّقين في أمرِ عيسى عليه السلام ، فبعضُهم يقول : اللهُ ، وبعضهم يقولُ : هو ابنُ الله ، وبعضُهم يقولُ : ثالثُ ثلاثةٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ؛ أي فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ تحدَّثوا في عيسَى مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ يشهدهُ الخلائقُ.

(٠/٠)

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا } ؛ أي ما أسْمعُهم وما أبصرُهم يومَ القيامةِ ؛ أي يشاهدون من الغيب ما يُسْمَعُ ويُبْصَرُ بلا شكٍّ ولا مِرْيَةٍ. قال قتادةُ : (سَمِعُوا حِيْنَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ السَّمْعُ ، وَأبْصَرُوا حِيْنَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ الْبَصَرُ). وقال الحسنُ : (لَئِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا عُمْياً وَصُمّاً عَنِ الْحَقِّ ، فَمَا أبْصَرَهُمُ وَأسْمَعَهُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَاكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ أي لكنَّهم في الدُّنيا في كُفْرٍ بَيِّنٍ.

(٠/٠)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ } ؛ أي خَوِّفْ يا مُحَمَّدُ أهلَ مكَّة يومَ يَتَحَسَّرُ الْمُسِيْءُ هَلاَّ أحسنَ العملَ ، والْمُحْسِنُ هلاَّ ازدادَ مِن الأحسنِ. وقال أكثرُ المفسِّرين : يعني الْحَسْرَةَ يومَ يُذْبَحُ الموتُ بين الفريقين ، فلو ماتَ أحدٌ فرَحاً لَما ماتَ أهلُ الجنَّة ، ولو ماتَ أحدٌ حُزناً لَمَا ماتَ أهلُ النارِ.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " يُجَاءُ بالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أمْلَحُ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَالُ : يَا أهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذا ؟ فَيُشْرِفُونَ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ؛ هَذا الْمَوْتُ. فَيُقَالُ لأَهْلِ النَّارِ كَذلِكَ ، فَكُلُّهُمْ قَدْ عَرَفَهُ ، فَيُذْبَحُ ، وَيُقَالُ : يَا أهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بلاَ مَوْتٍ ، وَيَا أهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بلاَ مَوْتٍ " ثُمَّ قَرَأ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ } " قال مقاتلٌ : (لَوْلاَ مَا قَضَى اللهُ مِنْ تَخْلِيْدِ أهْلِ النّ◌ّ◌َارِ وَتَعْمِيْرِهِمْ فِيْهَا ، لَمَاتُواْ حَسْرَةً حِيْنَ رَأوْا ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ } أي قُضِيَ لَهم العذابُ في الآخرة ، وهم في الدُّنيا في غفلةٍ. وقال السديُّ : (إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ؛ أيْ ذُبِحَ الْمَوْتُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ فِي الدُّنْيَا عَمَّا يُصْنَعُ بالْمَوْتِ ذلِكَ الْيَوْمِ) { وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ بما يصنعُ بالموتِ ذلكَ اليوم.

ويقالُ : معنى قولهِ تعالى { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ } هو يومُ يأتيهم مَلَكُ الموتِ يقبضُ أرواحَهم ، فإذا وقعتِ المعاينةُ قال عندَ ذلك : رَب أرْجِعُونِي ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ }[المؤمنون : ٩٩-١٠٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ } أي وَهُمْ في الدُّنيا في غفلةٍ ، وهم لا يؤمنونَ بالقُرْآنِ.

(٠/٠)

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } ؛ أي نُمِتْ سكَّانَها فنرثُها ، وهذا كقولهِ تعالى{ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ }[الحجر : ٢٣] ؛ لأنَّهم إذا ماتُوا انقطعَ مُلْكُ العبادِ عنِ الأرض. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } ؛ أي بعدَ الموتِ ، فنجزِيَهم بأعمالِهم.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً } ؛ أي واذكُرْ في القُرْآنِ لقومِكَ قصَّةَ إبراهيمَ ؛ إنهُ كثيرُ التصديقِ بالحقِّ مُوقِناً صَدُوقاً رَسُولاً نبيّاً.

(٠/٠)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ياأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ } ؛ أي لِمَ تعبدُ مِن دون الله مَا لاَ يسمَعُ إنْ دعوتَهُ ، ولا يُبْصِرُ إن عبدتَهُ ، يعني الصنمَ ، { وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } ؛ من عذاب الله ، ولا يدفعُ عنك ضُرّاً.

(٠/٠)

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ } ؛ أي من العِلْمِ باللهِ والمعرفة ، وإنَّ مَنْ عبدَ غيرَ الله عَذْبَهُ ، { فَاتَّبِعْنِي } ؛ عَلَى دِيني { أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً } ؛ أي أُرشِدُكَ إلى دِينٍ مستقيم.

(٠/٠)

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } ؛ أي لا تُطِعْهُ فيما زَيَّنَ لكَ من الكفرِ والمعاصي ، { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيّاً } ؛ أي كثيرَ العصيانِ لله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَانِ } ؛ أي عذابٌ مِنَ اللهِ بطاعتك للشيطانِ ، { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } ؛ أي قَرِيْناً في النار.

(٠/٠)

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي ياإِبْرَاهِيمُ } ؛ أي قالَ له أبوهُ مُجِيباً له : أمُعْرِضٌ وتاركٌ أنتَ عبادةَ آلِهتي يا ابراهيمُ ، { لَئِن لَّمْ تَنتَهِ } ؛ عن مقالِتكَ ، وتسكُتَ عن شَتْمِ آلِهتي وعيبها ، { لأَرْجُمَنَّكَ } ؛ أي لأرمينَّكَ بالشَّتمِ والعيب ، وَقِيْلَ : لأقتلنَّكَ رَجْماً ، { وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً } ؛ أي تَبَاعَدْ عنِّي دهراً طويلاً.

وقال الحسنُ وقتادة : (مَعْنَى مَلِيّاً ؛ أي سالِماً سويّاً مِن قبلِ أن يلحقكَ مكروهٌ منِّي) ، وأصلُ الْمَلاَوَةِ الزمانُ الطويل من الدهرِ ، يقالُ : أقامَ في موضع كذا مَلِيّاً ، والْمَلَوَانِ : الليلُ والنهارُ.

(٠/٠)

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ } ؛ أي قالَ إبراهيمُ لأبيهِ : سَلِمْتَ منِّي لا أصيبُكَ بمكروهٍ ، وذلك أنهُ لَم يؤمِن بقتالهِ على كُفرهِ ، هذا سلامٌ توديعٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } ؛ أي سأسأَلُ اللهَ لكَ توبةٌ تنالُ بها مغفرتَهُ ، ويرزقكَ التوحيدَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } ؛ أي لَطِيْفاً رَحِيماً ، وَقِيْلَ : عالِماً يستجيبُ لِي إذا دعوتُ.

(٠/٠)

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي أتَنَحَّى عنكم وأفارِقُكم ، وأعتزلُ ما تدعون من دون اللهِ يعني الأصنامَ ، فاعتزلَهم وهاجرَ إلى الأرضِ المقدسة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً } ؛ أي مَحْرُوماً خَائِباً.

(٠/٠)

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً } ؛ أي فلما خرجَ إلى ناحيةِ الشَّام ، وتركَهم وتركَ أصنامَهم آنَسْنَا وحشتَهُ بأولادٍ كِرَامٍ على اللهِ تعالى ، ووَهَبْنَا لَهم نِعَماً كثيرةً ، وأكرمناهم بالثَّناءِ الحسَنِ.

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا } ؛ أي وهبنا لَهم المالَ والولدُ ، وبسَطْنا لَهم في الرِّزقِ. وقال بعضُهم : يعني الكتابَ والنبوَّةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً } ؛ أي ثناءً حَسَناً في الناس ، مرتفعاً سائراً لإي الناسِ ، فكلُّ أهلِ الْمِلَلِ والأديانِ يُحْسِنُونَ الثناءَ عليهم ، ويتولَّون إبراهيمَ ودِينَهُ.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً } ؛ أي واذْكُرْ في القُرْآنِ خَبَرَ موسى إنه كان مُخلصاً للهِ تعالى بالعبادةِ والتوحيد ، وكان رسُولاً رفيعاً. ومَن قرأ (مُخْلَصاً) بفتحِ اللام فمعناهُ : أخْلَصْنَاهُ وأحببناهُ.

(٠/٠)

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ } ؛ قِيْلَ : إن النداءَ هو قولُ اللهِ تعالى له يا موسى{ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[القصص : ٣٠] ، والطُّورُ : هو جبلٌ بالشامِ ، نادهُ الله تعالى من ناحيةِ اليُمنى ، يعني يَمين موسى ، والمعنى أن موسَى سَمع النداءَ عن يَمينهِ ، ولا يكون للجبلِ يَمينٌ ولا يسار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً } ؛ أي جعلنا محلَّهُ مِنَّا ، محل مَن قربه مولاهُ من مجلسِ كرامته ، والنَّجِيُّ هو المختصُّ بإدراكِ كلامِ مُكَلِّمِهِ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (قَرَّبَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى إِلَى أَعْلَى الْحُجُب حَتَّى سَمِعَ صَرِيْرَ الْقَلَمِ).

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً } ؛ وذلكَ حين سألَ موسى رَبَّهُ فقال{ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي }[طه : ٢٩-٣٠] فاستجابَ اللهَ دعاءَهُ.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } ؛ هو إسماعيلُ بن إبراهيمَ ، ومعنى صادِقَ الوعدِ ؛ أي أنه كان إذا وَعَدَ أنْجَزَ. قال ابنُ عبَّاس : (إنَّهُ وَعَدَ رَجُلاً أنْ يَنْتَظِرَهُ حَتَّى رَجَعَ إلَيْهِ ، فَأَقَامَ مَكَانَهُ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى حَالَ الْحَوْلُ وَرَجَعَ إلَيْهِ الرَّجُلُ). { وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً } ؛ إلَى جُرْهُمَ.

(٠/٠)

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ } ؛ قِيْلَ : أرادَ بالأهلِ أُمَّتَهُ ، وأهلَ أُمَّتِهِ ، ونظيره{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ }[طه : ١٣٢] أي قومَكَ ، { وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً } ؛ أي صَالحاً زَكِيّاً.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً } ؛ اسمُ ادريسَ أخْنُوخَ ، وهو جدُّ أبي نوحٍ ، وسُمي إدريس لكثرةِ دَرْسِه الكتبَ ، وكان خَيَّاطاً وهو أولُ من خطَّ بالقلمِ ، وهو أولُ من خاطَ الثيابَ

ولبس المخيطَ ، وأولُ من نَظرَ في علمِ النُّجوم والحساب.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً } أنزلت عليه ثلاثونَ صحيفةً ، وهو أولُ من لَبسَ القطنَ ، وكانوا قَبْلَ ذلك يلبسونَ جلود الضَّأْنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً } رُوي عن أنسِ بن مالك ، وأبي سعيدٍ الخدريِّ ومجاهد : (أَنَّهُ رُفِعَ أَلَى السَّمَاءِ الرَّابعَةِ) ، وقال ابنُ عبَّاس والضحَّاك : (إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ). وَقِيْلَ : معناهُ : ورفعناهُ في العلمِ والنبوَّة إلى درجةٍ عالية. وروي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : " لَمَّا عُرِجَ بي رَأَيْتُ إِدْرِيْسَ فِي السَّمَاءِ الرَّابعَةِ ".
وكان سببُ رفعهِ على قولِ ابنِ عبَّاس : (أنهُ سارَ ذات يومٍ في حاجتهِ فأصابَهُ وَهَجُ الشمسِ ، فقال : يا رب إنِّي مشيتُ يوماً واحداً ، فكيفَ بمن حملَها خمسمائةَ عامٍ في يوم واحد ، اللَّهُمَّ خَفِّفْ عنهُ مِن ثقلِها واحمِلْ عنهُ حرَّها ، فلما أصبحَ الملكُ الْمُوَكَّلُ بها وجدَ خِفَّةً في حرِّها بخلافِ ما يعرفُ ، فقالَ : يا رب ما الذي قضيتَ ؟ فقال : إنَّ عبدي إدريسَ سألَني أن أخفِّفَ عنكَ حملَها وحرَّها فأجبتهُ ، فقال : يا رب اجْمَعْ بيني وبينَهُ صبحةً فأذِنَ له حتى أتَى إلى إدريسَ ، فسألَهُ عن ذلك فأخبرَهُ أنه دعا له شفقةً عليهِ ، ثُم حملَهُ مَلَكُ الشمسِ على جناحهِ ، ورفعه إلى السَّماء بإذنِ الله تعالى).

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُولَائِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّيْنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ } ؛ معناهُ : إن الذينَ ذكرتُهم هم الذينَ أكرَمَهم اللهُ بالنبوَّة والإسلام من ذريَّة آدمَ ، وإنَّما قَرَنَ ذكرَ نَسَبِهِمْ مع أنَّ كلَّهم كانوا لآدمَ لِيُبَيِّنَ مراتبَهم في شرفِ النسب ، فإنهُ كان لإدريسَ شرفُ القُرْب من آدمَ ، وكان إبراهيمُ من ذريَّة نوحٍ ، وكان إسماعيل واسحقُ من ذريَّة إبراهيمَ ، وكان موسى وهارون وزكريَّا ويحيى وعيسَى من ذريَّة إسرائيلَ ، فقولهُ : { مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ } يعني إدريسَ ونوح ، { وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } ؛ في السفينةِ يعني إبراهيمَ ؛ لأنه من ولدِ سَامِ بن نوحٍ ، { وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ } ؛ يعني إسماعيلَ وإسحق ويعقوبَ ، وقوله ، { وَإِسْرَائِيلَ } ؛ يعني أنَّ من ذريَّة إسرائيل : موسَى وهارون ومَن ذكرناهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ } ؛ أي هؤلاء كانوا مِمَّن أرشدنا واصطفينا لإداءِ الرِّسالة ، { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ } ؛ التي أُنزلت عليهم ، { خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً } ؛ أي وَقَعُوا يسجدونَ للهِ تعالى ، ويبكونَ من مخافةِ الله ، والسُّجَّدُ : جمعُ ساجدٍ ، والبُكِيُّ جمعُ بَاكٍ.

(٠/٠)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ } ؛ أي فخَلَفَ مِن بعد هؤلاء الأنبياءِ المذكورين والصالحينَ { خَلْفٌ } أي قومٌ سُوءٍ وهم اليهودُ والنصارى ومَن لَحِقَ بهم. يقالُ في الرداءةِ : خَلْفٌ بإسكانِ اللام ، وفي الصَّلاَحِ : خَلَفٌ بفتحِ اللام.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَضَاعُواْ الصَّلَاةَ } أي أخَّرُوها عن مواقيتِها لغيرِ عُذر ، وَقِيْلَ : تَرْكُوها أصلاً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ } يعني المعاصِيَ وشربَ الخمرِ ، واشتغَلُوا بالملذات في ما حُرِّمَ عليهم ، وآثرُوها على طاعةِ الله تعالى. قال وهبٌ : (شَرَّابُونَ الْقَهَوَاتِ ؛ لَعَّابُونَ بالْكِعَابِ ؛ رَكَّابُونَ الشَّهَوَاتِ ؛ مُتَّبِعُونَ الْمَلَذاتِ ؛ تَارِكُونَ الْجَمَاعَاتِ ؛ مُضَيِّعُونَ الصَّلَوَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيّاً } ؛ قال ابنُ مسعودٍ وعطاء : (هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيْدُ الْقَعْرِ) ، قال ابنُ عبَّاس : (الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَسْتَعِيْذُ أَوْدِيَةُ جَهَنَّمُ مِنَ حَرِّهِ أُعِدَّ لِلزَّانِي وَشَارِب الْخَمْرِ وَآكِلِ الرِّبَا وَأَهْلِ الْعُقُوقِ وَلِشَاهِدِ الزُّورِ ، وَلِامْرَاةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا وَلَداً مِنْ غَيْرِهِ).

وَقِيْلَ : الغَيُّ وَادٍ في جهنَّمَ يسيلُ قيحاً ودَماً أُعِدَّ للغاوينَ ، فسُمي غَيّاً ؛ لأنهُ جزاءُ الْغَيِّ ، كما قالَ تعالى{ يَلْقَ أَثَاماً }[الفرقان : ٦٨] أي جزاءَ الإثمِ. وقال كعبٌ : (الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أَبْعَدُهَا قَعْراً وَأَشَدُّهَا حَرّاً ، فِيْهِ بِئْرٌ يُسَمَّى بَهْغَمُ ، كُلَّمَا خَبَتْ جَهَنَّمُ فُتِحَ لَهَا بَابٌ إِلَى تِلْكَ الْبِئْرِ فَتُسْعَرُ بِهِ جَهَنَّمُ).

(٠/٠)

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)

قوله تعالى : { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَائِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً } ؛ معناه : إلاّ التائبينَ منهم ، ويجوزُ أن يكون نَصْباً استثناءً من غيرِ الأوَّل على معنى لكِنْ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ولا ينقصونَ من حسناتِهم.

(٠/٠)

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ } ؛ أي بساتينَ إقامةٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِالْغَيْبِ } يعنِي أنَّهم غابُوا عن ما فيها ، وانتصبَ قولهُ { جَنَّاتِ } ؛ لأنه بدلٌ من الجنةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً } ؛ أي مُوعُودهُ آتِياً كائناً ، وإنَّما لَم يقل آتِياً ؛ لأنه كلَّ ما أتاكَ فقد أتيتَهُ.

(٠/٠)

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً } ؛ أي لا يسمعونَ في الجنَّةِ كَلاماً ساقطاً ، ولا يسمعونَ إلاّ سلاماً ، يُسَلِّمُ بعضُهم على بعضٍ ، والسَّلاَمُ هو الكلامُ الذي لا لغوَ فيهِ ولا إثْمَ. وَقِيْلَ : معناه : لا يسمعونَ في الجنةِ كلاماً بَاطلاً وفحشاءَ وهدرًا وفُضولاً من الكلامِ. وقال مقاتلُ : (يَمِيْناً كَاذِبَةً وَلاَ يَسْمَعُونَ إلاَّ سَلاَماً ، يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ ، وَيُرْسِلُ إلَيْهِمْ الرَّبُّ بالسَّلاَمِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } ، قال المفسِّرون : ليس في الجنَّةِ بُكْرَةً وعشيَّةً ، ولكنَّهم يؤتَون رزقَهم على مقدار ما يعرفون من الغَدَاءِ والعشاءِ ، قال قتادةُ : (كَانَ الْعَرَبُ إذا حَصَلَ لأَحَدِهِمْ الْغَدَاءُ وَالْعَشَاءُ أُعْجِبَ بهِ ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ لَهم في الجنَّةِ رِزْقَهم بكرةً وعشيّاً على قدرِ ذلك الوقتِ) ؛ أي يُجْمَعُ لَهم الطعامُ في هذين الوقتينِ كما يكونُ في الدُّنيا ، ويأكلونَ فيما عدَا هذين الوقتينِ ما يشتهون كما في الدُّنيا.

(٠/٠)

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً } ؛ أي هذه الجنةُ التي وصَفَها اللهُ تعالى هي التي نورثُ من اتَّقَى معصيةَ الله ، وعَمِلَ بالطاعةِ والإيْمانِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { نُورِثُ } أي نُعطي ، وإنَّما

قال { نُورِثُ } ؛ لأن اللهَ تعالى أوْرَثَهم من الجنةِ مساكنَ أهلِ النار لو اطَّلَعُوا. وَقِيْلَ : لأنه تَمليكٌ في حالِ مبتدأ بعدَ انقضاءِ أجَلِ الدُّنيا.

(٠/٠)

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ } ؛ وذلك " أن جبريلَ عليه السلام أبْطَأَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالوحيِ ، فلَّما أتاهُ قالَ لهُ : " مَا زُرْتَنَا حَتَّى اسْتَبْطَأْنَاكَ ". وَقِيْلَ : قَالَ لَهُ : " مَا يَمْنَعُكَ يَا جِبْرِيْلُ أنْ تَزُورَنَا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا ". فأنزلَ اللهُ عُذْرَ جبريلَ " والمعنى : قُلْ لهُ وما نَتَنَزَّلُ مِن السَّماء إلاَّ بأَمْرِ رَبكَ. وَقِيْلَ : " اسْتَبْطَأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم جِبْرِيْلَ ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ : " يَا جِبْرِيْلُ أبْطَأْتَ عَلَيَّ حَتَّى سَاءَ ظَنِّي فاشْتَقْتُ إلَيْكَ " فَقَالَ لَهُ : إنِّي كُنْتُ إلَيْكَ أشْوَقَ ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ ، إذا بُعْثْتُ نَزَلْتُ ، وَإذا حُبسْتُ احْتَبَسْتُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هذه الآيةَ { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ } "
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلِكَ } ؛ أي لهُ ما بينَ أيدينا من أمرِ الدُّنيا وما خلفَنا من الآخرةِ ، وَمَا بَيْنَ ذلِكَ ؛ يعني : ما بينَ النَّفختَين وبينَهُما أربعون سَنةً. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً } ؛ أي وما كان ربُّكَ ليَتْرُكَكَ ، وإن تأخرَ عنك رسولهُ.

(٠/٠)